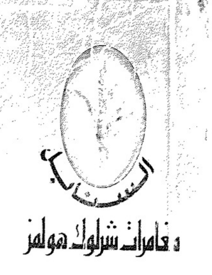


مغامرات شرلوك هولمز

عصبة ذوي الشعر الأحمر

وقصص أخرى


عصبة ذوي الشعر الأحمر



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي – الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩١

رقم الإيداع : ٢٤٤٩ / ١٩٩١

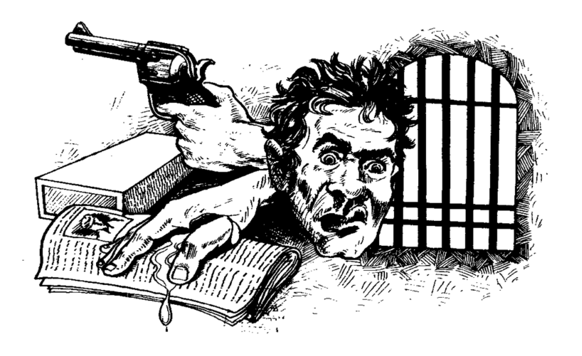
الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ – ١٦ – ٠٠١٧ – ٦

طبع بمطابع دار المعارف





مغامرات شرلوك هولمز



تأليف : سير آرثر كونان دويل

أعدها بالعربية : محمد فوزي موسى

رسوم : عبد الشافي سيد



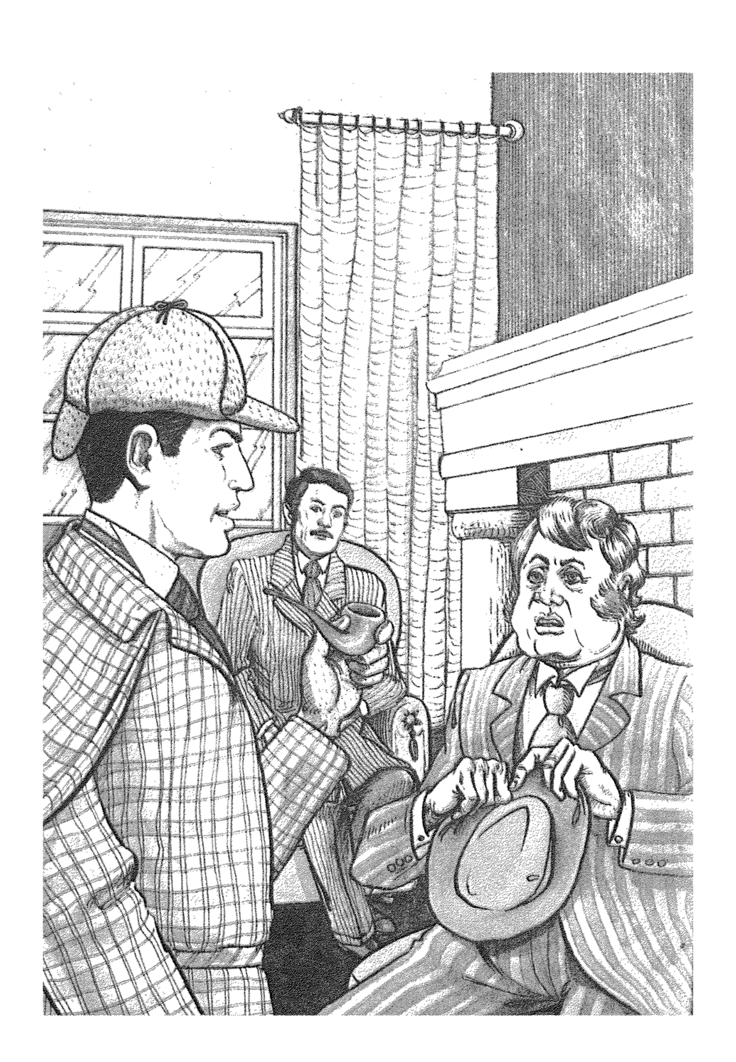
الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان

عُصْبَة ذَوي الشَّعْر الأحْمَر

في صباح يَوْم سَبْتٍ مِنْ أيّام الخَريفِ ذَهَبْتُ لِزيارَةِ صَديقي شِرْلُوك هُولمز في مَسْكَنِهِ ، فَوَجَدْتُ عِنْدَهُ زائِراً عَجوزاً بَديناً ، أحْمَرَ الوَجْهِ ، شَعْرُهُ أحْمَرُ لامعٌ بِشَكْلٍ غَيْرِ عادِيٍّ . وَاعْتَذَرْتُ لِهُولمز قائِلاً : « مِنَ الأفْضَل أنْ أرْحَلَ الآنَ ، لأنّي أراكَ مَشْغولاً .»

لكِنَّهُ جَذَبَني إلى داخِلِ الحُجْرَةِ ، وَأغْلَقَ البابَ خَلْفي ، وَهُوَ يُرَحِّبُ بي قائِلاً : « لَقَدْ جِئْتَ في وَقْتِكَ ، يا واطْسُن ، فَهذِهِ فُرْصَةٌ طَيِّبَةٌ .»

قُلْتُ : « إنَّني أخْشى أنْ تَكونَ مَشْغولاً .» فَأخْبَرَني أنَّهُ مَشْغولٌ جِدًّا . وَأرَدْتُ أنْ أنْتَظِرَهُ في الحُجْرَةِ المُجاوِرَةِ ، فَلَمْ يُوافِقْ عَلى ذلِكَ ، وَنَظَرَ إلى ضَيْفِهِ قائِلاً : « لَقَدْ عاوَنَني واطْسُن في كَثيرٍ مِنَ القَضايا النّاجِحَةِ ، وَلَيْسَ لَدَيَّ شَكٌّ في أنَّهُ سَوْفَ يُفيدُنا في هَذِهِ القَضِيَّةِ .»



قَدَّمَ هُولْمز ضَيْفَهُ إِلَيَّ قائِلاً : « هذا جابيز وِيلْسون .» فَنَهَضَ الرَّجُلُ مِنْ مَقْعَدِهِ ، وانْحَنى لِتَحِيَّتي وَهُوَ يَتَفَحَّصُني بِعَيْنَيْنِ صَغيرتَيْنِ غائِرَتَيْنِ ، ثُمَّ جَلَسْنا جَميعاً .

قالَ هُولْمز : « قُصَّ عَلَيْنا ، يا وِيلْسون ، قِصَّتَكَ مِنْ جَديدٍ حَتّى يَسْتَمِعَ إِلَيْها الدُّكْتورُ واطْسُن ، وَلا تُغْفِلْ شَيْئاً مِنْ تَفاصيلِها ؛ فَقَدْ تُفيدُنا في هذِهِ القَضِيَّةِ الغَريبَةِ .»

وَأَخْرَجَ الرَّجُلُ قُصاصَةَ وَرَقٍ قَذِرَةً قَديمَةً ، اقْتَطَعَها مِنْ صَحيفَةٍ يَوْمِيَّةٍ ، وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُ ما بِها مِنْ إِعْلاناتٍ .

أَدْرَكَ هُولْمز ما يَدورُ بِذِهْني مِنْ أَفْكارٍ ، وَأَنا أُطيلُ النَّظَرَ إِلى ضَيْفِهِ، فَقالَ : « جَميلٌ أَنْ تُحاوِلَ ، يا واطْسُن ، أَنْ تَكونَ مُخْبِراً سِرِّيّاً . إِنَّ مَظْهَرَ السَّيِّدِ وِيلْسون يَدُلُّ عَلى ما كانَتْ عَلَيْهِ حَياتُهُ في الماضي ؛ فَمِنَ الواضِحِ أَنَّهُ كانَ يَشْتَغِلُ عامِلاً يَدَوِيّاً ، وَفي المُدَّةِ الأَخيرَةِ انْهَمَكَ في النَّسْخِ وَالتَّدْوينِ ، وَأَظُنُّ أَنَّهُ قامَ مُؤَخَّراً بِزِيارَةِ الصّينِ...»

دَهِشَ السَّيِّدُ وِيلْسون فَقالَ : « إِنَّني لَمْ أَذْكُرْ لَكَ شَيْئاً مِنْ هذا، فَكَيْفَ عَرَفْتَ ، يا سَيِّدُ هُولْمز ، أَنّي كُنْتُ عامِلاً ؟! إِنَّكَ مُصيبٌ ، فَعِنْدَما كُنْتُ صَغيراً عَمِلْتُ نَجّاراً .»

أجابَهُ هُولْمز : « إنَّ يَدَيْكَ تَدُلّانِ عَلى ذلِكَ ، فَإنّي أرى يَدَكَ اليُمْنى أكْبَرَ مِنَ اليُسْرى ، لأنَّكَ كُنْتَ تَسْتَخْدِمُها في عَمَلِكَ ، وقَدْ أثَّرَ ذلِكَ في نُمُوِّها .»

« وَلكِنْ خَبِّرْني كَيْفَ عَرَفْتَ أنّي عَمِلْتُ وَقْتاً طَويلاً في النَّسْخ ؟!»

رَدَّ عَلَيْهِ : « وَجَدْتُ كُمَّكَ الأيْمَنَ قَدْ بَلِيَ تَماماً قُرْبَ المِعْصَمِ، أمّا الكُمُّ الأيْسَرُ فَقَدْ تآكَلَ عِنْدَ الكوع . وَالسَّبَبُ في ذَلِكَ أنَّ مِعْصَمَكَ الأيْمَنَ وَذِراعَكَ اليُسْرى كانا دائِمَيْ الاحْتِكاكِ بِمَكْتَبٍ، وَأنَّكَ كُنْتَ تُمضّي وَقْتاً طَويلاً في النَّسْخِ .»

قالَ ويلْسون وقَدْ زادَتْ دَهْشَتُهُ : « هذا صَحيحٌ ! ولكِنْ خَبِّرْني كَيْفَ عَرَفْتَ أنّي كُنْتُ في الصّينِ ؟»

أجابَ هُولْمز : « إنَّ الوَشْمَ المَوْجودَ عَلى مِعْصَمِكَ الأيْمَنِ يُمَثِّلُ سَمَكَةً حَمْراءَ داكِنَةً ، وَهذا النَّوْعُ مِنَ الوَشْمِ لا يوجَدُ إلّا في الصّين . واعْلَمْ أنّي خَبيرٌ في فَنِّ الوَشْمِ ، وَقَدْ ألَّفْتُ عَنْهُ كِتاباً. كما لاحَظْتُ قِطْعَةً مِنَ النُّقودِ الصّينِيَّةِ تَتَدَلّى مِنْ سِلْسِلَةِ ساعَتِكَ ، فَمِنَ السَّهْلِ أنْ أكْتَشِفَ أنَّكَ قُمْتَ بِزِيارَةِ الصّينِ .»

ضَحِكَ وِيلْسون ، وَقالَ : « يا لَكَ مِنْ بارِعٍ ، يا سَيِّدُ هُولْمز ! »

وَنَظَرَ هُولْمز إِلَيَّ قائِلاً : « كانَ يَنْبَغي أَنْ لا أَسْتَطْرِدَ في تَفْسيرِ مُلاحَظاتي . والآنَ ، هَلْ عَثَرْتَ ، يا وِيلْسون ، عَلى الإِعْلانِ الَّذي كُنْتَ تَبْحَثُ عَنْهُ ؟ »

رَدَّ وِيلْسون وَهُوَ يُشيرُ بِأُصْبُعِهِ إِلى قِطْعَةِ الوَرَقِ الَّتي بِيَدِهِ : « لَقَدْ وَجَدْتُهُ ، يا سَيِّدي . ها هُوَ ذا . »

أَخَذْتُ مِنْهُ الوَرَقَةَ المَقْطوعَةَ مِنْ صَحيفَةٍ مَضى عَلَيْها شَهْرانِ ، وَقَرَأْتُ فيها هذا الإِعْلانَ :

عصبة ذوي الشعر الأحمر

في حاجَةٍ إِلى رَجُل لِيَشْغَلَ وَظيفَةً جَديدَةً بِمَقَرِّ الجَماعَةِ الَّتي أَسَّسَها إِزْكيا هوبِكِنْز ، مِنْ بِنْسِلْفانْيا ، وَأَوْصى لَها بِمَبْلَغٍ كَبيرٍ مِنَ المالِ . وَالأَجْرُ المُقَرَّرُ لِهذِهِ الوَظيفَةِ أَرْبَعَةُ جُنَيْهاتٍ في الأُسْبوعِ ، وَ مَهامُّ العَمَلِ سَهْلَةٌ لِلْغايَةِ ، وَأَيُّ رَجُلٍ شَعْرُهُ أَحْمَرُ وَيَتَمَتَّعُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ ، وَ لا يَقِلُّ عُمْرُهُ عَنْ واحِدٍ وَعِشْرينَ سَنَةً ، يُمْكِنُهُ التَّقَدُّمُ لِهَذِهِ الوَظيفَةِ عَلى العُنْوانِ الآتي : مَبْنى « عُصْبَةِ ذَوي الشَّعْرِ الأَحْمَرِ » ، ٧

شارِع فليت ، لَنْدَن ، في السّاعَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ صَباحَ يَوْمِ الاثْنَيْنِ.

دَنْكان روس

بَعْدَ أنْ قَرَأتُ الإعْلانَ مَرَّتَيْنِ قُلْتُ لِهُولْمز : « ما مَعْنَى هذا ؟»

ضَحِكَ قائلاً : « إنَّهُ إعْلانٌ غَريبٌ إلى حَدٍّ ما ، يا واطْسُن !» ثُمَّ الْتَفَتَ إلى وِيلْسون وَقالَ : « الآنَ عَلَيْكَ أنْ تُحَدِّثَنا عَنْ نَفْسِكَ وَبَيْتِكَ وَخَدَمِكَ ، وَ عَمّا تَعْرِفُهُ عَنْ ذَوي الشَّعْرِ الأحْمَرِ .»

قالَ وِيلْسون : « حَسَنٌ ، أيُّها السّادَةُ ؛ أنا أعْمَلُ مُرتَهِناً ، وَيَقَعُ مَحَلّي في مَيْدانِ ساكْس - كوبيرغ ، هُنا في لَنْدَن . وَعَمَلي لَيْسَ ضَخْماً ، فَهُوَ يَكادُ لا يُحَقِّقُ رِبْحاً الآنَ ، وَكانَ يُساعِدُني في المَحَلِّ رَجُلانِ ، أمّا الآنَ فَمَعي رَجُلٌ واحِدٌ . وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ أنَّ هذا الرَّجُلَ مُسْتَعِدٌّ لأنْ يَقْبَلَ نِصْفَ أجْرِهِ ؛ لأنَّ لَدَيْهِ الرَّغْبَةَ في تَعَلُّمِ أصولِ العَمَلِ .»

قالَ هُولْمز : « ما اسْمُ هذا الرَّجُلِ ؟»

أجابَ وِيلْسون : « اِسْمُهُ ڤينْسِنْت سبولْدِنْغ . وَلا أعْرِفُ شَيْئاً عَنْ عُمْرِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ صَغيراً ، وَهُوَ عامِلٌ مُمْتازٌ يُمْكِنُهُ أنْ يَكْسِبَ مالاً

أكْثَرَ في مَكانٍ آخَرَ ، لكِنّي لَمْ أخْبِرْهُ بِذلِكَ .»

قالَ هُولْمز : « يَحْسُنُ أنْ لا تُخْبِرَهُ بِذلِكَ . وَلكِنْ أ لَيْسَتْ لِهذا الشّابِّ عُيوبٌ ؟»

أجابَ : « إنَّ عَيْبَهُ الوَحيدَ هُوَ هِوايَتُهُ لِلتَّصْويرِ ! إنَّهُ يُمضّي وَقْتاً طَويلاً في القَبْوِ حَيْثُ يَقومُ بِتَحْميض الأفْلامِ وَطَبْعِها ، فَهُوَ كالأرْنَبِ المُخْتَبِئِ في جُحْرِهِ ! وَفيما عَدا ذلِكَ هُوَ عامِلٌ مُمْتازٌ .»

سَألَهُ هولْمز : « هَلْ لَدَيْكَ أحَدٌ مِنَ الخَدَمِ ؟»

قالَ : « أجَلْ ، لَدَيَّ فَتاةٌ تَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ أرْبعَةَ عَشَرَ عاماً ، تَقومُ بِأعْمالِ الطَّهْي وَتَنْظيفِ المَنْزِلِ ، وَتُقيمُ مَعي هِي وَمُساعِدي سبولْدنْغ ، لأنَّ زَوْجَتي ماتَتْ مُنْذُ مُدَّةٍ ، وَلا يوجَدُ لَدَيَّ أطْفالٌ . وَفي يَوْمِ اثْنَيْن ، مُنْذُ شَهْرَيْنِ ، جاءَني سبولْدنْغ في مَكْتَبي ، وَبِيَدِهِ هذِهِ الصَّحيفَةُ ، وَقالَ : « مِنْ سُوءِ حَظّي أنَّ شَعْري لَيْسَ أحْمَرَ !» فَسَألْتُهُ : « لِماذا تَقولُ هذا ؟ » فَأجابَ : « هذا إعْلانٌ لِعُصْبَةِ ذَوي الشَّعْرِ الأحْمَرِ ، وَلَوْ كانَ شَعْرُ رَأسي أحْمَرَ ؛ لاسْتَطَعْتُ أنْ أحْصُلَ عَلى عَمَلٍ سَهْلٍ بِأجْرٍ مُرْتَفِعٍ .» وَسَألْتُهُ عَنْ هذِهِ العُصْبَةِ ، فَبَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ وَهُوَ يَسْألُني : « أ لَمْ تَسْمَعْ بِها ؟! إنَّها جَماعَةٌ مِنَ الرِّجالِ ذَوي الشَّعْرِ الأحْمَرِ ، وَلِهذا أرى أنَّ في

اسْتِطاعَتِكَ التَّقَدُّمَ لِهذهِ الوَظيفَةِ .» وَسَأَلْتُهُ عَنِ الأَجْرِ فَقالَ : « إِنَّهُ أَرْبَعَةُ جُنَيْهاتٍ في الأُسْبوعِ نَظيرَ عَمَلٍ بَسيطٍ؛ وَعَلى ذلِكَ يُمكِنُكَ، إِنْ حَصَلْتَ عَلى هذِهِ الوَظيفَةِ ، أَنْ تَسْتَمِرَّ في عَمَلِكَ هُنا أَيْضاً .»

« لَمَّا وَجَدْتُ أَنَّ هذا المَبْلَغَ سَوْفَ يُفيدُني كَثيراً ، طَلَبْتُ مِنْ مُساعِدي أَنْ يَزيدَني عِلْماً بِهذِهِ الوَظيفَةِ ، فَأَطْلَعَني عَلى الإِعْلانِ المَنْشورِ في الصَّحيفَةِ ، قائِلاً : « أَعْتَقِدُ أَنَّ مَصْدَرَ أَمْوالِ هذِهِ العُصْبَةِ هُوَ أَحَدُ الأَثْرِياءِ الأَمْريكِيِّينَ ، وَيُدْعى إِزْكِيا هوبْكِنْز . وكانَ رَجُلاً غَريبَ الأَطْوارِ ، ذا شَعْرٍ أَحْمَرَ ، وَقَدْ آلَتْ أَمْوالُهُ بَعْدَ وَفاتِهِ إِلى عُصْبَةِ ذَوي الشَّعْرِ الأَحْمَرِ . وَكانَ قَدِ اشْتَرَطَ أَنْ يَكونَ أَعْضاؤُها مِنَ الرِّجالِ...» فَقاطَعْتُ حَديثَهُ قائِلاً : « لكِنْ هُناكَ الآلافُ مِنَ الرِّجالِ لَهُمْ شَعْرٌ أَحْمَرُ ، وَإِذا تَقَدَّمْتُ لِهذِهِ الوَظيفَةِ فَلَنْ تَكونَ ثَمَّةَ فُرْصَةٌ كَبيرَةٌ لِلظَّفَرِ بِها .» غَيْرَ أَنَّ الفَتى قاطَعَني قائِلاً : « إِنَّكَ مُخْطِئٌ ، يا سَيِّدي ، فَإِنَّ عُصْبَةَ ذَوي الشَّعْرِ الأَحْمَرِ لا تَقْبَلُ أَنْ يَعْمَلَ مَعَها سِوى مَنْ وُلِدَ في لَنْدَن مِنَ الرِّجالِ ، لأَنَّ إِزْكِيا هوبْكِنْز وُلِدَ فيها ، وَهُوَ يَعْشَقُ هذا المَكانَ العَتيقَ . وَلَنْ يَسْتَطيعَ أَنْ يَظْفَرَ بِهذِهِ الوَظيفَةِ إِلّا مَنْ كانَ شَعْرُهُ أَحْمَرَ لامِعاً مِثْلَكَ ، وَلِهذا أَرى أَنْ تَتَقَدَّمَ بِطَلَبٍ ، وَأَنا موقِنٌ مِنْ نَجاحِكَ .»

« وَفي النِّهايَةِ قَرَّرْتُ أَنْ أَعْمَلَ بِنَصيحَةِ سبولْدِنْغ ، وَأَتَقَدَّمَ لِهذِهِ

الوَظيفَةِ ، وَأنا موقِنٌ مِنْ أنَّهُ سَوْفَ يَتَوَسَّطُ لي لَدى العُصْبَةِ ؛ لِما لَهُ مِنْ دِرايَةٍ واسِعَةٍ بِها . وَطَلَبْتُ مِنْهُ أنْ يُغْلِقَ المَحَلَّ وَيَصْحَبَني إلى مَقَرِّ العُصْبَةِ .

« وَسَرْعانَ ما وَصَلْنا ، وَكانَ الشّارِعُ الصَّغيرُ يَبْدو وَكَأنَّهُ سَلَّةُ بُرْتُقالٍ ؛ فَقَدْ كانَ مُكْتَظًّا بِجَمْعٍ غَفيرٍ مِنْ ذَوي الشَّعْرِ الأحْمَرِ ،



وَ لكِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ مَنْ يَمْتازُ بِشَعْرٍ أَحْمَرَ لامعٍ مِثْلِ شَعْري .»
وَسكَتَ هُنَيْهَةً كَأَنَّهُ يَسْتَرْجِعُ الأَحْداثَ ، ثُمَّ عادَ وَتابَعَ قِصَّتَهُ :
« وَشَقَّ مُساعِدي الطَّرِيقَ وَسْطَ الزِّحامِ ماسِكاً بِيَدي ، حَتَّى وَصَلْنا إلى سُلَّمِ المَبْنى الَّذي تُقيمُ فيهِ العُصْبَةُ . وَكُنْتُ أرى الرِّجالَ يَتَدافَعونَ إلى داخِلِ المَبْنى وَ وُجوهُهُمْ مُشْرِقَةٌ بِالأَمَلِ ، كَما كُنْتُ أرى غَيْرَهُمْ يَخْرُجونَ وَهُمْ يَجُرّونَ أَذْيالَ الخَيْبَةِ وَالفَشَلِ . وَاسْتَطَعْنا في النِّهايَةِ أنْ نَصِلَ إلى مَقَرِّ العُصْبَةِ ، وَهُوَ عِبارَةٌ عَنْ حُجْرَةٍ قَليلَةِ الأَثاثِ ، بِها مَقْعَدانِ وَمِنْضَدَةٌ صَغيرَةٌ وَخِزانَةٌ لِلْكُتُبِ . وَكانَ يَجْلِسُ بِجانِبِ المِنْضَدَةِ رَجُلٌ ضَئيلُ الجِسْمِ ، شَعْرُهُ أَكْثَرُ حُمْرَةً مِنْ شَعْري ، يَخْتَلِقُ الأَعْذارَ لِكُلِّ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ ، وَيَرُدُّهُ خائِباً . وَحينَما جاءَ دَوْري ، قابَلَني الرَّجُلُ بِبَشاشَةٍ غَيْرِ مَعْهودَةٍ فيهِ ، وَأَغْلَقَ البابَ حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنَ الحَديثِ مَعي أمامَ مُساعِدي .

« وَقَدَّمَني سبولْدِنْغ إلى الرَّجُلِ قائِلاً : « هذا هُوَ جابيز وِيلْسون الَّذي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ . إنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لأَنْ يَقْبَلَ الوَظيفَةَ الَّتي أَعْلَنْتُمْ عَنْها.» فَرَدَّ عَلَيْهِ الرَّجُلُ : « إنَّ شَعْرَهُ يَبْدو رائِعاً . لكِنْ قُلْ لي بِرَبِّكَ هَلْ هُوَ شَعْرٌ طَبيعِيٌّ ؟! فَقَدْ حاوَلَ البَعْضُ خِداعَنا ، وَعَلَيْنا أنْ نَكونَ حَذِرينَ ! » ثُمَّ قَبَضَ عَلى شَعْري بِكِلْتا يَدَيْهِ وَشَدَّهُ بِقُوَّةٍ حَتَّى صِحْتُ مِنَ الأَلَمِ ، فَقالَ الرَّجُلُ : « إنَّ الدُّموعَ الَّتي في عَيْنَيْكَ

دُموعَ حَقيقِيَّةَ ، لِذَلِكَ قَرَّرتُ أنْ أعْهَدَ بِالوَظيفَةِ إلَيْكَ .» ثُمَّ صافَحَني بِحَرارَةٍ مُهَنِّئاً ، وَتَوَجَّهَ إلى النّافِذَةِ مُعْلِناً : « لَقَدْ وَجَدْنا الرَّجُلَ المُناسِبَ لِلْوَظيفَةِ المُعْلَنِ عَنْها ، وَيُمكِنُكُمْ جَميعاً الانْصِرافُ.»

« وَسَرْعانَ ما رَحَلَ الجَميعُ ، وَلَمْ يَبْقَ بِمَقَرِّ العُصْبَةِ ، إلّا الرَّجُلُ الضَّئيلُ الجِسْمِ ، الَّذي قَدَّمَ إلَيَّ نَفْسَهُ قائِلاً : « أنا دَنْكان رُوس ، سِكِرْتيرُ عُصْبَةِ ذَوي الشَّعْرِ الأحْمَرِ . سَأُحَدِّثُكَ الآنَ عَنْ واجِباتِ وَظيفَتِكَ الجَديدَةِ . مَتى يُمْكِنُكَ أنْ تَبْدَأَ العَمَلَ ؟» أجَبْتُهُ : « إنَّ الوَقْتَ غَيْرُ مُناسِبٍ الآنَ ، حَيْثُ إنَّ لَدَيَّ بَعْضَ الأعْمالِ الَّتي لا بُدَّ مِنْ إنْجازِها » غَيْرَ أنَّ مُساعِدي سبولْدِنْغ تَدَخَّلَ قائِلاً : « لا تَقْلَقْ ، يا سَيِّدي ؛ فَسَأَتَوَلّى جَميعَ هذِهِ الأعْمالِ نِيابَةً عَنْكَ .»

« وَسَأَلْتُ السَّيِّدَ رُوس عَنْ ساعاتِ العَمَلِ ، فَعَرَفْتُ أنَّها مِنَ العاشِرَةِ صَباحاً حَتّى الثّانِيَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ . وَلَمّا كانَ مُعْظَمُ أعْمالي يَتِمُّ في المَساءِ ؛ لِذا سَهُلَ عَلَيَّ أنْ أقْبَلَ الوَظيفَةَ الجَديدَةَ ، خاصَّةً وَأنَّ سبولْدِنْغ كانَ قَدْ أتْقَنَ العَمَلَ ، وَ وَجَدْتُ أنَّ في اسْتِطاعَتِهِ تَصْريفَ الأُمورِ نِيابَةً عَنّي . ثُمَّ سَأَلْتُ السَّيِّدَ رُوس عَنْ طَبيعَةِ العَمَلِ، فَأَجابَني : « يَجِبُ عَلَيْكَ أنْ تَمْكُثَ هُنا طَوالَ مُدَّةِ العَمَلِ ، مِنَ العاشِرَةِ حَتّى الثّانِيَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ. وَإذا حَدَثَ وَتَرَكْتَ المَبْنى خِلالَ

هَذِهِ المُدَّةِ ؛ فإنَّكَ سَتَفْقِدُ عَمَلَكَ نِهائياً ، فَعَلَيْكَ أنْ تَمْكُثَ حَتَّى وَإنْ كُنْتَ مَرِيضاً ! فَلَنْ تَقْبَلَ العُصْبَةُ مِنْكَ أيَّ عُذْرٍ لِتَغَيُّبِكَ ، فَهذِهِ هِيَ القَواعِدُ الَّتي وَضَعَها مُؤَسِّسُ العُصْبَةِ في وَصِيَّتِهِ . أمَّا عَمَلُكَ فَهُوَ نَسْخُ المَكْتوبِ في دائِرَةِ المَعارِفِ البِريطانِيَّةِ المَوْجودَةِ هُنا . وَعَلَيْكَ أنْ تُحْضِرَ مَعَكَ الوَرَقَ اللاّزِمَ وَالقَلَمَ وَ المِحْبَرَةَ . هَلْ في إمْكانِكَ أنْ تَبْدَأَ مِنَ الغَدِ ؟›› فَأَجَبْتُهُ : ‹‹ بِالتَّأْكيدِ !›› فَقالَ مُبْتَسِماً : ‹‹ أنا سَعيدٌ بِاخْتِيارِكَ لِهذِهِ الوَظيفَةِ الهامَّةِ .››

« رَجَعْتُ إلى البَيْتِ يُرافِقُني مُساعِدي ، وَقَدْ غَمَرَتْني السَّعادَةُ لِحُسْنِ حَظّي . وَفي الصَّباحِ اشْتَرَيْتُ الوَرَقَ اللاّزِمَ ، وَعُدْتُ إلى مَقَرِّ العُصْبَةِ ، غَيْرَ أنّي بَدَأتُ أشُكُّ في أمْرِها ، مَعَ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ سارَ عَلى ما يُرامُ . فَقَدْ حَدَّدَ لِيَ السَّيِّدُ رُوس الكَمِّيَّةَ الَّتي يَنْبَغي عَلَيَّ إنْجازُها مِنْ دائِرَةِ المَعارِفِ ، وَتَرَكَني وَانْصَرَفَ ، ثُمَّ عادَ إلَيَّ في السّاعَةِ الثّانِيَةِ ، وَأظْهَرَ اسْتِحْسانَهُ لِلْكَمِّيَّةِ الَّتي نَسَخْتُها ، وَخَرَجْنا مِنَ المَكْتَبِ ثُمَّ أغْلَقَ بابَهُ بِقُفْلٍ مَتينٍ .

« أمْضَيْتُ في هذا العَمَلِ ثَمانِيَةَ أسابيعَ ، وَكانَ السَّيِّدُ رُوس يَدْفَعُ لي في نِهايَةِ كُلِّ أسْبوعٍ أرْبَعَةَ جُنَيْهاتٍ ذَهَبِيَّةٍ . وَكانَ مُعْتاداً أنْ يَزورَني في أوَّلِ الأمْرِ عِدَّةَ مَرّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ، لكِنَّهُ انْقَطَعَ بَعْدَ مُدَّةٍ عَنِ المَجيءِ نِهائِيًّا . أمّا أنا فَلَمْ أتَغَيَّبْ عَنِ العَمَلِ حَتّى لا أفْقِدَ هذِهِ

الوَظيفَةَ المُرْبِحَةَ .

« نَسَخْتُ كَثيراً مِنَ المَوْضوعاتِ ، مِمّا كَلَّفَني شِراءَ كَمِّيَّةٍ مِنَ الوَرَقِ ، وَكِدْتُ أَمْلأُ رَفًّا بِما كَتَبْتُ . وَكُنْتُ أوشِكُ أَنْ أَبْدَأَ مَوْضوعاً جَديداً ، وَلكِنْ فَجْأَةً انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ ! »

قالَ هُولْمِز مُتَعَجِّباً : « اِنْتَهى كُلُّ شَيْءٍ ؟! ماذا تَقولُ ؟! »

رَدَّ وِيلْسون : « نَعَمْ ، انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ ؛ فَقَدْ حَدَثَ ذاتَ صَباحٍ ، عِنْدَما تَوَجَّهْتُ لِلْعَمَلِ كالمُعْتادِ في السّاعَةِ العاشِرَةِ ، أَنْ وَجَدْتُ البابَ لا يَزالُ مُغْلَقاً ، وَقَدْ ثُبِّتَتْ عَلَيْهِ هذِهِ البِطاقَةُ . » ثُمَّ قَدَّمَها إِلَيَّ فَوَجَدْتُها قِطْعَةً مِنَ الوَرَقِ صَغيرَةً مُرَبَّعَةَ الشَّكْلِ ، وَقَدْ كُتِبَ عَلَيْها بِخَطٍّ واضِحٍ :

انتهى أمر عصبة الشعر الأحمر ، و لم يعد لها وجود بعد الآن . الرابع من أكتوبر .

عِنْدَما انْتَهى الرَّجُلُ مِنْ كَلامِهِ ، لَمْ أَسْتَطِعْ أنا وَهُولْمِز أَنْ نَكْتُمَ الضَّحِكَ ، وَتَساءَلَ هُولْمِز : « ماذا فَعَلْتَ بَعْدَ ذلِكَ ؟ »

أجابَ : « طَرَقْتُ جَميعَ أَبْوابِ المَبْنى ، وَسَأَلْتُ كُلَّ مَنْ قابَلْتُهُ عَنِ السَّيِّدِ دَنكان رُوس ، فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً يَعْرِفُهُ ، فَذَهَبْتُ إِلى

صاحِبِ المَبْنى فَأخْبَرَني بِأَنَّهُ لا يَعْلَمُ شَيْئاً عَنْ عُصْبَةِ ذَوي الشَّعْرِ الأحْمَرِ ، أوْ عَنْ هذا الرَّجُلِ الّذي يَعْمَلُ سِكرِتيراً لها . وَلمّا سَألْتَهُ عَنْ صاحِبِ الشَّعْرِ الأحْمَرِ ، أجابَني بِأنَّهُ يُدْعى وِلْيَم مُوريس ، وَيَعْمَلُ مُحامِياً ، وَقَدْ تَرَكَ هذا المَكانَ أمْسِ ، فَسَألْتُهُ : « أيْنَ أجِدُهُ؟» فَأجابَني : « يُمْكِنُكَ التَّوَجُّهُ إلَيْهِ في عُنْوانِهِ الجَديدِ – ١٧ شارِعُ المَلِكِ إدْوارْد .» وَذَهَبْتُ إلى هذا العُنْوانِ ، فَوَجَدْتُهُ مَصْنَعاً صَغيراً ، وَقابَلْتُ مُديرَ المَصْنَعِ فَأخْبَرَني بِأنَّهُ لا يوجَدُ أحَدٌ بِاسْمِ مُوريس أوْ رُوس ، وَأنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ بِهذَيْنِ الاسْمَيْنِ بَيْنَ رِجالِ المَصْنَعِ مِنْ قَبْلُ . وَ لَمّا تَعَذَّرَ عَلَيَّ مَعْرِفَةُ مَكانِ الرَّجُلِ ، ذَهَبْتُ إلى مَحَلّي وَطَلَبْتُ مِنْ مُساعِدي سبولْدنْغ أنْ يَدُلَّني عَلى وَسيلَةٍ ، لِكَيْ ألْتَقِيَ السَّيِّدَ رُوس ، فَلَمْ يَذْكُرْ لي شَيْئاً مُهِمّاً ، غَيْرَ أنَّهُ قالَ لي يُطَمْئِنُني : « إنَّ السَّيِّدَ رُوس سَوْفَ يَكْتُبُ لي بِالتَّأكيدِ .»

« وَلَمْ أقْتَنِعْ بِكَلامِ مُساعِدي ، يا سَيِّدُ هُولمز ، لِهذا جِئْتُ إلَيْكَ حَتّى لا تَضيعَ مِنْ يَدي الجُنَيْهاتُ الأرْبَعَةُ التي أتَقاضاها أسْبوعِيّاً .»

قالَ لَهُ هُولمز : « لَقَدْ أحْسَنْتَ صُنْعاً بِحُضورِكَ إلَيَّ ، فَإنَّ المَوْضوعَ يَبْدو خَطِراً .»

قالَ وِيلْسُون : « إنَّهُ في الحَقيقَةِ خَطِرٌ لِلْغايَةِ ، وَيَبْدو أنّي قَدْ

فَقَدْتُ أجْرَ الوَظيفَةِ الَّتي كُنْتُ أشْغَلُها .»

قالَ هولْمز : « لا داعِيَ لِلأسى ، فَقَدْ رَبِحْتَ اثْنَيْنِ وَثَلاثينَ جُنَيْهاً ، وَلا تَنْسَ أنَّكَ حَصَلْتَ عَلى الكَثيرِ مِنَ المَعْلوماتِ ، وَأنْتَ تَنْسَخُ المَوْضوعاتِ المُدَوَّنَةَ بِدائِرَةِ المَعارِفِ . وَالآنَ عَلَيْكَ أنْ تُجيبَ عَنْ أسْئِلَتي : « ما المُدَّةُ الَّتي قَضاها سبولْدِنْغ في خِدْمَتِكَ ؟»

أجابَهُ وِيلْسون : « ثَلاثَةُ أشْهُرٍ .»

سَألَهُ هُولْمز : « كَيْفَ اخْتَرْتَهُ لِلْعَمَلِ عِنْدَكَ ؟»

أجابَ وِيلْسُون : « حَضَرَ إلَيَّ بِناءً عَلى إعْلانٍ قُمْتُ بِنَشْرِهِ في الصُّحُفِ .»

سَألَهُ هُولْمز : « هَلْ تَقَدَّمَ غَيْرُهُ لِهذِهِ الوَظيفَةِ ؟»

أجابَ وِيلْسُون : « أجَلْ ، أكْثَرُ مِنْ عَشَرَةِ رِجالٍ .»

قالَ هُولْمز : « لِماذا اخْتَرْتَ هذا الرَّجُلَ بِالذّاتِ ؟»

قالَ وِيلْسُون : « بَدا لي شابًّا عاقِلاً ، كَما أخْبَرَني بِأنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لأنْ يَقْبَلَ نِصْفَ الأجْرِ .»

سَألَ هُولْمز : « هَلْ يُمْكِنُكَ أنْ تَصِفَهُ ؟»

أجابَ وِيلْسُون : « إنَّهُ ضَئيلُ الجِسْمِ ، لكِنَّهُ لَيْسَ نَحيفاً ، كَما أنَّهُ سَريعُ الحَرَكَةِ ، ولَهُ وَجْهٌ خالٍ مِنَ الشَّعْرِ مَعَ أنَّ عُمْرَهُ لا يَقِلُّ عَنِ الثَّلاثينَ عاماً ، وَيوجَدُ فَوْقَ عَيْنَيْهِ مُباشَرَةً عَلامَةٌ بَيْضاءُ .»

عِنْدَئِذٍ قالَ هُولْمز مُنْفَعِلاً : « عَلامَةٌ بَيْضاءُ ! وَ لَهُ أُذُنانِ مَثْقوبَتانِ ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟!»

أجابَ وِيلْسُون : « بَلى ، أُذُناهُ مَثْقوبَتانِ .»

نَهَضَ هُولْمز قائِلاً : « لَقَدْ فَهِمْتُ اللُّعْبَةَ ! » وَنَظَرَ إلى وِيلْسُون وَهُوَ يُتابِعُ كَلامَهُ : « سَوْفَ أُفَكِّرُ في هذا الأمْرِ جَيِّداً . إنَّ اليَوْمَ هُوَ السَّبْتُ ، وَآمُلُ أنْ يَتَّضِحَ كُلُّ شَيْءٍ قَبْلَ يَوْمِ الاثْنَيْنِ .»

تَرَكَنا وِيلْسُون ، فَسَأَلَني هُولْمز : « ما رَأْيُكَ ، يا واطْسُن ، في عُصْبَةِ ذَوي الشَّعْرِ الأَحْمَرِ ؟»

قُلْتُ : « إنّي لا أعْرِفُ عَنْها شَيْئاً عَلى الإطْلاقِ ، وَهِيَ تَبْدو لي غامِضَةً تَماماً .»

قالَ هُولْمز : « لا بُدَّ مِنَ القِيامِ بِعَمَلٍ جادٍّ الآنَ .»

سَأَلْتُهُ : « ما نَوْعُ هذا العَمَلِ ؟»

قالَ : « لا بُدَّ مِنْ أنْ أسْتَمْتِعَ بِالتَّدْخينِ مُدَّةً لا تَقِلُّ عَنْ خَمْسينَ

دَقيقَةً ، نَظَلُّ خِلالَها صامِتَيْنِ لا نَتَحَدَّثُ .»

اِعْتَدَلَ هُولمز في مَقْعَدِهِ ، وَأَخَذَ يَسْحَبُ الأَنْفاسَ مِنْ غَليونِهِ العَتيقِ الأَسْوَدِ . وَطالَ بِنا الوَقْتُ حَتّى اعْتَقَدْتُ أَنَّ هُولمز قَدِ اسْتَغْرَقَ في النَّوْمِ ، وَ لكِنَّهُ هَبَّ فَجْأَةً ، وَ وَضَعَ غَلْيونَهُ على المِنْضَدَةِ قائِلاً : « ما رَأْيُكَ ، يا واطْسُن ، في أَنْ تَصْحَبَني بَعْدَ ظُهْرِ اليَوْمِ لِسَماعِ المُوسيقى ؟»

قُلْتُ على الفَوْرِ : « لا مانِعَ لَدَيَّ ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ ما يَشْغَلُني .»

قالَ : « إِذاً هَيّا بِنا ، فَأَنا أَرْغَبُ في إِلْقاءِ نَظْرَةٍ عَلى مَيْدانِ ساكْس – كوبِرْغ ، حَيْثُ يوجَدُ مَتْجَرُ وِيلْسُون ، قَبْلَ أَنْ نَذْهَبَ لِسَماعِ المُوسيقى . كَما أَنّي أَفَضِّلُ أَنْ نَتَناوَلَ وَجْبَةَ الغَداءِ قَبْلَ هذا كُلِّهِ .»

ذَهَبْنا إِلى المَيْدانِ المَطْلوبِ بِقِطارِ الأَنْفاقِ ، وَأَكْمَلْنا الطَّريقَ سَيْراً عَلى الأَقْدامِ ، فَأَلْفَيْنا المَتْجَرَ في مِنْطَقَةٍ كَئيبَةٍ يُخَيِّمُ عَلَيْها الفَقْرُ ، وَيَتَوَسَّطُها بَعْضُ الحَشائِشِ القَذِرَةِ ، وَقَليلٌ مِنَ الشُّجَيْراتِ ، وَيَتَصاعَدُ مِنْها دُخانٌ تَسَرَّبَ إِلى أُنوفِنا . أَمّا بُيوتُ المِنْطَقَةِ فَقَدِ اصْطَفَّتْ في أَرْبَعَةِ صُفوفٍ ، وَكانَ كُلٌّ مِنْها يَتَأَلَّفُ مِنْ طابَقَيْنِ وَ قَبْوٍ مِنَ الطّوبِ الأَحْمَرِ الصَّغيرِ . وَلاحَظْنا بِجِوارِ أَحَدِ البُيوتِ مَتْجَراً لَهُ بابٌ وَشُبّاكٌ ،

وَفَوْقَ الشُبّاكِ ثُبِّتَتْ لَوْحَةٌ طُلِيَتْ بِاللَّوْنِ البُنِّيِّ ، وَكُتِبَ عَلَيْها بِاللَّوْنِ الأَبْيَض « جابِيز وِيلْسُون » ، وَرُسِمَ عَلَيْها ثَلاثُ كُراتٍ بِاللَّوْنِ الذَّهَبِيِّ ، وَهِيَ العَلامَةُ المُمَيِّزَةُ لِمَتْجَرِ المُرْتَهِن .

وَقَفَ هُولْمز أمامَ بَيْتِ وِيلْسُون ، وَأَلْقى عَلَيْهِ نَظْرَةً فاحِصَةً ، وَدَقَّ الأَرْضَ بِعَصاهُ دَقًّا قَوِيًّا ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إلى بابِ البَيْتِ وَطَرَقَهُ ، فَفَتَحَهُ شابٌّ ، سَأَلَهُ هُولْمز : « هَلْ تَسْتَطيعُ ، مِنْ فَضْلِكَ ، أن تَدُلَّني عَلى مَكْتَبِ البَريدِ ؟»

أجابَ الفَتى دونَ تَرَدُّدٍ : « سِرْ في هذا الطَّريقِ ، ثُمَّ ادْخُلِ الشّارِعَ الثّالِثَ مِنَ الجِهَةِ اليُمْنى ، وَ سِرْ فيهِ حَتّى آخِرِهِ ، وَعِنْدَئِذٍ سَوْفَ تَجِدُ مَكْتَبَ البَريدِ في الشّارِعِ الرّابِعِ مِنَ الجِهَةِ اليُسْرى .»

غادَرْنا المَكانَ ، وَ أَثْناءَ سَيْرِنا قالَ هُولْمز : « إنَّ هَذا الشّابُّ ذَكِيٌّ ، وَ لا يوجَدُ في لَنْدَن أذْكى أَوْ أَشْجَعُ مِنْهُ .»

سَأَلْتُهُ : « هَلْ تَعَرَّفْتَ عَلَيْهِ ؟»

أجابَ : « إنَّني لَمْ أَنْظُرْ إلى وَجْهِهِ ، بَلْ أَرَدْتُ أَنْ أَتَفَحَّصَ البَنْطَلونَ الَّذي يَرْتَديهِ مِنْ جِهَةِ الرُّكْبَتَيْنِ .» وَلَمْ يَذْكُرْ لي لِماذا فَعَلَ ذلِكَ ، أَوْ لِماذا دَقَّ الأَرْضَ بِعَصاهُ ، وَلكِنَّهُ قالَ : « لَقَدْ شاهَدْنا

المَيْدانَ ، فَدَعْنا نَرى الشَّوارِعَ المَوْجودَةَ خَلْفَهُ .»

بَعْدَ مَسيرَةٍ قَصيرَةٍ ، وَصَلْنا إلى أحَدِ شَوارِعِ لَنْدَنَ الرَّئيسِيَّةِ الصّاخِبَةِ ، وَكانَتْ بَعْضُ المَنازِلِ وَ المَتاجِرِ المَوْجودَةِ فيهِ لا يَفْصِلُها عَنِ المَيْدانِ الصَّغيرِ الهادِئِ غَيْرُ قَليلٍ مِنَ الحَدائِقِ وَ السّاحاتِ . وَ وَجَدْنا هُناكَ مَتْجَراً لِلْحَلْوى وَ آخَرَ لِبَيْعِ الصُّحُفِ ، كَما وَجَدْنا فَرْعاً لِبَنْكِ المَدينَةِ ، وَلاحَظْنا مَطْعَماً إيطالِيًّا وَمَصْنَعاً صَغيراً لِلْعَرَباتِ.

قالَ هُولْمز وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ الارْتِياحِ : « الآنَ قَدِ انْتَهَيْنا مِنْ عَمَلِنا ، فَهَيّا بِنا لِنَتَناوَلَ الغَداءَ ، ثُمَّ نَتَوَجَّهَ لِسَماعِ المُوسيقى .» ثُمَّ قالَ أثْناءَ خُروجِنا مِنْ قاعَةِ المُوسيقى : « عَلَيْكَ أنْ تَتَوَجَّهَ إلى البَيْتِ لِرُؤْيَةِ أسْرَتِكَ ، يا واطْسُن .» فَوافَقْتُهُ عَلى هذا ، فَقالَ لي : «إنَّ أمامي بَعْضَ المَهامِّ الَّتي يَنْبَغي عَلَيَّ إنْجازُها ، فَأمْرُ هذا المَيْدانِ خَطيرٌ لِلْغايَةِ ؛ فَقَدْ دُبِّرَتْ مُؤامَرَةٌ مُحْكَمَةٌ لارْتِكابِ جَريمَةٍ اللَّيْلَةَ ! وَأعْتَقِدُ أنّنا نَسْتَطيعُ مَنْعَها . لِهذا فَأنا مُحْتاجٌ إلَيْكَ ، يا واطْسُن .»

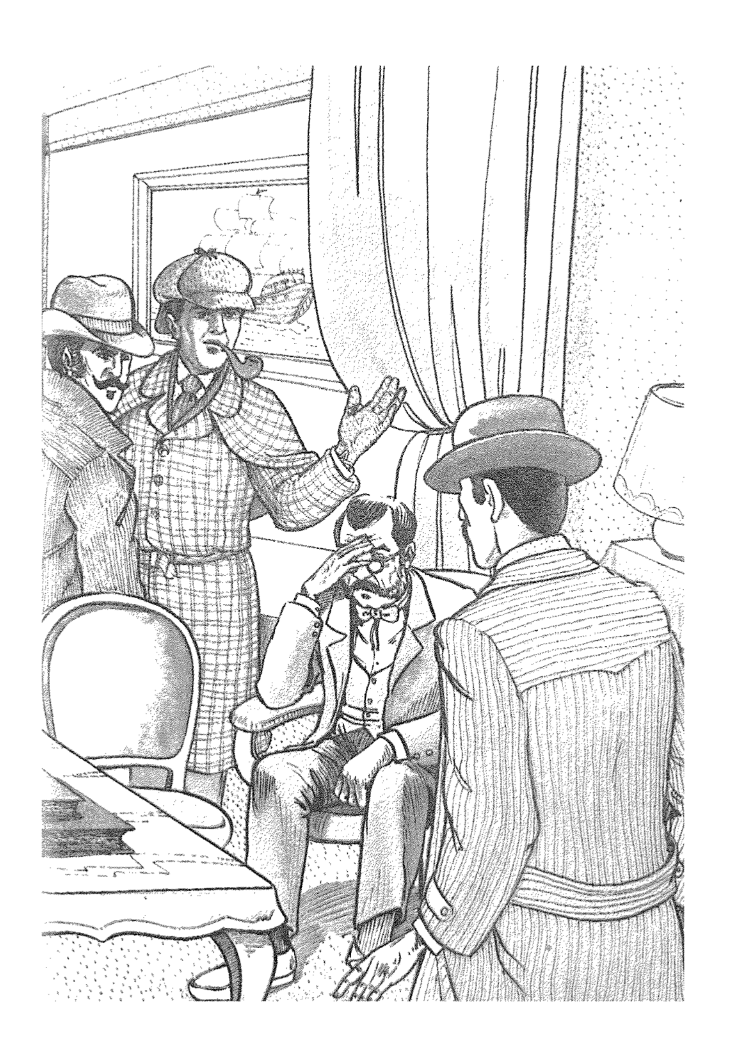
سَألْتُهُ عَنِ الوَقْتِ الَّذي يُريدُني فيهِ ، فَقالَ : « في تَمامِ السّاعَةِ العاشِرَةِ .» ثُمَّ طَلَبَ مِنّي أنْ أحْضِرَ مَعي سِلاحاً ، وَتَرَكَني وَانْصَرَفَ .

ذَهَبْتُ إلى مَنْزِلِ هُولمز في الوَقْتِ المُحَدَّدِ ، فَوَجَدْتُ أمامَهُ عَرَبَتَيْن ، كَما وَجَدْتُ عِنْدَهُ زائِرَيْنِ ، أحَدُهُما ضابِطُ شُرْطَةٍ يُدْعى بيتر جُونز وَالآخَرُ رَجُلٌ نَحيفٌ طَويلُ القامَةِ يَرْتَدي مَلابِسَ داكِنَةً ، وَتَبْدو عَلَيْهِ سِماتُ الحُزْنِ ، وَقَدَّمَهُ هُولمز إلَيَّ قائِلاً : « أعَرِّفُكَ ، يا واطْسُن ، بِالسَّيِّدِ ميريويذَر مُديرِ بَنْكِ المَدينَةِ ، وَسَيَكونُ مَعَنا في المُغامَرَةِ الَّتي سَنَقومُ بِها اللَّيْلَةَ .» ثُمَّ أشارَ إلى ضابِطِ الشُّرْطَةِ وَقالَ: « أمّا السَّيِّدُ جُونز فَأنْتَ بِالطَّبْعِ تَعْرِفُهُ .»

وَنَظَرَ مُديرُ البَنْكِ إلى هُولمز قائِلاً : « أرْجو أنْ لا تَكونَ مُخْطِئاً في شُكوكِكَ ، فَقَدِ اعْتَدْتُ – مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ – أنْ أمْضِيَ مَساءَ كُلِّ سَبْتٍ أتَسامَرُ مَعَ أصْدِقائي ، وَهذِهِ هِيَ المَرَّةُ الأولى الَّتي أتَغَيَّبُ فيها عَنْهُمْ .»

رَدَّ عَلَيْهِ قائِلاً : « أعْتَقِدُ أنَّ هذِهِ اللَّيْلَةَ سَتَكونُ مُثيرَةً ، وَسَوْفَ تُنْقِذُ ثَلاثينَ ألْفَ جُنَيْهٍ ، أمّا السَّيِّدُ جُونز فَسَوْفَ يُلْقي القَبْضَ عَلى مُجْرِمٍ خَطِرٍ ، تُحاوِلُ الشُّرْطَةُ الإيقاعَ بِهِ مُنْذُ عِدَّةِ سَنَواتٍ .»

قالَ الضّابِطُ: « نَعَمْ ، إنَّهُ جُون كلاي القاتِلُ ، وَالمُزَوِّرُ، وَاللِّصُّ ، الَّذي يُعْتَبَرُ مِنْ أخْطَرِ المُجْرِمينَ في إنْجِلْترا ، رَغْمَ صِغَرِ سِنِّهِ . وَمِنَ الغَريبِ أنَّهُ تَخَرَّجَ في جامِعَةِ أوكْسفُورد ، وَكانَ جَدُّهُ شَقيقاً لأحَدِ



المُلوكِ !»

وَنَظَرَ هُولمْز إلى ساعَتِهِ وَقالَ : « لَقَدْ حانَ وَقْتُ الرَّحيلِ ، أَيُّها السَّادَةُ .» ثُمَّ قالَ مُوَجِّهاً كَلامَهُ إلى السَّيِّدِ ميريويذَر : « اِذْهَبْ أَنْتَ مَعَ السَّيِّدِ جُونز في العَرَبَةِ الأولى ، وَسَنَتْبَعُكُما أنا وَ واطْسُن في العَرَبَةِ الثَّانِيَةِ .»

وَرَكِبْنا العَرَبَتَيْن حَتَّى وَصَلْنا إلى مَبْنى البَنْكِ ، المَوْجودِ في الشَّارِعِ الرَّئيسِيِّ قُرْبَ مَيْدانِ ساكْس - كوبِرْغ ، وَفَتَحَ مُديرُ البَنْكِ الأَبْوابَ بِالمَفاتيحِ الَّتي كانَتْ مَعَهُ ، ثُمَّ قادَنا إلى الدَّاخِلِ عَبْرَ مَمَرَّاتٍ مُظْلِمَةٍ ، ثُمَّ أَضاءَ مِصْباحاً ، أَنارَ لَنا الطَّريقَ بِضَوْئِهِ الخافِتِ إلى قَبْوٍ تَنْبَعِثُ مِنْهُ رائِحَةُ الغُبارِ ، وَ يَمْتَلِئُ بِعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الصَّناديق وَ اللُّفافاتِ .

أَخَذَ هُولمْز المِصْباحَ بِيَدِهِ ، وَنَظَرَ إلى السَّقْفِ وَقالَ : « إنَّ السَّقْفَ مَتينٌ .» وَلكِنَّ مُديرَ البَنْكِ أَخَذَ يَدُقُّ الأَرْضَ بِعَصاهُ ، وَ قَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ ، وَهُوَ يَقولُ : « كانَتِ الأَرْضُ صُلْبَةً ، وَ يَبْدو أَنَّ هُناكَ حَفْراً قَدْ تَمَّ تَحْتَها ؛ فَأَصْبَحَ ما تَحْتَ القَبْوِ خاوِياً !»

قالَ هُولمْز مُحَذِّراً : « أَخْفِضْ صَوْتَكَ حَتَّى لا يَسْمَعَنا أَحَدٌ مِنَ اللُّصوصِ فَتَفْشَلَ خُطَّتُنا ! وَالأَفْضَلُ أَنْ تَجْلِسَ عَلى أَحَدِ هذِهِ

الصَّناديقِ ، وَلا تَتَحَرَّكْ .»

وَأطاعَ مُديرُ البَنْكِ الأمْرَ ، وَ وَضَعَ هُولْمز المِصْباحَ عَلى الأرْض ، وَأخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ عَدَسَةً مُكَبِّرَةً ، وَأخَذَ يَفْحَصُ الشُّقوقَ المَوْجودَةَ بَيْنَ الأحْجارِ الكَبيرَةِ ، الَّتي رُصِفَتْ بِها أرْضُ القَبْوِ ، ثُمَّ نَهَضَ وَهُوَ يَقولُ : « لَنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ قَبْلَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، لأنَّ اللُّصوصَ لَنْ يَتَمَكَّنوا مِنَ التَحَرُّكِ قَبْلَ أنْ يَذْهَبَ وِيلْسُون إلى فِراشِهِ ، فَإذا ما اسْتَغْرَقَ في النَّوْمِ ، بَدَأوا يُنْجِزونَ عَمَلَهُمْ بِسُرْعَةٍ حَتّى يُتاحَ لَهُمُ الوَقْتُ الكافي لِلْهَرَبِ .»

سَألْتُ مُسْتَفْسِراً : « ماذا يوجَدُ في هذِهِ الصَّناديقِ ؟»

قالَ هُولْمز : « يُخْبِرُكَ بِذَلِكَ السَّيِّدُ مِيرِيوِيذَر مُديرُ البَنْكِ .»

قالَ مِيرِيوِيذَر هامِساً : « إنَّهُ ذَهَبٌ فَرَنْسِيٌّ يَخُصُّ البَنْكَ ؛ فَهذِهِ الصَّناديقُ تَحْتَوي عَلى ثَلاثينَ ألْفَ جُنَيْهٍ ، أخِذَتْ قَرْضاً مِنْ بَنْكِ فَرَنْسا .»

قالَ هُولْمز وَ هُوَ يُطْفِئُ المِصْباحَ : « الآنَ عَلَيْنا ، أيُّها السّادَةُ ، أنْ نَنْتَظِرَ في الظَّلام ، وَسَوْفَ يَحْضُرُ اللُّصوصُ إلى هُنا في وَقْتٍ قَريبٍ ، وَلا بُدَّ أنْ نَخْتَبِئَ خَلْفَ الصَّناديقِ ، وَعِنْدَما يَحْضُرون نَنْقَضُّ عَلَيْهِمْ بِسُرْعَةٍ لِشَلِّ حَرَكَتِهِمْ ، فَهُمْ أناسٌ خَطِرونَ . » ثُمَّ اتَّجَهَ إلَيَّ قائِلاً :

« إذا حاوَلوا إطْلاقَ النّارِ عَلَيْنا بادَرْنا بِإطْلاقِ نارِنا عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ وَضَعْتُ السِّلاحَ فَوْقَ صُنْدوقٍ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنّي .» وَاسْتَمَرَّ هُولمْز في كَلامِهِ قائِلاً : « لَيْسَ أمامَهُمْ إلّا طَريقٌ واحِدٌ يُمكِنُهُمُ الهَرَبُ مِنْهُ ، وَهُوَ فُتْحَةٌ داخِلَ البَيْتِ تُوصِّلُ إلى مَيْدانِ ساكْس - كوبِرْغ .» ثُمَّ سأَلَ ضابِطَ الشُّرْطَةِ : « هَلْ أنْجَزْتَ ما طَلَبْتُهُ مِنْكَ ، يا جُونز ؟»

قالَ الضّابِطُ : « أجَلْ ، يا سَيِّدُ هُولمْز ، فَقَدْ وَضَعْتُ ثَلاثَةً مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ خارِجَ بَيْتِ السَّيِّدِ وِيلْسُون .»

وَبَدَتْ عَلى هُولمْز عَلاماتُ الارْتِياحِ ، فَقالَ : « عَلَيْنا إذاً أنْ نَنْتَظِرَ في صَمْتٍ .»

وَمَضَتْ ساعَةٌ وَرُبْعُ السّاعَةِ وَ نَحْنُ في ظَلامٍ دامِسٍ ، وَقَدْ أنْهَكَني التَّعَبُ ، وَخَيَّمَ السُّكونُ عَلَيْنا فَلَمْ نَسمَعْ سِوى أنْفاسِنا . وَبَدا الوَقْتُ طَويلاً ، وَفَجْأَةً رأَيْتُ خَيْطاً رَفيعاً مِنَ الضَّوْءِ يَتَسَرَّبُ بَيْنَ الأحْجارِ ، وَأخَذَ بَريقُهُ يَزْدادُ شَيْئاً فَشَيْئاً ، حَتّى رَأَيْتُ يَداً تَظْهَرُ خَلْفَ حَجَرٍ كَبيرٍ يَرْتَفِعُ بِبُطءٍ . وَلَمْ يَلْبَثِ الحَجَرُ أنْ عادَ إلى وَضْعِهِ في هُدوءٍ ، كَما عادَ الضَّوْءُ إلى ما كانَ عَلَيْهِ ، خافِتاً بَيْنَ الشُّقوقِ .

مَرَّةً أخْرى ، دُفِعَ الحَجَرُ بِقُوَّةٍ إلى أعْلى ، فَأحْدَثَ ذلِكَ صَوْتاً مَسْموعاً وَهُو يَنْقَلِبُ عَلى أحَدِ جَوانِبِهِ ، ثُمَّ ظَهَرَ وَجْهٌ تَبَيَّنْتُ في

الحالِ أنَّهُ وَجْهُ مُساعِدِ السَّيِّدِ وِيلْسُون . وَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ ، ثُمَّ رَفَعَ جِسْمَهُ عَبْرَ الفَجْوَةِ حَتَّى أَصْبَحَ في القَبْوِ ، وَأَخَذَ يُساعِدُ زَميلاً لَهُ في الصُّعودِ . وَكانَ كِلا الرَّجُلَيْنِ ضَئيلَ الجِسْمِ وَ يَمْتازُ أَحَدُهُما بِشَعْرٍ أَحْمَرَ لامعٍ .

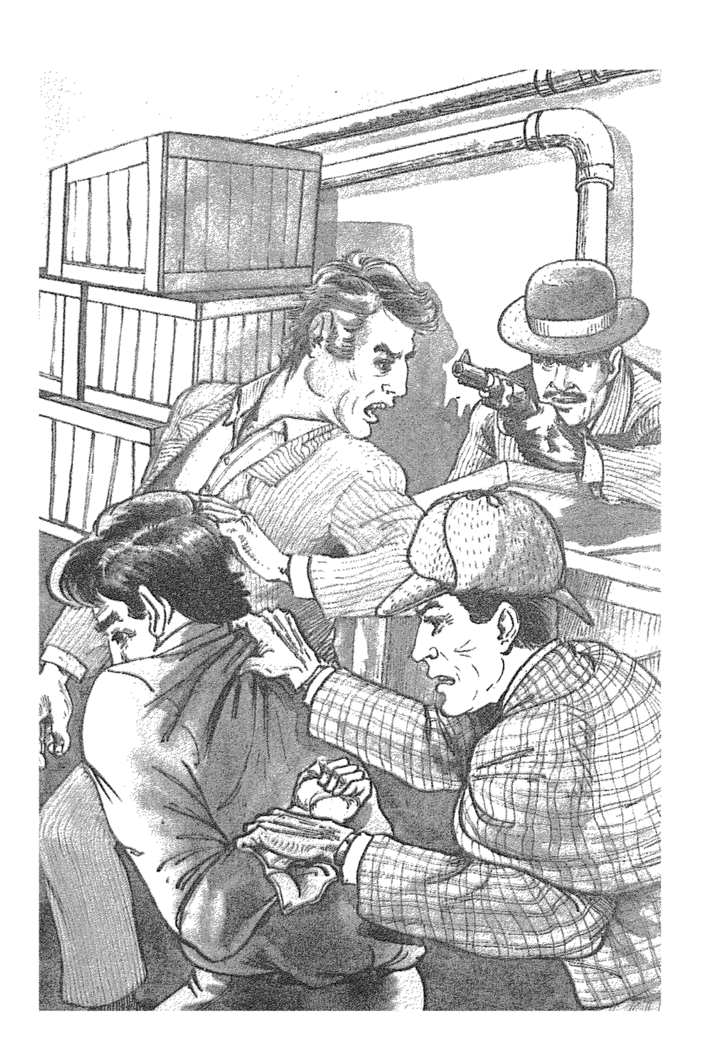
اِنْدَفَعَ شِرْلوك هُولمز نَحْوَ أَوَّلِ رَجُلٍ وَتَشَبَّثَ بِهِ ، فَصاحَ الرَّجُلُ مُحَذِّراً زَميلَهُ : « عُدْ مِنَ الفُتْحَةِ يا أَرْشي !» إلا أنَّ الضّابِطَ أَسْرَعَ وَجَذَبَهُ مِنْ مَلابِسِهِ فَتَمَزَّقَتْ في يَدِهِ . وَكانَ مُساعِدُ وِيلْسُون يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّةً ، وَلكِنَّ هُولمز ضَرَبَها بِعَصاهُ فَسَقَطَتْ عَلى الأَرْضِ، فالْتَقَطَها وَهُوَ يَقولُ : « لَيْسَتْ أَمامَكَ فُرْصَةٌ لِلْهَرَبِ !»

قالَ اللِّصُّ مُسْتَسْلِماً : « نَعَمْ ، لَقَدْ وَقَعْتُ في أَيْديكُمْ ، أَمّا زَميلي فَقَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الهَرَبِ ، وَ لَوْ أَنَّ قِطْعَةً مِنْ مَلابِسِهِ لا تَزالُ في يَدِ ضابِطِ الشُّرْطَةِ !»

قالَ هُولمز : « لَنْ يَسْتَطيعَ صَديقُكَ الهَرَبَ ، فَثَمَّةَ ثَلاثَةٌ مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ في انْتِظارِهِ خارِجَ بَيْتِ السَّيِّدِ وِيلْسُون .»

قالَ اللِّصُّ : « حَقّا إِنَّكَ لَبارِعٌ ! لَقَدْ أَحْكَمْتَ كُلَّ شَيْءٍ في خُطَّتِكَ ، وَ إِنّي أُهَنِّئُكَ !»

رَدَّ عَلَيْهِ هُولمز : « وَأَنا بِدَوْري أُهَنِّئُكَ عَلى فِكْرَتِكَ الخاصَّةِ



بِعُصْبَةِ ذَوي الشَّعْرِ الأَحْمَرِ ؛ فَهِيَ فِكْرَةٌ جَديدَةٌ وَمُثيرَةٌ !»

وَطَلَبَ الضّابِطُ مِنَ اللِّصِّ أَنْ يَمُدَّ يَدَيْهِ لِيَضَعَ فيهِما القَيْدَ ، فَقالَ اللِّصُّ بِكِبْرِياءَ : « لا تَلْمِسْني بِيَدَيْكَ ، أَيُّها الضّابِطُ ! فَأَنا أَنْتَمي إِلى أُسْرَةٍ مَلَكِيَّةٍ ، كَما يَنْبَغي أَنْ تُخاطِبَني بِاحْتِرامٍ !»

اِبْتَسَمَ الضّابِطُ وَقالَ : « حَسَنٌ ، يا سَيِّدي ! تَعالَ مَعي ، فَإِنَّنا سَوْفَ نَسْتَقِلُّ عَرَبَةً تَأْخُذُنا إِلى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ .»

قالَ اللِّصُّ : « هذا أَفْضَلُ .» وَانْحَنى لِتَحِيَّتِنا وَسارَ في هُدوءٍ بِصُحْبَةِ الضّابِطِ .

قالَ هُولْمز وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ الارْتِياحِ : « لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيَّ أَنْ أَكْشِفَ أَغْراضَ عُصْبَةِ ذَوي الشَّعْرِ الأَحْمَرِ ، فَقَدْ كانَ كلاي وَزَميلُهُ ، الَّذي اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ اسْمَ دَنْكان رُوس ، يُريدانِ أَنْ يُبْعِدا السَّيِّدَ وِيلْسُون عَنْ مَحَلِّهِ عِدَّةَ ساعاتٍ كُلَّ يَوْمٍ أَثْناءَ النَّهارِ؛ حَتّى يَتَمَكَّنا مِنِ ارْتِكابِ هذِهِ الجَريمَةِ .»

سَأَلْتُ هُولْمز : « كَيْفَ اكْتَشَفْتَ أَنَّهُما يُخَطِّطانِ لِسَرِقَةِ المَصْرِفِ ؟»

قالَ : « فَكَّرْتُ في الهِوايَةِ الَّتي كانَ مُساعِدُ السَّيِّدِ وِيلْسُون

مَشْغوفًا بِها ، وَمِنْ أَجْلِها كانَ يَمْضي وَقْتًا طَويلاً في القَبْوِ .»
وَسَكَتَ قَليلاً ثُمَّ عادَ يَقولُ : « إِنَّ الوَصْفَ الَّذي ذَكَرَهُ السَّيِّدُ وِيلْسُون لِمُساعِدِهِ المُسَمَّى سبولْدِنْغ ، يَنْطَبِقُ تَماماً عَلى اللِّصِّ المَعْروفِ جُون كلاي . وَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّ كلاي هذا يَقومُ بِعَمَلِ شَيْءٍ هامٍّ في القَبْوِ ، خِلالَ السّاعاتِ الَّتي يَقْضيها فيهِ ، وَأَنَّ إِتْمامَ هذا العَمَلِ يَحْتاجُ إِلى عِدَّةِ أَسابيعَ ؛ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ كانَ يَحْفِرُ تَحْتَ الأَرْضِ خَنْدَقًا يُوَصِّلُهُ إِلى المَبْنى المُجاوِرِ .»

وَنَظَرَ هُولْمز إِلَيَّ قائِلاً : « إِنَّكَ تَعَجَّبْتَ عِنْدَما طَرَقْتُ الأَرْضَ في المَيْدانِ بِعَصايَ ؛ لَقَدْ كُنْتُ أُريدُ أَنْ أَتَبَيَّنَ هَلِ الخَنْدَقُ مَوْجودٌ أَمامَ البَيْتِ أَمْ لا . وَالواقِعُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَوْجوداً ، وَقَدِ اتَّضَحَ لي ذلِكَ مِنْ صَوْتِ طَرَقاتِ العَصا ؛ فَقَدْ دَلَّتْ عَلى أَنَّ الأَرْضَ لَمْ تَكُنْ مُفَرَّغَةً .»
وَصَمَتَ هُولْمز قَليلاً ثُمَّ اسْتَطْرَدَ يَقولُ : « وَدَقَقْتُ جَرَسَ البَيْتِ فَخَرَجَ مُساعِدُ وِيلْسُون ، وَكُنْتُ أُريدُ أَنْ أُشاهِدَ البَنْطَلونَ الَّذي يَرْتديهِ ، وَتَبَيَّنَ لي أَنَّ الرُّكْبَتَيْنِ باليَتانِ مِنْ أَثَرِ الاحْتِكاكِ بِالأَرْضِ ، كَما بَهِتَ لَوْنُهُما ، وَعَلِقَ بِهِما قَليلٌ مِنَ التُّرابِ . فَلَمّا وَجَدْتُ المَصْرِفَ واقِعاً خَلْفَ بَيْتِ السَّيِّدِ وِيلْسُون تَماماً ؛ أَدْرَكْتُ كُلَّ شَيْءٍ .»

سَأَلْتُ هُولْمز : « كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّ الخُطَّةَ قَدْ أُعِدَّتْ لِلتَّنْفيذِ هذِهِ اللَّيْلَةَ ؟»

أجابَ : « لَمْ يَكُنِ الأمْرُ عَويصاً ، فَحينَما عَلِمْتُ بِانْتِهاءِ أعْمالِ العُصْبَةِ المَزْعومَةِ ، أدْرَكْتُ في الحالِ أنَّهُ لَمْ يَعُدْ لِوُجودِ السَّيِّدِ وِيلْسُون أوْ لِغِيابِهِ أهَمِّيَّةٌ ، وَ أدْرَكْتُ أنَّ الخَنْدَقَ قَدْ تَمَّ حَفْرُهُ ، وَ أنَّهُ يوشِكُ أنْ يُسْتَخْدَمَ حَتّى لا يَنْكَشِفَ أمْرُهُ ، كَما أدْرَكْتُ أنَّ مَساءَ يَوْمِ السَّبْتِ هُوَ الوَقْتُ المُناسِبُ لإتْمامِ عَمَلِيَّةِ السَّرِقَةِ حَتّى لا يَنْكَشِفَ أمْرُها إلّا صَباحَ الاثْنَيْنِ ؛ وَ لِذلِكَ أيْقَنْتُ تَماماً أنَّ كلاي وَصاحِبَهُ سَوْفَ يَحْضُرانِ اللَّيْلَةَ لإتْمامِ الجَريمَةِ !»

الرَّجُلُ ذو الشَّفَةِ المُلتوِيَةِ

كانَ جارُنا السَّيِّدُ هُويتْني – فيما مَضى – رَجُلاً لَطيفاً ، وَلكِنَّهُ أَدْمَنَ تَعاطِيَ الأَفْيونِ الَّذي تَسَبَّبَ في تَحْطيمِهِ ، فَانْحَنَتْ قامَتُهُ وَشَحَبَ وَجْهُهُ وَ أَصْبَحَ هَزيلاً يَدْعو مَنْظَرُهُ لِلرِّثاءِ .

حَدَثَ في لَيْلَةٍ ، وَكُنْتُ جالِساً مَعَ زَوْجَتي ، أَنْ دُقَّ جَرَسُ البابِ ، وَ سَمِعْتُ الخادِمَ يَتَحَدَّثُ مَعَ سَيِّدَةٍ بِالخارِجِ . وَ بَعْدَ لَحْظَةٍ فُتِحَ بابُ الغُرْفَةِ ، وَدَخَلَتْ سَيِّدَةٌ تُغَطِّي وَجْهَها بِنِقابٍ أَسْوَدَ ، وَتَقَدَّمَتْ نَحْوَ زَوْجَتي قائِلَةً بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ : « أَرْجو المَعْذِرَةَ ؛ فالوَقْتُ غَيْرُ مُناسِبٍ لِهذِهِ الزِّيارَةِ . » ثُمَّ أَلْقَتْ بِنَفْسِها عَلى كَتِفِ زَوْجَتي وَ أَجْهَشَتْ بِالْبُكاءِ ، فَرَفَعَتْ زَوْجَتي النِّقابَ عَنْ وَجْهِها ، فَإِذا بِها جارَتُنا كِيت زَوْجَةُ هُويتْني ، فَدَعَتْها لِلْجُلوسِ وَسَأَلَتْها عَمّا أَلَمَّ بِها ، فَأَجابَتِ السَّيِّدَةُ : « إِنَّني في حَيْرَةٍ ؛ لِذلِكَ أَتَيتُ إِلَيْكُمْ أَطْلُبُ مُساعَدَةَ الدُّكْتورِ واطْسُن . »



لَمْ يَكُنْ هذا بِالأَمْرِ الغَريبِ عَلَيْنا ، فَكَثيراً ما يَأتي النّاسُ إلى بَيْتِنا إذا أَلَمَّتْ بِهِمُ المَشاكِلُ ، كَما تَفْعَلُ الطَّيْرُ حينَ تَلْجَأُ — عِنْدَ الشُّعورِ بِالخَطَرِ — إلى مَرْفَأِ الأَمانِ .

قالَتْ لَها زَوْجَتي : « إنَّهُ لَيُسْعِدُنا أَنْ نَراكِ ، وَنَقِفَ بِجانِبِكِ . » ثُمَّ قَدَّمَتْ لَها فِنْجاناً مِنَ الشّاي ، وَطَلَبَتْ إلَيْها أَنْ تَقُصَّ عَلَيْنا

قِصتَّها .

قالَتِ السَّيِّدَةُ : « إنَّ الأمْرَ يَتعلَّقُ بِزَوْجي الَّذي لَمْ يَعُدْ لِلْبيْتِ مُنْذُ يَوْمَيْنِ ، وَ أنا خائِفَةٌ عَلَيْهِ .»

لَمْ تَكُنْ هذِهِ هِيَ المَرَّةَ الأولى ، الَّتي تَتَحَدَّثُ فيها زَوْجَةُ هُويتْني عَنْ مَتاعِبِها ، الَّتي يُسَبِّبُها لَها زَوْجُها . وَكانَتْ تِلْكَ السَّيِّدَةُ زَميلَةً لِزَوْجَتي أيّامَ الدِّراسَةِ ؛ وَلِهذا كُنّا نَتَعاطَفُ مَعَها ، وَ نَبْذُلُ كُلَّ ما في وُسْعِنا لِحَلِّ مَشاكِلِها .

سَأَلَتُ السَّيِّدَةَ : « هَلْ تَعْرِفينَ المَكانَ الَّذي يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ زَوْجُكِ ؟»

أجابَتْ : « هُوَ عَلى الأرْجَحِ مَوْجودٌ في « حانَةِ الذَّهَبِ » الَّتي تَقَعُ شَرْقِيَّ لَنْدَن ، عَلى شاطِئِ النَّهرِ في شارِعِ سُوانْدام .» وَسَكَتَتْ لَحْظَةً ثُمَّ قالَتْ : « إنَّهُ مَكانٌ سَيِّءُ السُّمْعَةِ ، يَذْهَبُ إلَيْهِ المُدْمِنونَ وَمِنْ بَيْنِهِمْ زَوْجي . ولكِنَّ هذِهِ هِيَ المَرَّةُ الأُولى الَّتي يَتَغَيَّبُ فيها هُويتْني أكْثَرَ مِنْ يومٍ خارِجَ البَيْتِ . » وَ لَمّا كُنْتُ أتَوَلّى عِلاجَ ذلِكَ الرَّجُلِ مِنَ الإدْمانِ ، قُلْتُ وَأنا أحاوِلُ أنْ أطَمْئِنَها : « اهْدَئي، يا سَيِّدَتي ، سَأَذْهَبُ إلى ذلِكَ المَكانِ الآنَ ، فَإنْ وَجَدْتُهُ هُناكَ ، عُدْتُ بِهِ إلى البَيْتِ خِلالَ ساعَتَيْنِ .»

وَسَرْعانَ ما غادَرْتُ بَيْتي في تِلْكَ السّاعَةِ المُتَأخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ ،

وركبْتُ عَرَبَةً أسْرَعَتْ بي إلى الجانبِ الشّرْقيِّ مِنَ المَدينَةِ . وكانَ شارِعُ سُواندام يَقَعُ في الجِهَةِ الشّرْقيَّةِ مِنْ جِسْرِ لَنْدَن . وهُناكَ وَجَدْتُ حانَةَ الذَّهَبِ في مَكانٍ مُنْخَفِضٍ عَنْ مُسْتَوى الشّارِعِ . وكانَ مَدْخَلُها أشْبَهَ بِفُتْحَةِ الكَهْفِ ، و تَصِلُ إلَيْهِ عَنْ طَريقِ بَعْضِ دَرَجاتِ سُلَّمٍ تَنْحَدِرُ في مَيْلٍ نَحْوَ ذلِكَ المَدْخَلِ ، الّذي يَتَدَلّى مِنْ فَوْقِهِ مِصْباحٌ يَنْبَعِثُ مِنْهُ ضَوْءٌ خافِتٌ .

وأوْقَفْتُ العَرَبَةَ ، وطَلَبْتُ مِنْ سائِقِها الانْتِظارَ . وتَوَجَّهْتُ إلى الحانَةِ فَوَجَدْتُها حُجْرَةً مُسْتَطيلَةً مَمْلوءَةً بِأسِرَّةٍ كَتِلْكَ الّتي نُشاهِدُها عَلى مَتْنِ السَّفينَةِ ، وكانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيَّ أنْ أشاهِدَ ما بِداخِلِها، حَيْثُ كانَ الدُّخانُ يَمْلأُ أرْجاءَ المَكانِ .

ومِنْ خِلالِ ضَوْءٍ خافِتٍ ، رَأيْتُ عَدَداً مِنَ الرِّجالِ قَدْ ألْقَوْا بِأنْفُسِهِمْ عَلى الأسِرَّةِ مُتَراخينَ في أوْضاعٍ غَريبَةٍ ، يَتَسامَرونَ في هَمْسٍ هادِئٍ ، وفي يَدِ كُلٍّ مِنْهُمْ غَلْيونٌ . وكانَ في نِهايَةِ الغُرْفَةِ مِدْفَأةٌ بِها شُعْلَةٌ مِنَ النّارِ ، و يَجْلِسُ بِجِوارِها رَجُلٌ مُسِنٌّ نَحيلٌ طَويلُ القامَةِ ، يُطيلُ النَّظَرَ إلَيْها .

وتَقَدَّمَ مِنّي خادِمُ الحانَةِ ، و هُوَ شابٌّ مِنَ المَلايو يَحْمِلُ في يَدِهِ غَلْيوناً وكَمِّيَّةً مِنَ الأفْيونِ ، وأشارَ إلى سَريرٍ لا يَرْقُدُ عَلَيْهِ أحَدٌ ،

وَقالَ : « تَعالَ إلى هذا المَكانِ ، يا سَيِّدي . »

وَشَكَرْتُهُ قائِلاً : « لا ، يا أخي ! إنَّني لَمْ أحْضُرْ لِهذا الغَرَضِ ، وَلكِنّي أتَيْتُ لِمُقابَلَةِ صَديقي هُويتْني المَوْجودِ هُنا . »

فَجأةً رَأيْتُ رَجُلاً يَنْهَضُ مِنْ سَريرٍ كانَ يَرْقُدُ عَلَيْهِ ، وَسَرْعانَ ما أدْرَكْتُ أنَّهُ هُويتْني ، وَكانَ شاحِبَ الوَجْهِ ، رَثَّ الهَيْئَةِ ، وَيَبْدو أنَّهُ عَرَفَني مِنْ صَوْتي فَرَأيْتُهُ يَتَقَدَّمُ إلَيَّ وَهُوَ يَقولُ بِصَوْتٍ ضَعيفٍ لِلْغايَةِ : «كَمِ السّاعَةُ الآنَ ، يا واطْسُن ؟»

أجَبْتُهُ : « إنَّها الحادِيَةَ عَشْرَةَ ، يا هُويتْني . »

سَألَني : « في أيِّ يَوْمٍ نَحْنُ ؟ »

قُلْتُ : « إنَّنا في يَوْمِ الجُمُعَةِ ، التّاسِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ يونْيَه . »

قالَ الرَّجُلُ مُتَعَجِّباً : « يا رَبِّي ! كُنْتُ أعْتَقِدُ أنَّنا لا نَزالُ في يَوْمِ الأرْبِعاءِ ! »

قُلْتُ : « إنَّ زَوْجَتَكَ تَنْتَظِرُ عَوْدَتَكَ إلى البَيْتِ مُنْذُ يَوْمَيْنِ . ما هذا الَّذي تَفْعَلُهُ ؟ ألا تَخْجَلُ مِنْ نَفْسِكَ ؟! »

قالَ الرَّجُلُ وَقَدْ أخَذَتِ الدُّموعُ تَنْهَمِرُ عَلى خَدَّيْهِ مِنْ شِدَّةِ

الخَجَلِ : « إنّي آسِفٌ لِما حَدَثَ ! فَقَدْ كُنْتُ أظُنُّ أنّني لَنْ أمْكُثَ هُنا أكْثَرَ مِنْ بِضْعِ ساعاتٍ .» وَقالَ مُتَوَسِّلاً : « خُذْني مَعَكَ ، يا واطْسُن ، إلى البَيْتِ ؛ فَإنّي لا أريدُ أنْ أغْضِبَ زَوْجَتي المِسْكينَةَ أكْثَرَ مِنْ هذا .»



وَمَدَّ هُويتْني يَدَهُ لِيَسْتَنِدَ إليَّ ، وَ طَلَبَ مِنِّي أنْ أدْفَعَ ما عَلَيْهِ مِنْ نُقودٍ لِصاحِبِ الحانَةِ . ولَمْ أجِدْ مانِعاً مِنْ تَحْقيقِ رَغْبَتِه ، فَسِرْتُ في المَمَرِّ الضَّيِّقِ الطَّويلِ المَوْجودِ بَيْنَ الأسِرَّةِ لِكَيْ أبْحَثَ عَنْ صاحِبِ الحانَةِ ، وَلكِنَّني أحْسَسْتُ بِيَدٍ تَلْمِسُ ذِراعي فَنَظَرْتُ خَلْفي فَوَجَدْتُها يَدَ الرَّجُلِ الجالِسِ بِجِوارِ المِدْفَأةِ ، وَسَمِعْتُهُ يَقولُ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ : « تَقَدَّمْ بِضْعَ خُطُواتٍ ، ثُمَّ انْظُرْ إليَّ .» فَتَقَدَّمْتُ إلى الأمامِ قَليلاً ، ثُمَّ نَظَرْتُ إلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ لا يَزالُ يَنْظُرُ إلى الشُّعْلَةِ المُلْتَهِبَةِ . وَفَجْأةً اعْتَدَلَ في جِلْسَتِه ، وَأدارَ وَجْهَهُ وَهُوَ يَبْتَسِمُ ، فَأدْرَكْتُ في الحالِ أنَّهُ شِرْلوك هُولمز .

صِحْتُ مُتَعَجِّباً : « ما الَّذي أتى بِكَ إلى هذا المَكانِ المُقَزِّزِ ؟!»

قالَ : « اخْفِضْ صَوْتَكَ ، فَإنِّي أسْتَطيعُ أنْ أسْمَعَكَ .» ثُمَّ أخْبَرَني أنَّهُ يُريدُ أنْ يَتَحَدَّثَ مَعي عَلى انْفِرادٍ ، وَطَلَبَ مِنِّي أنْ أتَخَلَّصَ مِنْ صاحِبي . وَاقْتَرَحَ أنْ أرْسِلَهُ وَحْدَهُ إلى بَيْتِهِ في إحْدى العَرَباتِ الَّتي تَنْتَظِرُ بِالخارِجِ ، وَأكْتُبَ رِسالَةً إلى زَوْجَتي يُسَلِّمُها إلَيْها سائِقُ العَرَبَةِ ، وَأبَلِّغَها فيها بِأنِّي قابَلْتُ هُولمز ، وَسَأقْضي اللَّيْلَةَ مَعَهُ .

وَكَتَبْتُ الرِّسالَةَ لِزَوْجَتي في دَقائِقَ مَعْدودَةٍ ، وَ دَفَعْتُ حِسابَ هُويتْني ، ثمَّ قُدْتُهُ إلى العَرَبَةِ وَاسْتَأذَنْتُهُ أنْ يَعودَ إلى البَيْتِ بِمُفْرَدِهِ ،

وَطَلَبْتُ مِنَ السَّائِقِ أَنْ يُسَلِّمَ الرِّسالَةَ إلى زَوْجَتي . وَرَكِبَ الرَّجُلُ وَسارَتِ العَرَبَةُ .

بَعْدَ قَليلٍ جاءَ هُولمْز ، وَ بَدَأْنا السَّيْرَ تارِكَيْنِ حانَةَ الذَّهَبِ خَلْفَنا. وَكانَ يَمْشي مُنْحَنِيَ القامَةِ ، وَفَجْأَةً رَفَعَ قامَتَهُ وَاعْتَدَلَ في مِشْيَتِهِ وَهُوَ يَضْحَكُ مِنْ أعْماقِ قَلْبِهِ ، وَ يَقولُ : « أَظُنُّكَ اعْتَقَدْتَ ، يا واطْسُن ، أَنَّني أَصْبَحْتُ مُدْمِناً لِلأَفْيونِ ؟!»

أَجَبْتُهُ : « لَقَدْ دَهِشْتُ حينَما وَجَدْتُكَ في هذا المَكانِ .»

قالَ عَلى الفَوْرِ : « وَ أَنا كَذلِكَ دَهِشْتُ لَمّا رَأَيْتُكَ .» فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّني أَتَيْتُ لِكَيْ أَبْحَثَ عَنْ صَديقٍ .

قالَ : « أَمَّا أَنا فَقَدْ أَتَيْتُ لِكَيْ أَبْحَثَ عَنْ عَدُوٍّ .»

لَمّا أَبْدَيْتُ لِهُولمْز دَهْشَتي قالَ : « إِنَّ المُجْرِمَ عَدُوِّي ، وَ أَنا أَبْحَثُ عَنْ مُجْرِمٍ . لَقَدْ دَخَلَ السَّيِّدُ نِيفِيل سانْت كليرهذِهِ الحانَةَ ، وَ أَخْشَى أَنْ لا يَتَمَكَّنَ مِنَ الخُروجِ مِنْها حَيًّا . فَخَلْفَ المَبْنى بابٌ يُطِلُّ عَلى النَّهْرِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ عَدَداً كَبيراً مِنَ النَّاسِ قَدْ قُتِلوا في الحانَةِ وَأُلْقِيَتْ جُثَثُهُمْ في النَّهْرِ مِنْ خِلالِ هذا البابِ .»

سَكَتَ هُولمْز قَليلاً ثُمَّ قالَ : « لَوْ كانَ صاحِبُ الحانَةِ ، وَهُوَ

بَحَّارٍ هِنْدِيٍّ ، لاحَظَ وُجودِيَ هُناكَ لَقَتَلَني في الحالِ ، لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنّي أَتَرَدَّدُ على حانَتِهِ لأَتَحَدَّثَ مَعَ زَبائِنِهِ مِنَ المُدْمنينَ ؛ حَتَّى أَتَعَرَّفَ عَلى أَسْرارِ بَعْضِ الجَرائِمِ ، وقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ أَقْسَمَ على الانْتِقامِ مِنّي .»

لَمّا بَعُدْنا عَنِ الحانَةِ أَطْلَقَ هُولمْز صَفيراً عالِياً ، رَأَيْتُ بَعْدَهُ ضَوْءاً أَصْفَرَ يَنْبَعِثُ مِنْ مَصابيحِ عَرَبَةٍ صَغيرَةٍ ، أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ مِنّا إِلى أَنْ وَقَفَتْ بِجِوارِنا . وَ طَلَبَ هُولمْز مِنْ سائِقِها أَنْ يَنْصَرِفَ بَعْدَ أَنْ أَعْطاهُ قِطْعَةً مِنَ النُّقودِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ وَجَذَبَني مَعَهُ إِلى العَرَبَةِ قائِلاً: « إِنَّكَ سَوْفَ تَأْتي مَعي ، يا واطْسُن ، بِلا شَكٍّ فَأَنا في حاجَةٍ مُلِحَّةٍ إِلَيْكَ . وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ أَنَّ الغُرْفَةَ الَّتي أُقيمُ فيها بِبَيْتِ سانْت كلير بِها سَريرانِ .»

وَ لَمّا أَبْدَيْتُ دَهْشَتي لِوُجودِهِ في بَيْتِ ذلِكَ الرَّجُلِ قالَ : « لا تَدْهَشْ ! فَأَنا مَوْجودٌ في بَيْتِهِ لأَنّي مَشْغولٌ بِاخْتِفائِهِ .»

وَ لَمّا سَأَلْتُهُ عَنْ مَكانِ البَيْتِ ، أَخْبَرَني أَنَّهُ في مَدينَةٍ لي بِمُقاطَعَةِ كِنْت ، وَ لا يَبْعُدُ أَكْثَرَ مِنْ عَشَرَةِ كيلو مِتْراتٍ عَنْ لَنْدَن .

سارَتْ بِنا العَرَبَةُ وَسْطَ الظَّلامِ ، وَسادَ الصَّمْتُ بَيْنَنا بَعْضَ الوَقْتِ إِلى أَنْ بَدَأَ هُولمْز الحَديثَ ، فَقالَ : « لَقَدْ كُنْتُ أُفَكِّرُ فيما سَأَقولُهُ

لِتِلْكَ السَّيِّدَةِ ، عِنْدَما تُقابِلُني اللَّيْلَةَ عِنْدَ البابِ .» وَسَكَتَ بُرْهَةً ثُمَّ قالَ : « إنني أَتَحَدَّثُ عَنْ زَوْجَةِ سانْت كلير .» ثُمَّ عادَ إلى صَمْتِهِ ، فَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَقُصَّ عَلَيَّ قِصَّةَ هذا الرَّجُلِ .

قالَ هُولمز : « إنَّها قِصَّةٌ غَريبَةٌ . لَقَدِ اتَّخَذَ سانْت كلير لِنَفْسِهِ مُنْذُ خَمْسَةِ أَعْوامٍ بَيْتاً كَبيراً في مَدينَةٍ لي ، وَكانَ يَعيشُ فيهِ كالأَغْنِياءِ، وَ تَوطَّدَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جيرانِهِ صَداقَةٌ مَتينَةٌ . وَ مُنْذُ عامَيْنِ تَزَوَّجَ ابْنَةَ أَحَدِ المُزارِعينَ في تِلْكَ الجِهَةِ ، وَ عُرِفَ عَنِ الرَّجُلِ أَنَّهُ يُديرُ عَمَلاً خاصًّا بِهِ في لَنْدَن ، فَكانَ يُغادِرُ بَيْتَهُ في الصَّباحِ وَ يَعودُ إِلَيْهِ في قِطارِ السَّاعَةِ الخامِسَةِ . وَ هُوَ رَجُلٌ مُسْتَقيمٌ يَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ السَّابِعَةَ وَالثَّلاثينَ ، وَهُوَ زَوْجٌ طَيِّبُ القَلْبِ مَحْبوبٌ ، وَغَيْرُ مُتَوَرِّطٍ في مَشاكِلَ مالِيَّةٍ أَوْ غَيْرِها . وَفي يَوْمِ الاثْنَيْنِ الماضي ، ذَهَبَ إلى لَنْدَن في وَقْتٍ مُبَكِّرٍ عَلى غَيْرِ عادَتِهِ ، وَأَخْبَرَ زَوْجَتَهُ أَنَّ لَدَيْهِ بَعْضَ الأَعْمالِ الهامَّةِ الَّتي يَوَدُّ إِنْجازَها في ذلِكَ اليَوْمِ ، وَ وَعَدَها بِأَنْ يَشْتَرِيَ لابْنِهِ لُعْبَةَ الحِجارَةِ الَّتي تُرَكَّبُ ، وَفي اليَوْمِ نَفْسِهِ تَسَلَّمَتِ الزَّوْجَةُ بَرْقِيَّةً مِنْ إِحْدى شَرِكاتِ المِلاحَةِ في لَنْدَن ، تُبَلِّغُها أَنَّ لَها طَرْداً قَيِّماً بِمَكاتِبِ الشَّرِكَةِ في لَنْدَن وَالَّتي تَقَعُ بِالقُرْبِ مِنْ شارِعِ فريسنو ، بِالقُرْبِ مِنْ شارِعِ سُوانْدام حَيْثُ قابَلْتَني اللَّيْلَةَ .

« تَوَجَّهَتِ السَّيِّدَةُ إلى لَنْدَن بَعْدَ ظُهْرِ ذلِكَ اليَوْمِ ، ثُمَّ ذَهَبَتْ إلى مَقَرِّ الشَّرِكَةِ عَقِبَ الانْتِهاءِ مِنْ شِراءِ الأَشْياءِ ، وَغادَرَتِ الشَّرِكَةَ بَعْدَ أَنْ تَسَلَّمَتِ الطَّرْدَ حَوالى السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ وَالنِّصْفِ ، وَسارَتْ مُتَباطِئَةً في شارِعِ سُوانْدام بُغْيَةَ أَنْ تَجِدَ عَرَبَةً تَنْقُلُها إلى البَيْتِ . وَ اقْتَرَبَتِ السَّيِّدَةُ مِنْ مَبْنى الحانَةِ ، فَسَمِعَتْ فَجْأَةً صَرْخَةً مُدَوِّيَةً ، وَ نَظَرَتْ إلى أَعْلى فَوَجَدَتْ زَوْجَها يَنْظُرُ إِلَيْها مِنْ نافِذَةٍ في الطَّابَقِ الأَوَّلِ لِلْمَبْنى ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُلَوِّحُ بِيَدِهِ لَها ، وَيَطْلُبُ مِنْها أَنْ تَصْعَدَ لِنَجْدَتِهِ . وَقالَتِ السَّيِّدَةُ إِنَّها رَأَتْ زَوْجَها بِوُضوحٍ ، وَ قَدْ لاحَظَتْ أَنَّهُ كانَ بِغَيْرِ ياقَةٍ أَوْ رِباطِ عُنُقٍ ، وَ لكِنَّهُ كانَ يَلْبَسُ مِعْطَفاً داكِنَ اللَّوْنِ مِثْلَ الَّذي لَبِسَهُ في الصَّباحِ ، وَأَنَّها تَعْتَقِدُ أَنَّ شَيْئاً خَطِراً قَدْ حَدَثَ لَهُ ، فَقَدْ لاحَظَتْ يَداً تَجْذِبُهُ إلى داخِلِ الغُرْفَةِ ، فَهُرِعَتْ إلى المَبْنى لِتَصْعَدَ إلى الطَّابَقِ العُلْوِيِّ لِنَجْدَةِ زَوْجِها . ولكِنَّ صاحِبَ الحانَةِ حالَ بَيْنَها وَ بَيْنَ ذلِكَ ، وَ دَفَعَها إلى الخارِجِ بِمُساعَدَةِ خادِمِهِ .

« وَجَرَتِ السَّيِّدَةُ في الطُّرُقاتِ عَلى غَيْرِ هُدًى إلى أَنْ صادَفَتْ، لِحُسْنِ حَظِّها ، بَعْضَ رِجالِ الشُّرْطَةِ ، فاسْتَغاثَتْ بِهِمْ وَ ذَهَبوا مَعَها إلى الحانَةِ ، وَصَعِدوا إلى الطَّابَقِ العُلْوِيِّ ، وَلكِنَّها لَمْ تَعْثُرْ لِزَوْجِها عَلى أَثَرٍ ، وَ لَمْ يَكُنْ هُناكَ في الغُرْفَةِ غَيْرُ رَجُلٍ أَعْرَجَ قَبيحِ المَنْظَرِ

يَعيشُ فيها ، وَقَدْ أقْسَمَ كَما أقْسَمَ صاحِبُ الحانَةِ أنّهُ لَمْ يكُنْ هُناكَ إنْسانٌ آخَرُ . وَ لكِنَّ زَوْجَةَ سانْت كلير لاحَظَتْ وُجودَ صُنْدوقٍ خَشَبِيٍّ صَغيرٍ عَلى المِنْضَدَةِ ، فَأَسْرَعَتْ إلَيْهِ وَكَسَرَتْ غِطاءَهُ فَإذا بداخِلِهِ مَجْموعَةٌ مِنَ الحِجارَةِ الّتي تُرَكَّبُ ، وَالّتي يَلْعَبُ بِها الأطْفالُ ، فَتَذَكَّرَتِ اللُّعْبَةَ الّتي وَعَدَ زَوْجُها بِأَنْ يُحْضِرَها لِطِفْلِهِما الصَّغيرِ ، عِنْدَ عَوْدَتِهِ في ذلِكَ اليَوْمِ .

« وَقامَ رِجالُ الشُّرْطَةِ بِفَحْصِ الغُرْفَةِ بِعِنايَةٍ ، وَكانَ بِها بابٌ يُؤَدّي إلى غُرْفَةِ نَوْمٍ تُطِلُّ عَلى النَّهْرِ . وَكانَ بِمُحاذاةِ النَّهْرِ شَريطٌ طَويلٌ مِنَ الأرْضِ الجافَّةِ ، يَظْهَرُ عِنْدَما تَنْحَسِرُ مِياهُ النَّهْرِ بِفِعْلِ الجَزْرِ ، ثُمَّ يَخْتَفي حينَما تَغْمُرُهُ المِياهُ إذا اشْتَدَّ المَدُّ . وَكانَ النَّهْرُ في ذلِكَ الحينِ في أقْصى حالاتِ المَدِّ ، وَ لكِنَّ رِجالَ الشُّرْطَةِ لاحَظوا بُقَعاً مِنَ الدِّماءِ عَلى حافَةِ النّافِذَةِ . كَما تَناثَرَتْ بَعْضُ البُقَعِ عَلى أرْضِ حُجْرَةِ النَّوْمِ مِمّا جَعَلَهُمْ يَشُكّونَ في وُجودِ جَريمَةٍ وَراءَ اخْتِفاءِ سانْت كلير ، خاصَّةً بَعْدَ أنْ عَثَروا عَلى بَعْضِ مَلابِسِهِ عَدا مِعْطَفِهِ ، وَلكِنْ لا يَزالُ المَوْقِفُ غامِضاً ، فَلَمْ تَظْهَرْ عَلى تِلْكَ المَلابِسِ عَلامَةٌ مِنْ عَلاماتِ العُنْفِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أيُّ احْتِمالٍ يَتَعَلَّقُ بِسانْت كلير إلّا أنْ يَكونَ قَدْ خَرَجَ مِنَ النّافِذَةِ .

« وَلَمْ يَكُنْ صاحِبُ الحانَةِ عَلى وِفاقٍ مَعَ رِجالِ الشُّرْطَةِ ؛ لِما

يُسَبِّبُهُ لَهُمْ مِنْ مَشاكِلَ ، وَ مَعَ هذا لا يُعْتَقَدُ أَنَّهُ قَتَلَ سانْت كلير، لأنَّ السَّيِّدَةَ وَجَدَتْهُ أَسْفَلَ الدَّرج بَعْدَ أَنْ رَأَتْ زَوْجَها بِثَوانٍ مَعْدوداتٍ. وَذَكَرَ الرَّجُلُ أَنَّهُ لا يَعْرِفُ شَيْئًا عَن المَلابِس الَّتي وُجِدَتْ بِالطَّابَق العُلْوِيِّ ، وَلا شَكَّ أَنَّ الرَّجُلَ الأعْرَجَ الَّذي يُدْعى هِيُو بون هُوَ آخِرُ مَنْ شاهَدَ سانْت كلير .

« وَ هِيُو بون هذا مُتَسَوِّلٌ يَعْرِفُهُ النّاسُ في لَنْدَن ، وَ يَتَّخِذُ لَهُ مَكانًا قُرْبَ بَنْكِ إِنْجِلْترا حَيْثُ يَتَظاهَرُ بِبَيْعِ عُلَبِ الثِّقابِ ، وَ يَضَعُ بِجانِبِهِ قُبَّعَةً قَذِرَةً يَرْمي لَهُ النّاسُ فيها قِطَعَ النُّقودِ . وَ لِهذا الرَّجُلِ مَظْهَرٌ غَريبٌ يَجْذِبُ الانْتِباهَ ؛ فَوَجْهُهُ شاحِبٌ ، وَ شَعْرُهُ أَحْمَرُ يَتَدَلّى عَلى رَقَبَتِهِ ، وَ عَيْناهُ بَرّاقَتانِ ، وَ شَفَتُهُ العُلْيا مُلْتَوِيَةٌ إِثْرَ حادِثٍ قَديمٍ ، وَلكِنَّهُ لَبِقٌ في حَديثِهِ .»

وَ أَبْدَيْتُ دَهْشَتي مِنْ أَنْ يَتَمَكَّنَ إِنْسانٌ أَعْرَجُ مِثْلُ بون مِنْ قَتْلِ شابٍّ صَحيحِ الجِسْمِ مِثْلِ سانْت كلير ، وَلكِنَّ هُولمْز أَسْرَعَ قائِلاً : « إِنَّ هذا الأَعْرَجَ ، يا واطْسُن ، يَتَمَتَّعُ بِقُوَّةٍ هائِلَةٍ ، وَعِنْدَما كانَ رِجالُ الشُّرْطَةِ يَقومونَ بِتَفْتيشِهِ ، وَجَدوا بُقعاً مِنَ الدَّمِ عَلى أَحَدِ كُمَّيْ قَميصِهِ . وَعَلَّلَ ذلِكَ بِأَنَّها نَتيجَةٌ لِجُرْحٍ في أُصْبعِهِ ، وَكَشَفَ عَنْ ذلِكَ الجُرْحِ ، وَقالَ إِنَّهُ كانَ بِالنّافِذَةِ مُنْذُ وَقْتٍ قَريبٍ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ بُقَعُ الدَّمِ الَّتي شوهِدَتْ عَلى النّافِذَةِ وَ عَتَبَتِها

قَدْ تَساقَطَتْ مِنْ هذا الجُرْحِ . وَ أَنْكَرَ أَنَّهُ يَعْرِفُ إِنْساناً يُسَمَّى سانْت كلير ، كَما أَقْسَمَ بِأَنَّ وُجودَ هذِهِ المَلابِسِ في غُرْفَتِهِ يُعْتَبَرُ أَمْراً غامِضاً بِالنِّسْبَةِ لَهُ أَيْضاً ، وَإِذا كانَتِ السَّيِّدَةُ تَدَّعي أَنَّها قَدْ رَأَتْ زَوْجَها بِالنّافِذَةِ مُنْذُ قَليلٍ فَلا بُدَّ أَنَّها كانَتْ تَحْلُمُ ، وَ إِلّا فَهِيَ – وَ لا شَكَّ – مَجْنونَةٌ .

وَاقْتيدَ بون إِلى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ ، وَ واصَلَ بَعْضُ الرِّجالِ مُعايَنَةَ المَكانِ ، فَلَمّا انْحَسَرَتْ مِياهُ النَّهْرِ أَخَذوا يَبْحَثونَ عَنِ الجُثَّةِ ، وَلكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدوا سِوى المِعْطَفِ . وَ لاحَظوا أَنَّ كُلَّ جُيوبِهِ مَمْلوءَةٌ بِقِطَعِ النُّقودِ مِنْ فِئَةِ البِنْسِ وَ نِصْفِ البِنْسِ ، فَتَعَذَّرَ عَلى تَيّارِ المِياهِ أَنْ يَجْرُفَهُ إِلى داخِلِ النَّهْرِ لِثِقْلِهِ . وَرَأى رِجالُ الشُّرْطَةِ إِمّا أَنْ تَكونَ الجُثَّةُ قَدْ سُحِبَتْ وَحْدَها بِقُوَّةِ الجَزْرِ ، أَوْ أَنْ يَكونَ المُتَسَوِّلُ قَدْ قَذَفَ بِها عارِيَةً مِنَ النّافِذَةِ ، ثُمَّ أَرادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ المَلابِسِ ؛ فَمَلأَ جُيوبَ المِعْطَفِ بِالنُّقودِ المَعْدِنِيَّةِ وَ قَذَفَ بِهِ في النَّهْرِ حَتّى يَغوصَ ، وَكانَ يوشِكُ أَنْ يَفْعَلَ ذلِكَ بِبَقِيَّةِ المَلابِسِ ، لَوْلا أَنَّهُ سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامٍ تَصْعَدُ الدَّرَجَ فَأَسْرَعَ بِغَلْقِ النّافِذَةِ .

« إِنَّني موقِنٌ مِنْ أَنَّ السَّيِّدَةَ قَدْ رَأَتْ زَوْجَها في الحانَةِ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَتَبَيَّنَ السَّبَبَ الحَقيقِيَّ في وُجودِهِ ، وَالعَلاقَةَ بَيْنَ هذا المُتَسَوِّلِ وَاخْتِفاءِ هذا الرَّجُلِ . إِنَّ المُشْكِلَةَ لَيْسَتْ سَهْلَةً ، يا واطْسُن . »

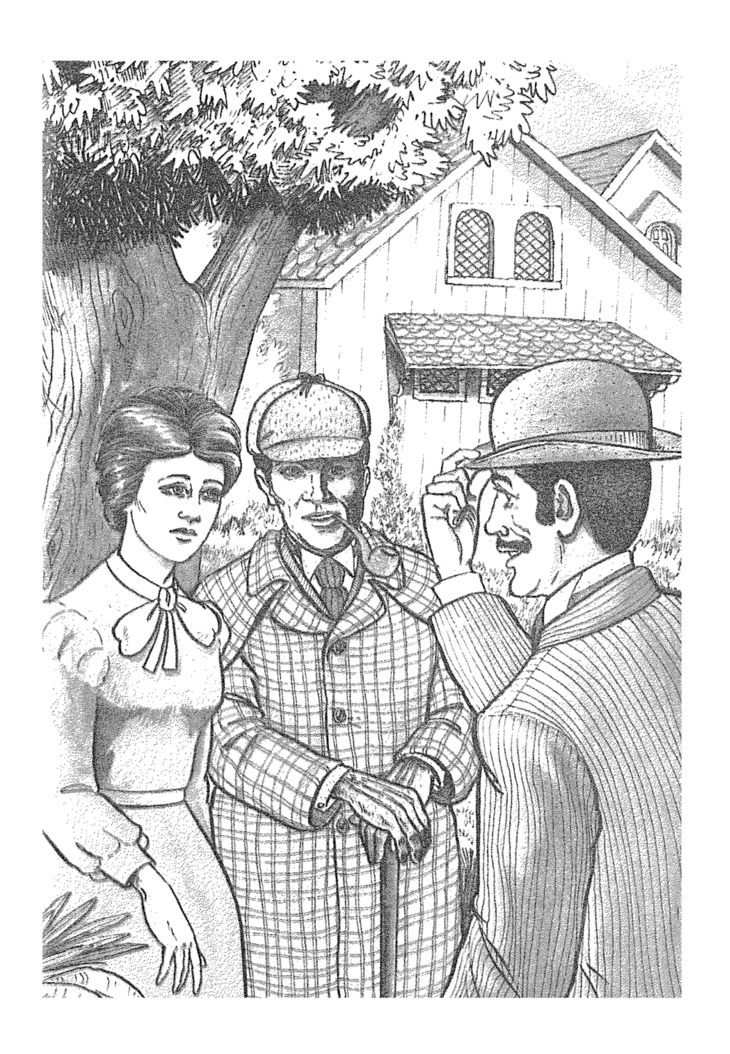
كانَتِ العَرَبَةُ تَسيرُ بِنا في الظَّلامِ ، وَلَمَحْتُ عَنْ بُعْدٍ ضَوْءاً يَنْبَعِثُ بَيْنَ الأَشْجارِ ، فَقالَ هُولْمز : « أُنْظُرْ ! هذا بَيْتُ نيفيل سانْت كلير ، لَقَدِ اقْتَرَبْنا مِنْهُ . إنَّ خَلْفَ هذا المِصْباحِ الَّذي نَراهُ الآنَ تَجْلِسُ سَيِّدَةٌ تَنْتَظِرُ حُضورَنا في لَهْفَةٍ وَ قَلَقٍ .»

وَبَعْدَ قَليلٍ دَخَلْنا مَمَرّاتٍ ضَيِّقَةً ، وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ وَقَفْنا أَمامَ بَيْتٍ كَبيرٍ ، فَهُرِعَ الخادِمُ لِكَيْ يُمْسِكَ بِلِجامِ الحِصانِ وَهُوَ يَتَوَقَّفُ عَنِ السَّيْرِ . وَكانَ مَدْخَلُ البَيْتِ قَدْ فُتِحَ قَبْلَ وُصولِنا ، وَتَقَدَّمَتْ نَحْوَنا سَيِّدَةٌ جَميلَةٌ في مُقْتَبَلِ العُمْرِ تَلْبَسُ ثَوْباً مِنَ الحَريرِ الأَحْمَرِ ، وَكانَتْ هذِهِ السَّيِّدَةُ هِيَ زَوْجَةَ سانْت كلير .

وَيَبْدو أَنَّها ظَنَّتْ أَنّي زَوْجُها ، فَقالَتْ : « حَسَنٌ . أَرى أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ أَخيراً .» وَلكِنَّ هُولْمز هَزَّ رَأْسَهُ في أَسَفٍ وَهُوَ يَقولُ : « لا ، يا سَيِّدَتي ! لَيْسَتْ ثَمَّةَ أَخْبارٌ سارَّةٌ !»

وَحينَما لاحَظَ اضْطِرابَها أَرْدَفَ قائِلاً : « وَكَذلِكَ لا توجَدُ أَخْبارٌ سَيِّئَةٌ !»

وَدَعَتْنا زَوْجَةُ سانْت كلير إِلى الدُّخولِ ، وَقَدَّمَني هُولْمز إِلَيْها قائِلاً : « هذا صَديقي الدُّكْتور واطْسُن . إِنَّهُ كَثيراً ما يُساعِدُني في حَلِّ القَضايا الَّتي أُعالِجُها ، وَلِحُسْنِ حَظّي قابَلْتُهُ اللَّيْلَةَ صُدْفَةً .»



وَرَحَّبَتْ بِنا السَّيِّدَةُ ، وَ قادَتْنا إلى غُرْفَةِ الطَّعامِ ، حَيْثُ وَجَدْنا عَشاءً خَفيفاً أُعِدَّ لَنا . وَقالَتْ مُوَجِّهَةً كَلامَها إلى هُولْمز : « إنَّ لَدَيَّ بَعْضَ الأَسْئِلَةِ ، أَوَدُّ أَنْ تُجيبَ عَنْها بِصِدْقٍ .»

قالَ : « إنّي عَلى اسْتِعْدادٍ لِذلِكَ .»

سَأَلَتْهُ السَّيِّدَةُ : « هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّ نيفِيل لا يَزالُ عَلى قَيْدِ الحَياةِ ؟»

أَجابَ هُولْمز : « إنّي لا أَعْتَقِدُ ذلِكَ .»

صاحَتْ : « إذاً فَقَدْ ماتَ !»

قالَ هُولْمز : « أُرَجِّحُ هذا .»

سَأَلَتْهُ : « في أَيِّ يَوْمٍ تَظُنُّ أَنَّهُ ماتَ ؟»

أَجابَ : « يَوْمَ الاثْنَيْنِ .»

أَسْرَعَتِ السَّيِّدَةُ تَسْأَلُ : « إذاً كَيْفَ تُفَسِّرُ سِرَّ الخِطابِ الَّذي وَصَلَني مِنْهُ اليَوْمَ ؟!»

وَتَعَجَّبَ هُولْمز عِنْدَ سَماعِهِ هذا الخَبَرَ ، وَطَلَبَ مِنْها أَنْ تُرِيَهُ هذا الخِطابَ ، فَلَمّا أَحْضَرَتْهُ أَخَذَهُ بِلَهْفَةٍ ثُمَّ وَضَعَهُ عَلى المائِدَةِ ، وَأَخَذَ

يَتَفَحَّصُهُ بِدِقَّةٍ . وَكانَ الظَّرْفُ مِنَ النَّوْعِ البُنِّيِّ الرَّخيصِ ، وَيُشيرُ خاتَمُ البَريدِ المَوْجودُ عَلَيْهِ ، إلى أَنَّهُ قَدْ أَرْسِلَ صَباحَ ذلِكَ اليَوْمِ مِنْ غريڤسند في شَمالِ كِنْت .

قالَ هُولْمز بَعْدَ أنِ انْتَهى مِنْ فَحْصِ الخِطابِ : « إنَّ الخَطَّ الَّذي كُتِبَ بِهِ العِنْوانُ عَلى الظَّرْفِ رَديءٌ لِلْغايَةِ ! وَأَعْتَقِدُ ، يا سَيِّدَتي، أَنَّهُ لَيْسَ خَطَّ زَوْجِكِ .»

فَوافَقَتْهُ عَلى ذلِكَ قائِلَةً : « وَ لكِنَّ الخِطابَ نَفْسَهُ كُتِبَ بِخَطِّ زَوْجي ، وَ أنا موقِنَةٌ مِنْ ذلِكَ .»

قالَ هُولْمز : « اُنْظُري ! يَبْدو أنَّ الاسْمَ قَدْ كُتِبَ بِالحِبْرِ الأَسْوَدِ ، وَتُرِكَ لِيَجِفَّ بِبُطْءٍ ، أَمَّا العِنْوانُ فَيَكادُ يَكونُ رَمادِيَّ اللَّوْنِ ، وَمَعْنى هذا أَنَّ قَليلاً مِنَ الرَّمْلِ قَدْ وُضِعَ عَلى الكِتابَةِ حَتّى تَجِفَّ بِسُرْعَةٍ. وَهذا يَدُلُّ عَلى أَنَّ الشَّخْصَ الَّذي كَتَبَ عَلى الظَّرْفِ قامَ بِكِتابَةِ الاسْمِ أَوَّلاً ، ثُمَّ انْتَظَرَ حَتّى عَرَفَ العِنْوانَ ، فَكَتَبَهُ بَعْدَ ذلِكَ .»

وَعادَ هُولْمز إلى فَحْصِ الخِطابِ ثُمَّ قالَ : « يَبْدو ، يا سَيِّدَتي ، أَنَّ شَيْئًا ما قَدْ وُضِعَ مَعَ الخِطابِ داخِلَ الظَّرْفِ .»

قالَتِ السَّيِّدَةُ : « لَقَدْ وَجَدْتُ فيهِ خاتَمَ زَوْجي .»

قَرَأَ هُولْمز الخِطابَ بِصَوْتٍ مُرْتَفعٍ ، وَ جاءَ فيهِ : « أوليڤْيا ، يا أعَزَّ النّاسِ ، لا تَخافي عَلَيَّ ؛ فإنّي بِخَيْرٍ . وَكُلُّ شَيْءٍ سَيَكونُ عَلى ما يُرامُ . لَقَدْ حَدَثَ خَطَأٌ يَحْتاجُ إلى بَعْضِ الوَقْتِ لِتَصْحيحِهِ ، فَلا تَقْلَقي وَ اصْبِري .»

قالَ هُولْمز بَعْدَ أنْ قَرَأَ الخِطابَ : « إنَّ يَدَ الشَّخْصِ الَّذي أمْسَكَ هَذِهِ الوَرَقَةَ كانَتْ قَذِرَةً ، كَما أنَّ الَّذي أغْلَقَ الخِطابَ كانَتْ بِفَمِهِ آثارٌ مِنَ التَّبغِ ، وَثَمَّةَ دَلائِلُ تُبَشِّرُ بِبَعْضِ الأمَلِ ، وَلكِنّي لا أعْتَقِدُ أنَّ الخَطَرَ قَدْ زالَ نِهائيًّا .»

أحَسَّتِ السَّيِّدَةُ بِالأمَلِ يَتَجَدَّدُ لَدَيْها فَقالَتْ : « إذاً فَزَوْجي لا يَزالُ عَلى قَيْدِ الحَياةِ !»

قالَ هُولْمز : « ما لَمْ يَكُنِ الشَّخْصُ الَّذي كَتَبَ هذا الخِطابَ مُزَوِّراً بارِعاً . كما أنَّ الخاتَمَ لا يُثْبِتُ شَيْئاً ، فَلَعَلَّهُ قَدْ أخِذَ مِنْهُ . وَرُبَّما يَكونُ الخِطابُ قَدْ كُتِبَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ ، وَلَمْ يُلْقَ في صُنْدوقِ البَريدِ إلّا اليَوْمَ . وَإذاكانَ الأمْرُ كَذلِكَ فَلا بُدَّ أنَّ بَعْضَ الأحْداثِ الهامَّةِ قَدْ وَقَعَتْ خِلالَ هذَيْنِ اليَوْمَيْنِ .»

قالَتِ السَّيِّدَةُ : « أرْجوكَ ، يا سَيِّدُ هُولْمز ، لا تَجْعَلْني أفْقِدُ شَجاعَتي ؛ فَأنا أحِسُّ بِأنَّ زَوْجي–لا يَزالُ بِخَيْرٍ ، فَإنَّ العاطِفَةَ

المَوْجودَةَ بَيْننا تُشعِرُني – في الحالِ – بِأيٍّ خطَرٍ يحْدُثُ لَهُ ؛ فَفي صَباحِ يَوْمِ الأحَدِ الماضي جُرِحَ أصبُعُهُ ، وَ هُوَ في حُجْرَةِ النَّوْمِ ، وَكُنْتُ في غُرْفَةِ الطَّعامِ بِالطّابَقِ الأسْفَلِ ، وَلكِنّي أدْرَكْتُ في الحالِ أنَّ مَكْروهاً قَدْ حَدَثَ لَهُ ، فَصَعِدْتُ إِلَيْهِ مُسْرِعَةً ، وَتَبَيَّنَ لي أنّي مُصيبَةٌ فيما تَوَقَّعْتُهُ . » ثُمَّ خَتَمَتْ كلامها قائِلَةً : « هَلْ تَظُنُّ أنْ يُقْتَلَ زَوْجي ، وَأنا هُنا ، دونَ أنْ أشْعُرَ بِذلِكَ ؟!»

أجابَ هُولْمز : « إذاكانَ زَوْجُكِ ، يا سَيِّدَتي ، لا يَزالُ على قَيْدِ الحَياةِ ، وَقادِراً عَلى أنْ يَكْتُبَ الخِطاباتِ ، فَلِماذا يَظَلُّ بَعيداً عَنْ بَيْتِهِ ؟»

أجابَتِ السَّيِّدَةُ بِأنَّها لا تَعْرِفُ سَبَباً لِذلِكَ ، فَعادَ يَسْأَلُها : « أ لَمْ يَذْكُرْ لَكِ شَيْئاً غَيْرَ عادِيٍّ وَهُوَ يُغادِرُ البَيْتَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ ؟»

نَفَتِ السَّيِّدَةُ أنْ يَكونَ زَوْجُها قَدْ ذَكَرَ لَها شَيْئاً غَريباً ، وَ لِذلِكَ أصابَتْها الدَّهْشَةُ عِنْدَما رَأَتْهُ بِالنّافِذَةِ ، في تِلْكَ الحانَةِ المَوْجودَةِ في شارِعِ سُوانْدام .

سَأَلَها هُولْمز : « هَلْ كانَتِ النّافِذَةُ مَفْتوحَةً عِنْدَما شاهَدْتِ زَوْجَكِ ؟»

رَدَّتِ السَّيِّدَةُ بِالإيجابِ ، فَعادَ يَسْأَلُها : « لِماذا لَمْ يَتَحَدَّثْ إِلَيْكِ زَوْجُكِ حينَ رَآكِ ؟»

قالَتْ : « أَعْتَقِدُ أَنَّهُ كانَ يُريدُ ذلِكَ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ ؛ فَقَدْ سَمِعْتُهُ يَصْرُخُ وَهُوَ يُلَوِّحُ لي بِيَدَيْهِ كَأَنَّهُ يَطْلُبُ النَّجْدَةَ .»

قالَ هُولْمز : « رُبَّما كانَتْ صَيْحَةَ دَهْشَةٍ ، وَرُبَّما لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ رُؤْيَتَكِ فَأَخَذَ يُلَوِّحُ بِيَدَيْهِ .»

قالَتِ السَّيِّدَةُ : « هذا أَمْرٌ مُحْتَمَلٌ ، وَلكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ أَحَداً قَدْ جَذَبَهُ إِلى الدّاخِلِ .»

قالَ هُولْمز : « قَدْ يَكونُ هُوَ الَّذي تَراجَعَ إِلى الدّاخِلِ ، وَ أَظُنُّكِ لَمْ تُلاحِظي وُجودَ أَيِّ إِنْسانٍ آخَرَ غَيْرِهِ بِالغُرْفَةِ .»

قالَتِ السَّيِّدَةُ : « وَلكِنَّ هذا الأَعْرَجَ اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ كانَ بِالغُرْفَةِ في ذلِكَ الحينِ ، أَمّا صاحِبُ الحانَةِ فَكانَ آنَذاكَ بِأَسْفَلِ الدَّرَجِ .»

سَأَلَها هُولْمز : « هَلْ كانَ زَوْجُكِ يَرْتَدي مَلابِسَهُ العادِيَّةَ ؟» فَرَدَّتْ عَلَيْهِ بِالإيجابِ ، وَبِأَنَّهُ كانَ بِغَيْرِ ياقَةٍ أَوْ رِباطِ عُنُقٍ .

سَأَلَها هُولْمز : « أَ لَمْ يَذْكُرْ لَكِ شَيْئاً عَنْ شارِعِ سُوانْدام ؟» فَأَجابَتْ بِالنَّفْيِ ، فَسَأَلَها : « أَ لَمْ تُلاحِظي أَنَّهُ كانَ يَتَعاطى

الأفْيونَ ؟» وَ نَفَتِ السَّيِّدَةُ ذلِكَ نَفْيًا قاطِعاً .

وَلَمّا انْتَهى هُولْمز مِن اسْتِفْساراتِهِ طَلَبَ مِنَ السَّيِّدَةِ أنْ تُعِدَّ لَنا العَشاءَ ، قَبْلَ أنْ تَذْهبَ إلى الفِراشِ ، وَ قالَ : « إنَّني أتوَقَّعُ أنْ يَكونَ الغَدُ مَشْحوناً بِالعَمَلِ .» وَلَمْ يَنَمْ هُولْمز ، وَتِلْكَ كانَتْ عادَتُهُ عِنْدَما يَنْشَغِلُ بِإحْدى القَضايا الغامِضَةِ ، وَجَلَسَ في الفِراشِ مُسْتَنِداً إلى مَجْموعَةٍ مِنَ الوَسائِدِ ، وَأخَذَ يُدَخِّنُ غَلْيونَهُ بِهُدوءٍ ، وَهُوَ يُحَمْلِقُ إلى سَقْفِ الحُجْرَةِ ، أمّا أنا فَسَرْعانَ ما اسْتَغْرَقْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ .

وَاسْتَيْقَظْتُ صَباحَ اليَوْمِ التّالي ، فَوَجَدْتُ هُولْمز لا يَزالُ جالِساً يُدَخِّنُ غَلْيونَهُ . وَكانَ الطَّقْسُ جَميلاً مُشْمِساً رَغْمَ كَثافَةِ الدُّخانِ الّذي يَنْبَعِثُ مِنَ التَّبغِ المُحْتَرِقِ .

قالَ هُولْمز بَعْدَ أنْ أدْرَكَ أنَّني اسْتَيْقَظْتُ : « هَلْ تُحِبُّ أنْ تُرافِقَني في هذِهِ السّاعَةِ المُبَكِّرَةِ ، يا واطْسُن ؟»

قُلْتُ : « أجَلْ .» فَطَلَبَ مِنّي أنْ أرْتَدِيَ مَلابِسي في الوَقْتِ الّذي يَذْهَبُ فيهِ لإعْدادِ العَرَبَةِ ، وَقالَ : « لَقَدْ طَرَأتْ لِيَ الآنَ فِكْرَةٌ أرْغَبُ في اخْتِبارِ مَدى صِحَّتِها .» وَ واصَلَ كَلامَهُ ضاحِكاً : « أعْتَقِدُ أنّي ، رَغْمَ غَبائي الّذي أسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الضَّرْبَ ، قَدْ تَمَكَّنْتُ

مِنْ تَفْسيرِ الغُموضِ الّذي يُحيطُ بِاخْتِفاءِ نيڤيل سانْت كلير ، وفي يَدي الآنَ مِفْتاحُ هذا السِّرِّ !»

وَسَأَلْتُهُ – وَأَنا مُبْتَسِمٌ – عَنْ مَكانِ هذا المِفْتاحِ ؛ فَأَشارَ إِلى حَقيبَةٍ وُضِعَتْ بِجانِبِهِ وَ قالَ : « هُنا في هذِهِ الحَقيبَةِ .»

وَلَمّا لاحَظَ عَلاماتِ الدَّهْشَةِ تَرْتَسِمُ عَلى وَجْهي قالَ : « ذَهَبْتُ وَأَنْتَ نائِمٌ إِلى دَوْرَةِ المِياهِ ، وَأَخَذْتُ مِنْ هُناكَ مِفْتاحَ السِّرِّ ، وَ وَضَعْتُهُ في هذِهِ الحَقيبَةِ .»

تَرَكَني هُولْمز وَفي يَدِهِ الحَقيبَةُ ، وَبَعْدَ قَليلٍ سَمِعْتُ صَوْتَ العَرَبَةِ يَقْتَرِبُ مِنَ البابِ الخارِجِيِّ ، وَكُنْتُ قَدِ انْتَهَيْتُ مِنِ ارْتِداءِ ثِيابي ، فَغادَرْتُ الغُرْفَةَ مُسْرِعاً . وَما هِيَ إِلّا لَحْظَةٌ حَتّى قَفَزْتُ إِلى جِوارِ هُولْمز ، وَأَصْبَحْنا عَلى الطَّريقِ المُوَصِّلِ إِلى لَنْدَن . وَبَدَتِ البُيوتُ المُتَناثِرَةُ عَلى الجانِبَيْنِ هادِئَةً صامِتَةً ، وَلَمْ نُشاهِدْ إِلّا بَعْضَ العَرَباتِ البَطيئَةِ تَحْمِلُ الفاكِهَةَ وَالخُضَرَ إِلى الأَسْواقِ .

وَسَرْعانَ ما وَصَلْنا إِلى لَنْدَن ، وَكانَتِ الشَّوارِعُ خالِيَةً. وَ شاهَدْنا مِنَ النَّوافِذِ أُناساً يَسْتَيْقِظونَ في تَراخٍ ، وَالنَّوْمُ لا يَزالُ يُداعِبُ أَجْفانَهُمْ . وَعَبَرْنا النَّهْرَ عَلى جِسْرِ وُوتَرْلو ، ثُمَّ اتَّجَهْنا إِلى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ الّذي يَقَعُ قَريباً مِنْهُ ، وَكانَ بِالبابِ رَجُلانِ أَدّيا التَّحِيَّةَ إِلى

هُولْز ؛ لأنّهُما يَعْرِفانِه ، وَأَمْسَكَ أحَدُهُما لِجامَ الحِصانِ ، بَيْنَما قادَنا الآخَرُ إلى الدّاخِلِ .

سَأَلَ هُولْز رَجُلَ الشُّرْطَةِ الّذي يُرافِقُنا : « مَن الضّابِطُ المُكَلّفُ اليَوْمَ بِالعَمَلِ هُنا ؟»

قالَ الرَّجُلُ : « إنّهُ برادْسترِيت ، يا سَيِّدي .»

وَ وَصَلْنا إلى غُرْفَةٍ صَغيرَةٍ ، يَجْلِسُ بِها ضابِطٌ مُتَوَسِّطُ العُمْرِ ، بِجِوارِ مَكْتَبٍ عَلَيْهِ تِليفُون ، وَحَيّاهُ هُولْز ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « إنّي أَوَدُّ أنْ أتَحَدَّثَ إلَيْكَ في مَوْضوعٍ هامٍّ .»

وَأَبْدى الضّابِطُ اسْتِعْدادَهُ لِلاسْتِماعِ إلَيْهِ ، وَطَلَبَ مِنّا أنْ نَجْلِسَ، وَاتَّخَذَ كُلٌّ مِنّا مَقْعَداً .

قالَ هُولْز : « لَقَدْ أَتَيْتُ بِخُصوصِ المُتَسَوِّلِ الّذي يُدْعى بون ، المُتَّهَمِ في قَضِيَّةِ اخْتِفاءِ سانْت كلير .»

قالَ الضّابِطُ : « إنّنا جَميعاً مَشْغولونَ بِهذِهِ القَضِيَّةِ ، يا سَيِّدي .»

قالَ هُولْز : « هَلْ هُوَ مَوْجودٌ لَدَيْكُمْ ؟»

أجابَ الضّابِطُ : « إنّهُ مُحْتَجَزٌ لَدَيْنا ، وَهذا المُتَسَوِّلُ لَمْ يُسَبِّبْ لَنا

أيَّةَ مَتاعِبَ ، غَيْرَ أنَّهُ قَذِرٌ لا يَعْبَأ بِأنْ يُزيلَ ما عَلَيْهِ مِنْ قاذوراتٍ ، فَوَجْهُهُ مُتَّسِخٌ كَأنَّهُ عامِلٌ في مَنْجَمِ فَحْمٍ !»

قالَ هُولْمز : « إنَّني شَديدُ الرَّغْبَةِ في رُؤْيَتِهِ .»

وافَقَ الضّابِطُ عَلى ذلِكَ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أنْ يَتْرُكَ الحَقيبَةَ في الغُرْفَةِ وَيَذْهَبَ مَعَهُ ، وَلكِنَّ هُولْمز اسْتَأذَنَ الضّابِطَ في أنْ يَأخُذَ الحَقيبَةَ مَعَهُ ، فَلَمْ يَعْتَرِضْ . وَ قادَنا عَبْرَ مَمَرٍّ ضَيِّقٍ إلى بابٍ حَديدِيٍّ دَخَلْنا مِنْهُ إلى مَمَرٍّ طَويلٍ ، فَرَأيْنا عَلى كِلا جانِبَيْهِ صَفًّا مِنَ الأبْوابِ المُغْلَقَةِ .

قالَ الضّابِطُ وَهُوَ يُشيرُ إلى أحَدِ الأبْوابِ : « هذا هُوَ بابُ الغُرْفَةِ الَّتي حَجَزْنا فيها ذلِكَ المُتَسَوِّلَ . » ثُمَّ نَظَرَ مِنْ خِلالِ ثَقْبٍ في الجُزْءِ العُلْوِيِّ لِلْبابِ وَ قالَ : « إنَّهُ لا يَزالُ نائِماً ، وَ يُمْكِنُكَ أنْ تَراهُ بِوُضوحٍ .»

نَظَرْنا مِنَ الثَّقْبِ ، وَكانَ السَّجينُ يَغِطُّ في نَوْمٍ عَميقٍ وَ وَجْهُهُ مُتَّجِهٌ نَحْوَنا . وَكانَ يَبْدو مُتَوَسِّطَ الطّولِ وَيَرْتَدي مَلابِسَ رَثَّةً ، وَ في حالَةٍ بَشِعَةٍ مِنَ القَذارَةِ . وَكانَتْ شَفَتُهُ العُلْيا مُلْتَوِيَةً بِدَرَجَةٍ كَشَفَتْ عَنْ ثَلاثٍ مِنْ أسْنانِهِ ، وَلَهُ شَعْرٌ أحْمَرُ لامِعٌ يَتَدَلّى مِنْ رَأسِهِ بِغَزارَةٍ ، وَ مُنْسَدِلاً عَلى عَيْنَيْهِ .

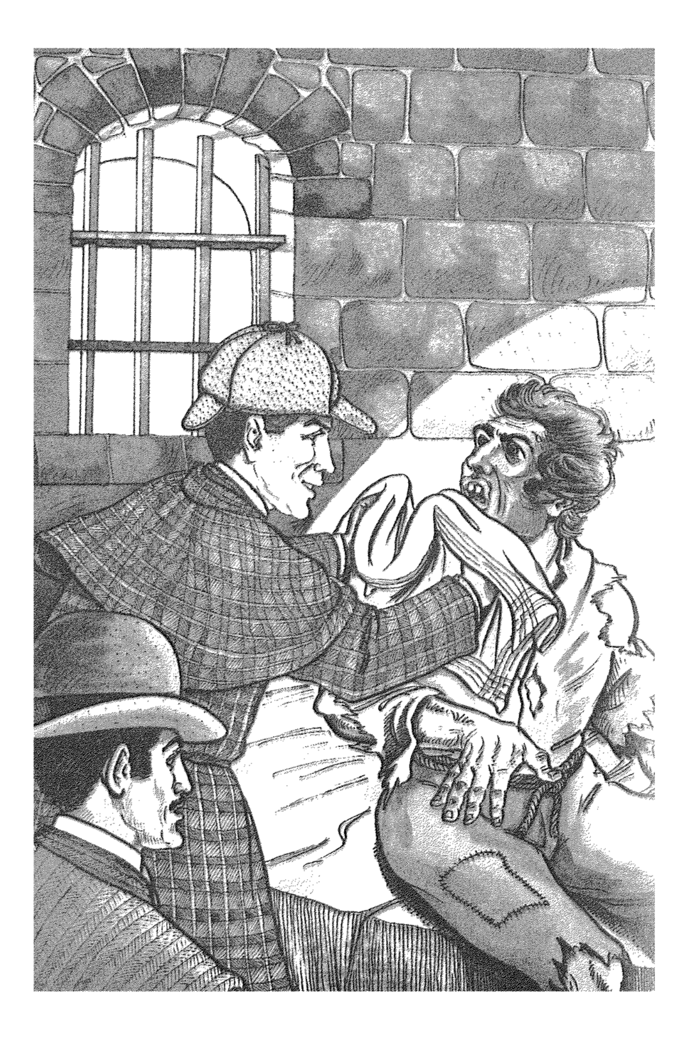
قالَ الضّابِطُ مُتهكّماً وَهُوَ يُشيرُ إلى ثَقْبِ الباب : « إنَّهُ بلا شَكٍّ، تُحْفَةٌ مِنَ الجَمالِ النّادِرِ !»

ضَحِكَ هُولمْز قائلاً : « أعْتَقِدُ أنَّهُ في حاجَةٍ إلى الاغْتِسالِ .» وفَتَحَ الحَقيبَةَ الّتي مَعَهُ وَأخْرَجَ مِنْها مِنْشَفَةً مُبَلَّلَةً ، وَأخَذَها مَعَهُ وَنَحْنُ نَدْخُلُ الغُرْفَةَ ، وَأسْرَعَ هُولمْز نَحْوَ السَّجينِ النّائِمِ، وَأخَذَ يُمَرِّرُ المِنْشَفَةَ عَلى وَجْهِهِ بِقُوَّةٍ وَهُوَ يَقولُ : « دَعوني أُقَدِّمْ لَكُمْ نيفِيل سانْت كلير ، الّذي يَعيشُ في مَدينَةِ «« لي »» بِمُقاطَعَةِ كِنْت !»

وَكانَ لِلْمِنْشَفَةِ تَأثيرٌ عَجيبٌ عَلى وَجْهِ الرَّجُلِ ، فَقَدْ أخَذَتْ تَتَطايَرُ مِنْ فَوْقِهِ قِشْرَةٌ كَأنَّها الوَرَقُ الرَّقيقُ . وَجَذَبَ هُولمْز الرَّجُلَ مِنْ شَعْرِهِ الأحْمَرِ فَانْفَصَلَ الشَّعْرُ كُلُّهُ عَنْ رَأسِهِ؛ إذْ كانَ شَعْراً مُسْتَعاراً، ثُمَّ وَضَعَ المِنْشَفَةَ بِرِفْقٍ فَوْقَ فَمِ الرَّجُلِ ، ثُمَّ رَفَعَها فَتَطايَرَ الجُزْءُ المُلْتَوي مِنَ الشَّفَةِ العُلْيا .

وَهكَذا تَحَوَّلَ المُتَسَوِّلُ القَذِرُ إلى شابٍّ وَسيمٍ أسْوَدِ الشَّعْرِ ذي بَشَرَةٍ ناعِمَةِ المَلْمَسِ ، وَفَمٍ جَميلِ المَنْظَرِ .

وَجَلَسَ الرَّجُلُ يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ ، وَكانَ النُّعاسُ لا يَزالُ بادِياً عَلَيْهِ، ثُمَّ تَنَبَّهَ فَجْأةً وَ أدْرَكَ ما يَدورُ حَوْلَهُ ، فَأخَذَ يَنْتَحِبُ وَ هُوَ يُخْفي وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ .



وَقَفَ الضّابِطُ يَنْظُرُ إلى سَجينِهِ مَشْدوهاً ، وَ قالَ : « رَبّي ! ما هذا الّذي أرى ؟! إنّهُ بِالتّأكيدِ ذلِكَ الرّجُلُ المَفْقودُ الّذي نَبْحَثُ عَنْهُ ؛ لَقَدْ عَرَفْتُهُ مِنَ الصّورَةِ المَوْجودَةِ لَدَيْنا .»

حاوَلَ السّجينُ أنْ يَتَمالَكَ نَفْسَهُ ، ثُمَّ قالَ : « ما التُّهْمَةُ المَنْسوبَةُ إلَيَّ ؟»

أجابَهُ الضّابِطُ : « لا يُمْكِنُ أنْ نُوَجِّهَ إلَيْكَ تُهْمَةً بَعْدَ أنِ انْكَشَفَ أمْرُكَ ، وَ هُوَ أعْجَبُ ما رَأَيْتُ في حَياتي !»

قالَ الرَّجُلُ : « أنا نيفيل سانْت كلير ، ولا توجَدُ جَريمَةٌ أعاقَبُ عَلَيْها ، وَاحْتِجازي هُنا يُعْتَبَرُ خَرْقاً لِلْقانونِ .»

قالَ هُولْمز : « كانَ عَلَيْكَ أنْ تَرْأفَ بِزَوْجَتِكَ !»

قالَ الرَّجُلُ : « إنَّ زَوْجَتي لا تَهُمُّني كَثيراً ، وَ لكِنْ كُلُّ ما يَشْغَلُني أنْ لا يَخْجَلَ مِنّي طِفْلي .»

وَجَلَسَ هُولْمز إلى جِوارِ سانْت كلير ، وَطَلَبَ مِنْهُ أنْ يَقُصَّ عَلَيْنا قِصَّتَهُ ، ما دامَتْ لَيْسَتْ هُناكَ ضَرورَةٌ لإرْسالِهِ لِلْمُحاكَمَةِ ، وَ وَعَدَهُ بِأنْ يُخْفِيَ أمْرَهُ عَنِ الصُّحُفِ كُلِّها .

قالَ الرَّجُلُ يَحْكي تَفاصيلَ حَياتِهِ : « كانَ أبي مُدَرِّساً في

إحْدى مَدارِس مُقاطَعَةِ دِرْبيشايَر ، الَّتي تَلَقَّيْتُ فيها تَعْليماً مُتَميِّزاً أَثْناءَ طُفولَتي وَشَبابي . وَبَعْدَ تَخَرُّجي اشْتَغَلْتُ مُدَّةً بِالتَّمْثيلِ ، ثُمَّ عَمِلْتُ مُخْبِراً صَحَفِيًّا لإحْدى الصُّحُفِ المَسائيَّةِ في لَنْدَن .

« وَفي أَحَدِ الأَيّامِ طُلِبَ مِنّي القِيامُ بِتَحْقيقٍ صَحَفِيٍّ عَنِ التَّسَوُّلِ ، وَكانَتْ هذهِ بِدايَةَ ما أَقْدَمْتُ عَلَيْهِ مِنْ مَخاطِرَ ؛ فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَفْضَلَ طَريقَةٍ لِجَمْعِ المَعْلوماتِ حَوْلَ هذهِ الظّاهِرَةِ هِيَ أَنْ أُمارِسَ التَّسَوُّلَ وَلَوْ لِيَوْمٍ واحِدٍ . وَكانَتْ لَدَيَّ الخِبْرَةُ الكافِيَةُ لِتَغْييرِ مَلامِحي ، فَطَلَيْتُ وَجْهي بِالأَصْباغِ ، وَثَبَّتُّ فَوْقَ فَمي شَفَةً مُلْتَوِيَةً ، وَ وَضَعْتُ شَعْراً مُسْتَعاراً وَثِياباً قَذِرَةً حَتّى تَغَيَّرَتْ مَلامِحي تَماماً . واتَّخَذْتُ لِنَفْسي مَكاناً في شارِعٍ رَئيسِيٍّ في لَنْدَن ، وَتَظاهَرْتُ بِبَيْعِ عُلَبِ الكِبْريتِ ، وَلكِنّي كُنْتُ في الواقِعِ أَتَسَوَّلُ مِنَ المارَّةِ . وَجَلَسْتُ في مَكاني هذا سَبْعَ ساعاتٍ ، ولَمّا عُدْتُ إلى بَيْتي في المَساءِ ، دَهِشْتُ عِنْدَما وَجَدْتُ مَعي مَبْلَغاً كَبيراً . وَكَتَبْتُ بِإتْقانٍ التَّحْقيقَ الصَحَفِيَّ المَطْلوبَ ، وَقوبِلَ بِالإعْجابِ . ثُمَّ تَرَكْتُ الأَمْرَ وَلَمْ أَعُدْ أُفَكِّرُ فيهِ .

« وَذاتَ يَوْمٍ وَقَّعْتُ بِإمْضائي عَلى وَرَقَةٍ ، أَضْمَنُ فيها صَديقاً لي اسْتَدانَ خَمْسَةً وَعِشْرينَ جُنَيْهاً ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ سَدادَ هذا الدَّيْنِ ، فَأَصْبَحْتُ في مَوْقِفٍ حَرِجٍ . وَفَجْأَةً طَرَأَتْ لي فِكْرَةٌ غَريبَةٌ

تُمَكّنني مِنْ سَدادِ هذا المَبْلَغِ ، فَطَلَبْتُ مِنَ الصَّحيفَةِ إجازَةً لِمُدَّةِ أُسْبوعَيْنِ أَمْضَيْتُها جالِساً في مَكاني ، أَتسَوَّلُ بِالطَّريقَةِ الَّتي مارَسْتُها مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ يَمْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَشَرَةِ أَيّامٍ حَتّى جَمَعْتُ أَكْثَرَ مِنَ المَبْلَغِ المَطْلوبِ ، وَسَدَّدْتُ الدَّيْنَ .

« وَكانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيَّ أَنْ أَعودَ مَرَّةً أُخْرى إلى عَمَلي الشّاقِّ بِالصَّحيفَةِ ، مُقابِلَ جُنَيْهَيْنِ أُسْبوعِيًّا ، في الوَقْتِ الَّذي أَسْتَطيعُ فيهِ أَنْ أَجْمَعَ هذا المَبْلَغَ في يَوْمٍ واحِدٍ ، وَلَمْ يَكُنِ الأَمْرُ يَتَطَلَّبُ مِنّي أَكْثَرَ مِنْ أَنْ أُغَيِّرَ مَلامِحي ، وَ أَرْتَدِيَ مَلابِسَ قَذِرَةً ، وَأَضَعَ بِجِواري قُبَّعَةً رَثَّةً . وَكانَ في هذا مَساسٌ بِكِبْرِيائي ، وَلكِنّي في النِّهايَةِ تَغَلَّبْتُ عَلى نَفْسي ، وَتَرَكْتُ عَمَلي بِالصَّحيفَةِ ، وَاتَّخَذْتُ مَكاني بِالنّاصِيَةِ الَّتي كُنتُ أَجْلِسُ عِنْدَها . وَقَدِ اسْتَدَرَّ مَظْهَري البائِسُ عَطْفَ النّاسِ ، وَ سَرْعانَ ما امْتَلأَتْ جُيوبي بِالنُّقودِ. وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ سِرّي هذا سِوى رَجُلٍ واحِدٍ في لَنْدَن ، هُوَ ذلِكَ البَحّارُ الهِنْدِيُّ صاحِبُ حانَةِ الذَّهَبِ في شارِعِ سُوانْدام ، حَيْثُ كُنْتُ أُغَيِّرُ مَلامِحي كُلَّ صَباحٍ في تِلْكَ الحانَةِ ، وَ أَعودُ إلَيْها في المَساءِ لِكَيْ أَخْلَعَ مَلابِسَ التَّسَوُّلِ ، وَكانَ ذلِكَ نَظيرَ أَجْرٍ أَدْفَعُهُ إلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَكُنْتُ موقِناً مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ لَنْ يَبوحَ بِسِرّي ، لأَنَّ المَنْفَعَةَ بَيْنَنا مُشْتَرَكَةٌ .

« وَكانَتْ لَباقَتي في الحَديثِ قَدْ جَعَلَتْ مِنّي شَخْصِيَّةً مَحْبوبَةً . وَأَخَذَتِ النُّقودُ تَتَدَفَّقُ عَلى قُبَّعَتي مِنْ رِجالِ الأَعْمالِ ، الَّذينَ يَمُرّونَ بي ، حَتّى أَصْبَحْتُ رَجُلاً ثَرِيّاً ، فَاشْتَرَيْتُ بَيْتاً كَبيراً في الرّيفِ ، وَأَصْهَرْتُ إِلى أُسْرَةٍ مُحْتَرَمَةٍ . وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْرِفُ المَصْدَرَ الحَقيقِيَّ لأَمْوالي ، أَمّا زَوْجَتي فَكانَتْ تَعْلَمُ أَنّي أُديرُ عَمَلاً خاصّاً في لَنْدَن ، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ طَبيعَةَ هذا العَمَلِ .»

سَكَتَ الرَّجُلُ قَليلاً لِكَيْ يَسْتَريحَ ، ثُمَّ عادَ يَقولُ : « حَدَثَ مَساءَ يَوْمِ الاثْنَيْنِ الماضي ، عِنْدَما كُنْتُ أَقومُ بِتَغْييرِ مَلابِسي وَ مَلامِحي في الحانَةِ ، أَنْ رَأَيْتُ زَوْجَتي فَجْأَةً بِالطَّريقِ تَنْظُرُ إِلَيَّ في دَهْشَةٍ ، فَسَبَّبَ لي ذلِكَ إِزْعاجاً شَديداً ، فَصَرَخْتُ مِنْ حَرَجِ المَوْقِفِ وَأَخْفَيْتُ وَجْهي بِيَدَيَّ ، وَ هُرِعْتُ إِلى أَسْفَلِ المَبْنى ، لِكَيْ أَطْلُبَ مِنْ صاحِبِ الحانَةِ ، أَنْ يَمْنَعَ أَيَّ شَخْصٍ مِنَ الصُّعودِ إِلى الطابَقِ العُلْوِيِّ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلى غُرْفَتي ، وَخَلَعْتُ مَلابِسي وَارْتَدَيْتُ مَلابِسَ التَّسَوُّلِ مِنْ جَديدٍ ، وَلَكِنّي سَمِعْتُ صَوْتَ زَوْجَتي تَتَحَدَّثُ ؛ فَأَسْرَعْتُ بِتَغْييرِ مَلامِحِ وَجْهي ، وَ تَوَقَّعْتُ أَنْ تُبْلِغَ الأَمْرَ لِلشُّرْطَةِ . وَكُنْتُ أَتَمَنّى أَنْ لا يَعْثُرَ أَحَدٌ عَلى مَلابِسي الأَصْلِيَّةِ ؛ فَمَلأْتُ الجُيوبَ بِقِطَعِ النُّقودِ ، وَفَتَحْتُ النّافِذَةَ . وَكانَتْ لي أُصْبُعٌ مَجْروحَةٌ عادَتْ تَنْزِفُ مِنْ جَديدٍ ، فَتَناثَرَ الدَّمُ عَلى أَرْضِ الحُجْرَةِ

وَنافِذَتِها . وَأَلْقَيْتُ بِالمِعْطَفِ في النَّهْرِ فَغاصَ في الماءِ ، وَكُنْتُ أوشِكُ أنْ أَقْذِفَ بِباقي المَلابِسِ ، بَيْدَ أَنّي سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامِ رِجالِ الشُّرْطَةِ ، وَهُمْ يَصْعَدونَ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ ، يَبْحَثونَ عَنْ نيفِيل سانْت كلير ، فَلَمْ يَجِدوا أمامَهُمْ سِوى بون ، ذَلِكَ المُتَسَوِّلِ المَعْروفِ في لَنْدَن ، فَأَلْقَوُا القَبْضَ عَلَيَّ بِتُهْمَةِ قَتْلِ زَوْجِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ ؛ أيْ بِقَتْلِ نَفْسي ! وَمَعَ هذا كُنْتُ سَعيداً ، لأنَّ أَحَداً لَمْ يَعْرِفْ حَقيقَةَ أَمْري !»

وَصَمَتَ هُنَيْهَةً ثُمَّ مَضى يَقولُ : « كُنْتُ مُصَمِّماً على أنْ لا يَعْرِفَني أحَدٌ ، فَفَضَّلْتُ أنْ أَظَلَّ مُرْتَدِياً مَلابِسَ التَّسَوُّلِ ، وَكُنْتُ موقِناً مِنْ أنَّ زَوْجَتي سَوْفَ تَقْلَقُ لِغِيابي ، فَخَلَعْتُ خاتَمي وَكَتَبْتُ لَها رِسالَةً ، وَ أَعْطَيْتُهُما لِصاحِبِ الحانَةِ لِتَوْصيلِهِما إِلَيْها .»

قاطَعَهُ هُولْمز قائِلاً : « إنَّ زَوْجَتَكَ لَمْ تَتَسَلَّمْ هَذِهِ الرِّسالَةَ غَيْرَ أَمْسِ .»

وَ أَسِفَ الرَّجُلُ لِما سَبَّبَهُ لِزَوْجَتِهِ مِنْ مَتاعِبَ .

قالَ الضّابِطُ : « إنَّ رِجالَ الشُّرْطَةِ كانوا يُراقِبونَ صاحِبَ الحانَةِ ، وَ يَبْدو أَنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ إِرْسالِ الخِطابِ إلّا بِالأَمْسِ .» ثُمَّ اتَّجَهَ إلى سانْت كلير قائِلاً : « إنَّ حَياةَ التَّسَوُّلِ الّتي تَعيشُها يَجِبُ أَنْ تَتَوَقَّفَ

الآنَ ، وَ إلّا فَإنّنا سَوْفَ نُبْلِغُ الصُّحُفَ بِتَفاصيلِ هذِهِ القِصّةِ !»

ثُمَّ نَظَرَ إلى هُولمز قائِلاً : « إنَّكَ ، يا سَيِّدي ، قَدْ أَرَحْتَ الشُّرْطَةَ مِنْ عَناءِ البَحْثِ عَنْ تَفْسيرٍ لِهذِهِ القِصَّةِ العَجيبَةِ ، وَ لَكَ مِنّا جَزيلُ الشُّكْرِ عَلى الطَّريقَةِ النّاجِحَةِ الّتي تَوَصَّلْتَ بِها لِحَلِّ هَذا اللُّغْزِ .»

قالَ هُولمز : « إنَّ هَذا لَمْ يُكَلِّفْني كَثيراً مِنَ العَناءِ ، فَقَدْ أَدْرَكْتُ كُلَّ شَيْءٍ حينَما كُنْتُ جالِساً ، مُسْتَنِداً إلى الوَسائِدِ أُدَخِّنُ الغَلْيونَ طَوالَ اللَّيْلِ !» وَ نَظَرَ إلَيَّ وَ قالَ : « أَعْتَقِدُ أَنَّنا لَوْ أَخَذْنا العَرَبَةَ الآنَ ، يا صَديقي واطْسُن ، وَ تَوَجَّهْنا إلى بَيْتي فَإنَّنا سَنَصِلُ في وَقْتٍ مُناسِبٍ لِتَناوُلِ طَعامِ الإفْطارِ .»

إصْبَعُ المُهَنْدِس

إنَّ ما حَدَثَ لإصْبَع ِ المُهَنْدِس ِ هَذَرْلي في صَيْفِ عام ِ ١٨٨٩ يُعَدُّ أمْراً مُثيراً لِلْغايَةِ ، وَكُنْتُ آنذاكَ في بِدايَةِ عَمَلي كَطَبيبٍ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ مَضى عَلى زَواجي زَمَنٌ طَويلٌ . وَكُنْتُ أسْكُنُ في مَنْزِلٍ لا يَبْعُدُ كَثيراً عَنْ مَحَطَّةِ سِكَّةِ حَديدِ بادِنْغتون . وكانَ يَتَرَدَّدُ عَلَيَّ عُمّالُ تِلْكَ المَحَطَّةِ لِعِلاجِهِمْ ، وَكانَ مِنْ بَيْنِهِمْ حارِسٌ يَثِقُ كَثيراً بِمَهارَتي ؛ لِذلِكَ كانَ يَعْمَلُ عَلى إقْناع المَرْضى الَّذينَ يُصادِفُهُمْ بِزِيارَتي .

وَذاتَ صَباح ٍ أبْلَغَتْني الخادِمَةُ بِأنَّ اثْنَيْن مِنْ عُمّالِ المَحَطَّةِ في انْتِظاري بِمَكْتَبي ؛ فَارْتَدَيْتُ مَلابِسي عَلى عَجَل وَأسْرَعْتُ لِمُقابَلَتِهِما ، فَرَأَيْتُ الحارِسَ يُغْلِقُ البابَ عَلى صاحِبِهِ وَيَتَقَدَّمُ نَحْوي مُبْتَسِماً ، وَهُوَ يَقولُ : « لَقَدْ جِئْتُ إلَيْكَ بِمَريض ٍ جَديدٍ » ، وَقَدْ

حَرَصْتُ عَلى أن لا يُفْلِتَ مِنْ يَدي ، فَجِئتُ بِهِ فَوْراً .» وَقَبْلَ أنْ أوَجِّهَ الشُّكْرَ لَهُ غادَرَ البَيْتَ مُتَعَلِّلاً بِكَثْرَةِ أعْمالِهِ .

فَتَحْتُ بابَ الغُرْفَةِ فَوَجَدْتُ شاباً في نَحْوِ الخامِسَةِ وَ العِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ ، جالِساً بِجِوارِ مَكْتَبي ، وَقَدْ خَلَعَ قُبَّعَتَهُ وَ وَضَعَها بِجِوارِهِ ، وَكانَتْ إحْدى يَدَيْهِ مَلْفوفَةً في مِنْديلٍ مُلَطَّخٍ بِالدَّمِ ، وَكانَ شاحِبَ الوَجْهِ ، في حالَةٍ شَديدَةٍ مِنَ الإعْياءِ ، وَلكِنَّهُ لَمّا رَآني نَهَضَ لِتَحِيَّتي وَقالَ : « آسِفٌ لإزْعاجِكَ في تِلْكَ السّاعَةِ المُبَكِّرَةِ ، وَلكِنّي مُضْطَرٌّ لِذلِكَ ، فَقَدْ وَقَعَ لي حادِثٌ في اللَّيْلِ ، وَكُنْتُ بَعيداً عَنْ لَنْدَن فَفَضَّلْتُ العَوْدَةَ لِلْعِلاجِ .» فَطَلَبْتُ مِنْهُ أنْ يَجْلِسَ لِيَسْتَريحَ ، ثُمَّ يَقُصَّ قِصَّتَهُ ، فَقالَ : « عُدْتُ إلى لَنْدَن بِقِطارِ الصَّباحِ ، وَ في مَحَطَّةِ بادِنْغتون سَأَلْتُ عَنْ طَبيبٍ قَريبٍ فَاصْطَحَبَني ذلِكَ العامِلُ إلَيْكَ مُتَفَضِّلاً .» ثُمَّ أخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ بِطاقَةً عَرَفْتُ مِنْها أنَّ اسْمَهُ فِيكْتور هَذَرْلي ، وَ يَعْمَلُ مُهَنْدِساً لِلطّاقَةِ المائِيَّةِ ، وَمَكْتَبُهُ بِالمَنْزِلِ رَقْم ١٦ بِشارِعِ فِيكْتوريا . وَحاوَلَ الرَّجُلُ أنْ يُواصِلَ كَلامَهُ ، وَلكِنّي لاحَظْتُ أنَّهُ في حالَةِ إعْياءٍ شَديدَةٍ ؛ فَأَعْطَيْتُهُ كَأْساً مِنَ العَصيرِ . وَخَلَعْتُ المِنْديلَ عَنْ يَدِهِ ، فَرَأَيْتُ مَنْظَراً تَقْشَعِرُّ لَهُ الأبْدانُ ؛ فَقَدِ انْفَصَلَتْ إبْهامُهُ عَنْ يَدِهِ ، وَظَهَرَ الجُرْحُ عَميقاً تَسيلُ مِنْهُ الدِّماءُ .

سَأَلْتُهُ عَمّا حَدَثَ ، فَقالَ وَهُوَ يَكْتُمُ آلامَهُ : « إنَّ إصْبَعي قَدْ

قُطِعَتْ بِضَرْبَةِ فَأسٍ مِنْ شَخْصٍ حاوَلَ أنْ يَقْتُلَني .»

وَرَأَيْتُ أنْ يُؤَجِّلَ حَديثَهُ حَتّى أنْتَهِيَ مِنْ عِلاجِهِ . وَقُمْتُ لأحْضِرَ ما يَلْزَمُهُ مِنْ دَواءٍ وَمُطَهِّرٍ لِتَضْميدِ جُرْحِهِ ، وَشَدَدْتُ يَدَهُ بِرِباطٍ طِبِّيٍّ مُحْكَمٍ .

اسْتَسْلَمَ الشّابُّ حتّى أنْهَيْتُ عَمَلي ، ثُمَّ قالَ : « إنّي أفَضِّلُ أنْ أبْلِغَ الشُّرْطَةَ بِما حَدَثَ وَأنا في هذِهِ الحالَةِ حتّى يَثِقوا بِكَلامي ، فَأنا لا أمْلِكُ دَليلاً سِوى هَذِهِ الأصْبَعِ المَقْطوعَةِ .»

قُلْتُ : « أنْصَحُكَ بِأنْ تُقابِلَ صَديقي شِرْلوك هُولْمز ، قَبْلَ تَبْليغِ الشُّرْطَةِ .»

قالَ : « هذا رَأيٌ صائِبٌ ، فَإنّي أعْلَمُ أنَّ هُولْمز قادِرٌ عَلى اقْتِفاءِ أثَرِ المُجْرِمينَ .» وَطَلَبَ مِنّي راجِياً أنْ أرافِقَهُ إلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : « هيّا نُسْرِعْ لِمُقابَلَتِهِ في مَنْزِلِهِ .»

اسْتَأذَنْتُ زَوْجَتي في الخُروجِ ، وَرَكِبْنا العَرَبَةَ الّتي أسْرَعَتْ بِنا إلى شارِعِ بيكَر ، حَيْثُ يوجَدُ بَيْتُ صَديقي هُولْمز . وَ بَعْدَ قَليلٍ وَصَلْنا بَيْتَهُ فَوَجَدْناهُ جالِساً يُدَخِّنُ غَلْيونَهُ ، وَيَتَصَفَّحُ إحْدى صُحُفِ الصَّباحِ ، فَرَحَّبَ بِنا وَدَعانا لِتَناوُلِ طَعامِ الإفْطارِ مَعَهُ . وَبَعْدَ إفْطارِنا



أبْلَغْتُهُ بِأنَّ هَذَرْلي يَوَدُّ أنْ يَقُصَّ عَلَيْهِ ما حَدَثَ لَهُ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، فَأبْدى هُولْمز اسْتِعْدادَهُ لِذلِكَ ، وَ طَلَبَ إلَيْهِ أنْ يَقُصَّ كُلَّ شَيْءٍ بِالتَّفْصيلِ ، ثُمَّ وَضَعَ بِجِوارِهِ كوباً مِنَ العَصيرِ ؛ لِكَيْ يَشْرَبَ مِنْهُ كُلَّما أحَسَّ بِالتَّعَبِ ، فَشَكَرَهُ الشّابُّ على كَرَمِهِ ، وَبَدَأ يَتَكَلَّمُ .

قالَ : « أنا مُهَنْدِسٌ لِلطّاقَةِ المائِيَّةِ ، أعيشُ بِمُفْرَدي في لَنْدَن ، عَمِلْتُ في بَعْضِ الشَّرِكاتِ . وَبَعْدَ وَفاةِ والِدَيَّ وَرِثْتُ مَبْلَغاً مِنَ المالِ ، وَفَضَّلْتُ أنْ أزاوِلَ بَعْضَ الأعْمالِ الحُرَّةِ ، وَاتَّخَذْتُ لي مَكْتَباً في شارِعِ فيكْتوريا . وَمَضى وَقْتٌ طَويلٌ وَلَمْ يَتَرَدَّدْ عَلى المَكْتَبِ إلّا عَدَدٌ قليلٌ مِنَ العُمَلاءِ ؛ فَبَدَأْتُ أشْعُرُ بِاليَأْسِ . وَأَمْسِ حَضَرَ رَجُلٌ يُريدُ مُقابَلَتي ، وَعَرَفْتُ مِنْ بِطاقَتِهِ أنَّ اسْمَهُ الكابْتِن لايْسانْدر ستارْك ، فَطَلَبْتُ مِنْ مُساعِدي أنْ يُدْخِلَهُ فَوَجَدْتُهُ في نَحْوِ الأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ ، طويلَ القامَةِ ، نَحيلَ الجِسْمِ ، لَهُ عَيْنانِ بَرّاقَتانِ . بادَرَني الرَّجُلُ فَوْرَ دُخولِهِ بِذِكْرِ اسْمي ، وَقالَ إنَّهُ يَعْلَمُ أنَّني مُهَنْدِسٌ ماهِرٌ قادِرٌ عَلى كِتْمانِ السِّرِّ ، لأنَّني عَزَبٌ وَ أعيشُ بِمُفْرَدي .

« تَعَجَّبْتُ لِحَديثِهِ وَسَأَلْتُهُ : « ما عَلاقَةُ هذا بِالمَوْضوعِ الّذي جِئْتَ مِنْ أجْلِهِ ؟!»

« أجابَ : « أنا في حاجَةٍ إلى مُهَنْدِسٍ يَكْتُمُ السِّرَّ ، وَ أعْتَقِدُ أنَّكَ قادِرٌ عَلى ذلِكَ .» فَشَكَرْتُهُ عَلى حُسْنِ ظَنِّهِ وَ تَعَهَّدْتُ لَهُ بِأنْ لا أبوحَ لأحَدٍ بِشَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ . عِنْدَئِذٍ اقْتَرَبَ الرَّجُلُ مِنّي ، وَ أخَذَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أنَّ أحَداً لا يَتَنَصَّتُ عَلَيْنا ، ثُمَّ قالَ : « هَلْ يَكْفيكَ خَمْسونَ جُنَيْهاً مُقابِلَ عَمَلِكَ لَيْلَةً واحِدَةً .» وَفَرِحْتُ بِهذا العَرْضِ السَّخِيِّ وَ وافَقْتُ عَلَيْهِ .

« وَأضافَ ستارْك : « إنَّ العَمَلَ لَنْ يَسْتَغْرِقَ أكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ واحِدَةٍ . وَالمَطْلوبُ مِنْكَ فَحْصُ مِكْبَس يَعْمَلُ بِقُوَّةِ المِياه ، وَ تُرْشِدُنا إلى أسْبابِ ما بِهِ مِنْ عُطْلٍ حَتّى نَتَمَكَّنَ مِنْ إصْلاحِهِ .»

« قُلْتُ : « هذا أمْرٌ سَهْلٌ . » وَ طَلَبَ مِنّي أنْ ألْحَقَ بِآخِرِ قِطارٍ مُتَّجِهٍ إلى قَرْيَةِ إيفورْد ، وَ سَيَكونُ بِانْتِظاري لاصْطِحابي إلى مَكانِ المِكْبَسِ . وَعَرَّفَني أنَّ هذِهِ القَرْيَةَ الصَّغيرَةَ لا تَبْعُدُ أكْثَرَ مِنْ عَشَرَةِ كيلو مِتْراتٍ عَنْ مَدينَةِ ريدِنْغ . وَسَألْتُهُ : « هَلْ يَبْعُدُ المَكانُ كَثيراً عَنْ مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الحَديدِيَّةِ ؟»

« أجابَ : « إنَّ بَيْتَنا مَوْجودٌ في مِنْطَقَةٍ ريفِيَّةٍ تَبْعُدُ عَنِ المَحَطَّةِ حَوالى عَشَرَةِ كيلو مِتْراتٍ .»

« قُلْتُ : « مَعْنى هذا أنّني سَوْفَ أمْضي اللَّيْلَ مَعَكُمْ لِتَعَذُّرِ عَوْدَتي بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ .»

« قالَ : « مِنَ السَّهْلِ تَيْسيرُ مَكانٍ لِنَوْمِكَ ، وَ هذا ما عَرَضْتُهُ عَلَيْكَ ، وَ لَكَ مُطْلَقُ الحُرِّيَّةِ في قَبولِهِ أوْ رَفْضِهِ .»

« وَأخْبَرْتُهُ بِأنّني قَدْ قَبِلْتُ عَرْضَهُ ، وَ طَلَبْتُ إلَيْهِ أنْ يَصِفَ المِكْبَسَ وَ الأعْمالَ الّتي يُسْتَخْدَمُ فيها .

« قالَ : « مُنْذُ بِضْعِ سَنَواتٍ اشْتَرَيْتُ بَيْتاً وَ قِطْعَةَ أَرْضٍ ، يَبْعُدان حَوالى سِتَّةَ عَشَرَ كيلو مِتْراً عَنْ مَدينَةِ رِيدِنْغ . وَ قَدِ اكْتَشَفْتُ أَنَّ تُرْبَةَ أَحَدِ حُقولي تَحْتَوي عَلى تُرابِ القَصّار ؛ أيْ تُرابِ التَّنْظيفِ ، وَ لِسوءِ حَظِّي كانَ المَوْجودُ مِنْهُ في أَرْضي قَليلاً بِالنِّسْبَةِ لِلْمَوْجودِ في الحُقولِ المُجاوِرَة . وَكانَ جيراني يَجْهَلونَ أَنَّهُمْ يَمْتَلِكونَ مَصْدَراً كَبيراً لِلثَّراءِ يَفوقُ مَنْجَمَ ذَهَبٍ ، لِذلِكَ فَكَّرْتُ في شِراءِ هذِهِ الأَرْضِ . وَأَشارَ عَلَيَّ بَعْضُ أَصْدِقائي بِاسْتِخْلاصِ هذا التُّرابِ مِنْ أَرْضي ثُمَّ بَيْعِهِ لأَحْصُلَ عَلى المالِ المَطْلوبِ . وَقَدْ بَدَأْنا العَمَلَ سِرًّا مُسْتَخْدِمينَ آلاتٍ مُخْتَلِفَةً ، مِنْ بَيْنِها مِكْبَسٌ يَعْمَلُ بِقُوَّةِ المِياهِ، وَهُوَ المِكْبَسُ الَّذي أُريدُ إِصْلاحَهُ .»

« وَخَتَمَ كَلامَهُ قائِلاً : « هذا هُوَ السِّرُّ الَّذي أَطْلُبُ مِنْكَ كِتْمانَهُ ؛ حَتّى لا يَتَسَرَّبَ إِلى جيرانِنا فَتَفْشَلَ خُطَّتُنا .»

« سَأَلْتُ ضَيْفي أَنْ يُوَضِّحَ العَلاقَةَ بَيْنَ المِكْبَسِ وَ عَمَلِيَّةِ الحَفْرِ اللازِمَةِ لاِسْتِخْراجِ التُّرابِ مِنَ الأَرْضِ ، فَقالَ : « إِنَّنا نَسْتَخْدِمُ هذا المِكْبَسَ لِتَحْويلِ التُّرابِ إِلى قَوالِبَ مَضْغوطَةٍ ؛ حَتّى نَتَمَكَّنَ مِنْ نَقْلِهِ دونَ أَنْ يَعْرِفَ الجيرانُ حَقيقَتَها . » ثُمَّ غادَرَ المَكْتَبَ وَهُوَ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ سَوْفَ يَنْتَظِرُني حَوالى السّاعَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ مَساءً ، في المَكانِ الَّذي ذَكَرَهُ لي .

« لمّا خرَجَ الكابْتِن ستارْك أخَذْتُ أفَكِّرُ في كَلامِهِ وَمَدى صِدْقِهِ ، وَ تَعَجَّبْتُ مِنْ إصْرارِهِ عَلى أنْ أكْتُمَ سِرَّهُ ، غَيْرَ أنّي في النِّهايَةِ وَجَدْتُ أنَّ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ لا أضَيِّعَ المَبْلَغَ الّذي وَعَدَني بِهِ ، فَطَرَحْتُ الهَواجِسَ جانِباً وَ تَناوَلْتُ طَعامَ العَشاءِ ، ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إلى مَحَطَّةِ بادِنْغتون في طَريقي إلى إيفورْد ، فَوَصَلْتُ بَعْدَ الحادِيَةَ عَشْرَةَ بِقَليلٍ . وَلَمْ يَكُنْ بِالقِطارِ غَيْري ، وَلَمْ أجِدْ أحَداً إلّا عامِلَ المَحَطَّةِ ، وَكانَ يَبْدو عَلَيْهِ النُّعاسُ . وَحينَما خَرَجْتُ وَجَدْتُ الكابِتْن ستارْك في انْتِظاري ، فَأمْسَكَني مِنْ يَدي وَدَفَعَني إلى عَرَبَةٍ نَوافِذُها مُغْلَقَةٌ ، ثُمَّ أشارَ إلى السّائِقِ بِالانْطِلاقِ ...»

سَألَهُ هُولْمز مُقاطِعاً : « هَلْ كانَ يَجُرُّ العَرَبَةَ حِصانٌ واحِدٌ ؟»

أجابَ : « أجَلْ .»

سَألَهُ : « أ كانَ مُتْعَباً ؟»

أجابَ : « لا ، لَقَدْ كانَ الحِصانُ في غايَةِ النَّشاطِ .»

وَتابَعَ هَذَرْلي قِصَّتَهُ قائِلاً : « سارَتِ العَرَبَةُ مُسْرِعَةً ما يَقْرُبُ مِنَ السّاعَةِ ، وَكُنّا طَوالَ الرِّحْلَةِ صامِتَيْنِ ، وَكانَ زُجاجُ العَرَبَةِ قاتِمَ اللَّوْنِ فَلَمْ أشاهِدْ شَيْئاً مِنَ الطَّريقِ . وَمَضى الوَقْتُ بَطيئاً مُمِلًّا إلى

أنْ تَوَقَّفَتِ العَرَبَةُ فَأَدْرَكْتُ أَنَّنا قَدْ وَصَلْنا إلى البَيْتِ ، وَنَزَلَ الكابْتِن ستارْك مُسْرِعاً فَتَبِعْتُهُ ، ثُمَّ دَفَعَني إلى داخِلِ البَيْتِ وَأَغْلَقَ البابَ خَلْفَنا بِإِحْكامٍ . وَكانَ الظَّلامُ حالِكاً فَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ ثِقابٍ ، وَلكِنّي رَأَيْتُ ضَوْءاً خافِتاً يَقْتَرِبُ مِنّا ، وَ إذا بِفَتاةٍ جَميلَةٍ تَحْمِلُ مِصْباحاً في يَدِها ، فَأَخَذَهُ مِنْها وَ أَمَرَها بِأَنْ تَنْصَرِفَ ، ثُمَّ قادَني إلى غُرْفَةٍ وَطَلَبَ إلَيَّ أَنْ أَنْتَظِرَهُ بِضْعَ دَقائِقَ ، ثُمَّ مَضى في الظَّلامِ .

« كانَتِ الغُرْفَةُ صَغيرَةً تَتَوَسَّطُها مِنْضَدَةٌ مُسْتَديرَةٌ ، تَناثَرَتْ فَوْقَها بَعْضُ الكُتُبِ الأَلْمانِيَّةِ ، فَأَخَذْتُ أَتَصَفَّحُها ، وَعَرَفْتُ أَنَّ مِنْ بَيْنِها كِتابَيْنِ عَنْ مَوْضوعاتٍ عِلْمِيَّةٍ ، رَغْمَ أَنَّني لا أَعْرِفُ الأَلْمانِيَّةَ .

« وَحاوَلْتُ أَنْ أَنْظُرَ إلى خارِجِ المَبْنى وَلكِنّي لَمْ أَسْتَطِعْ ؛ إذْ كانَتِ النَّوافِذُ مُغْلَقَةً بِأَنْ ثُبِّتَتْ عَلَيْها أَلْواحٌ مِنَ الخَشَبِ السَّميكِ ؛ فَبَدَأَ القَلَقُ يُساوِرُني بِسَبَبِ الصَّمْتِ الرَّهيبِ الَّذي يُخَيِّمُ عَلى هَذا المَكانِ الرّيفِيِّ المُنْعَزِلِ ، وَحاوَلْتُ أَنْ أُسَرِّيَ عَنْ نَفْسي بِالتَّفْكيرِ في المَبْلَغِ الَّذي سَوْفَ أَتَقاضاهُ .

« وَبَعْدَ بُرْهَةٍ رَأَيْتُ البابَ يُفْتَحُ بِبُطْءٍ دونَ صَوْتٍ ، وَشاهَدْتُ الفَتاةَ واقِفَةً وَقَدِ انْعَكَسَ عَلى وَجْهِها الجَميلِ ضَوْءٌ خافِتٌ مِنَ المِصْباحِ . وَكانَتْ تَتَلَفَّتُ حَوْلَها في قَلَقٍ وَخَوْفٍ ، وَلَمّا رَأَتْني قالَتْ

هامِسَةً : « اُخْرُجْ مِنْ هُنا بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أنْ يُصيبَكَ أذًى!» فَأخْبَرْتُها بِأنّني أنْجِزُ المُهِمَّةَ الّتي جِئْتُ مِنْ أجْلِها ، فَقالَتْ مُتَوَسِّلَةً : « أرْجوكَ أنْ تَخْرُجَ الآنَ قَبْلَ أنْ يَراكَ أحَدٌ ، فإنَّكَ لَنْ تَكْسِبَ شَيْئًا مِنْ وُجودِكَ هُنا ؟!» وَلكِنَّني نَظَرْتُ إلَيْها مُبْتَسِماً في غَيْرِ اكْتِراثٍ ، فَحاوَلَتْ إقْناعي مَرَّةً أخْرى بِالخُروجِ قَبْلَ فَواتِ الأوانِ . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَبيعَتي الهَرَبُ مِنَ المَتاعِبِ ، فَفَضَّلْتُ التَّرَيُّثَ رَغْمَ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ حَوْلي كانَ يُثيرُ القَلَقَ ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ بابٍ يُغْلَقُ في الطّابَقِ العُلْوِيِّ ، ثُمَّ تَبِعَهُ وَقْعُ أقْدامٍ عَلى الدَّرَجِ ، فَهَزَّتِ الفَتاةُ يَدَيْها في يَأْسٍ وَ تَرَكَتْني وَ اخْتَفَتْ في الظَّلامِ .

« دَخَلَ الكابْتِن ستارْك الغُرْفَةَ بِصُحْبَةِ رَجُلٍ بَدينٍ قَصيرٍ تَتَدَلّى مِنْ وَجْهِهِ لِحْيَةٌ صَغيرَةٌ ، قَدَّمَهُ إلَيَّ قائِلاً: « هذا هُوَ السَّيِّدُ فيرغسُون مُديرُ أعْمالي . لَقَدْ سَمِعْتُ هذا البابَ يُغْلَقُ مُنْذُ لَحْظَةٍ !»

« قُلْتُ : « لَقَدْ فَتَحْتُهُ لأتَنَسَّمَ بَعْضَ الهَواءِ .» وَأخْبَرَني بِأنَّهُ سَيَصْحَبُني إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ لِفَحْصِ المِكْبَسِ . وَ لَمّا رَآني مُتَعَجِّباً لِوُجودِهِ داخِلَ المَبْنى قالَ : « إنَّها تُحَوِّلُ التُّرابَ بِالضَّغْطِ إلى قَوالِبَ صَغيرَةٍ ، وَ لا بَأْسَ مِنْ وُجودِها في البَيْتِ .»

« وَتَوَجَّهْنا لِكَيْ نَصْعَدَ الدَّرَجَ ، وَكانَ الكابْتِن في المُقَدِّمَةِ يَحمِلُ

مِصْباحاً في يَدِهِ . وَبَدا المَبْنى القَديمُ مِنَ الدّاخِلِ مُتَّسِعاً ، يَسْهُلُ عَلى الشَّخْصِ الغَريبِ أنْ يَضِلَّ طَريقَهُ بَيْنَ مَمَرّاتِهِ الضَّيِّقَةِ ، وَأَبْوابِهِ الكَثيرَةِ المُبَعْثَرَةِ عَلى غَيْرِ انْتِظامٍ ، وَكانَتْ أَرْضُ الغُرَفِ وَالمَمَرّاتِ عارِيَةً ، والجُدْرانُ مُشَبَّعَةً بِالرُّطوبَةِ ، فَزالَتِ الأَلْوانُ مِنْ بَعْضِ أَجْزائِها .

« وَحاوَلْتُ أَنْ أَبْدُوَ هادِئاً ، وَأَخَذْتُ أَتأَمَّلُ فيرغْسُون ، وَكانَ صامِتاً طَوالَ الوَقْتِ ، وَاتَّسمَتْ حَرَكاتُهُ بِالعَصَبِيَّةِ ، وَلكِنّي أَيْقَنْتُ مِنْ لَهْجَتِهِ أَنَّهُ مُواطِنٌ إِنْجليزِيٌّ . وَتَوَقَّفَ سَيْرُنا أَمامَ بابِ حُجْرَةٍ مُنْخَفِضٍ قَليلاً عَنْ مُسْتَوى أَبْوابِ الحُجُراتِ الأُخْرى ، وَفَتَحَ فيرغْسُون البابَ ، وَنَظَرْتُ إِلى الدّاخِلِ فَوَجَدْتُ المَكانَ ضَيِّقاً ، فَدَخَلْتُ مَعَ ستارْك ، وَبَقِيَ فيرغْسُون خارِجَ الحُجْرَةِ .

« قالَ الكابْتِن : «« نَحْنُ الآنَ داخِلَ المِكْبَسِ ، وَ إذا أَقْدَمَ أَحَدٌ عَلى تَشْغيلِهِ وَنَحْنُ هُنا ؛ فَسَيَكونُ الأَمْرُ خَطيراً عَلَيْنا ؛ حَيْثُ إِنَّ سَقْفَهُ هُوَ الجُزْءُ المُتَحَرِّكُ ، وَهُوَ يَهْبِطُ بِالتَّدْريجِ وَبِقُوَّةٍ هائِلَةٍ عَلى أَرْضِ الحُجْرَةِ المَعْدِنِيِّ . وَلا يَزالُ المِكْبَسُ يَعْمَلُ ، وَإِنْ فَقَدَ بَعْضَ قُوَّتِهِ .»» ثُمَّ رَجاني أَنْ أَقومَ بِفَحْصِهِ ثُمَّ أُعَرِّفَهُ طَريقَةَ إِصْلاحِهِ . وَأَخَذْتُ مِنْهُ المِصْباحَ وَبَدَأْتُ أَنْظُرُ إِلى أَجْزائِهِ ، وَأَدَرْتُ يَدَ المِكْبَسِ المَوْجودَةَ خارِجَ الغُرْفَةِ ، فَلَمّا دارَتْ تَبَيَّنْتُ تَسَرُّباً لِلْمِياهِ تَسَبَّبَ في

إضْعافِ الضَّغْطِ ، فَأعَدْتُ النَّظَرَ لِمَعْرِفَةِ سَبَبٍ آخَرَ ؛ فَوَجَدْتُ أحَدَ الحَواجِزِ المَطّاطِيَّةِ قَدْ تآكَلَ ، وَ لَمْ يَعُدْ قادِراً عَلى حَجْزِ المِياهِ .

« وَشَرَحْتُ لِلرَّجُلَيْنِ ما شاهَدْتُ ، وَكانا يَسْمَعانِ إلَيَّ بِانْتِباهٍ شَديدٍ . وَلكِنّي رَأَيْتُ أنْ أعيدَ فَحْصَ المِكْبَسِ ؛ لأنَّني بَدَأتُ أشُكُّ في أنَّ قِصَّةَ تُرابِ القَصّارِ أوْ تُرابِ التَّنْظيفِ حَقيقِيَّةٌ ، فَدَخَلْتُ الغُرْفَةَ مِنْ جَديدٍ فَلاحَظْتُ أنَّ الجُدْرانَ قَدْ صُنِعَتْ مِنَ الخَشَبِ ، أمّا الأرْضُ فَكانَتْ حَوْضاً حَديدِيّاً مَمْلوءاً بِطَبَقَةٍ مِنْ مَسْحوقِ أحَدِ المَعادِنِ . وَعِنْدَئِذٍ سَمِعْتُ ألْفاظَ غَضَبٍ بِالألْمانِيَّةِ خارِجَ الحُجْرَةِ ، وَرَأيْتُ الكابْتِن أمامي وَالشَّرَرُ يَتَطايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَسَألَني : « لِماذا دَخَلْتَ المِكْبَسَ مَرَّةً ثانِيَةً ، أيُّها الرَّجُلُ ؟! وَماذا تَفْعَلُ هُنا ؟»

« قُلْتُ وَ قَدْ تَحَقَّقَ صِدْقُ ما كُنْتُ أشُكُّ فيهِ : « كانَ يَنْبَغي أنْ تَذْكُرَ لي حَقيقَةَ العَمَلِ الَّذي يُؤَدّيهِ المِكْبَسُ ، قَبْلَ أنْ أفْحَصَهُ .»

« وَما أنْ فَرَغْتُ مِنْ كَلامي حَتّى رَأيْتُ سَوْرَةَ الغَضَبِ تُشِعُّ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَقالَ مُتَهَكِّماً : « سَأُريكَ كُلَّ شَيْءٍ !» وَأسْرَعَ إلى الخارِجِ، وَأحْكَمَ غَلْقَ البابِ بِالمِفْتاحِ ، وَتَرَكَني وَحيداً داخِلَ المِكْبَسِ ، فَأصابَنِي الهَلَعُ وَ أخَذْتُ أصيحُ طالِباً النَّجْدَةَ دونَ جَدْوى. وَأحْسَسْتُ بِيَدٍ تُديرُ المِكْبَسَ مِنَ الخارِجِ ، وَأخَذَ صَفيرُ المِياهِ يَرِنُّ في

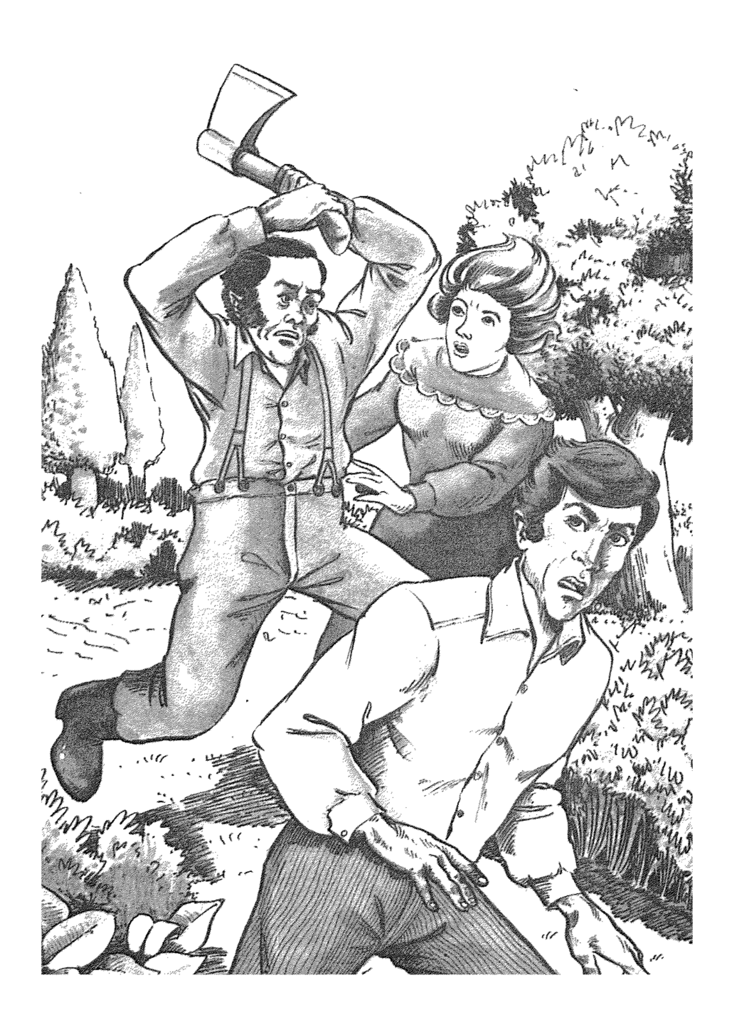
أُذُنَيَّ حَتّى تَسَمَّرْتُ في مَكاني مِنَ الخَوْفِ ، وَأَدْرَكْتُ أَنّي هالِكٌ لا مَحالَةَ ! وَكانَ المِصْباحُ لا يَزالُ مَوْضوعاً عَلى الأَرْضِ ، فَنَظَرْتُ إِلى أَعْلى فَوَجَدْتُ السَّقْفَ يَتَحَرَّكُ هابِطاً إِلى أَسْفَلُ شَيْئاً فَشَيْئاً ، فَتَشَبَّثْتُ بِالبابِ مُحاوِلاً فَتْحَهُ ، وَلكِنَّهُ كانَ مُحْكَمَ الغَلْقِ . وَأَخَذْتُ أَصيحُ مُتَوَسِّلاً أَنْ يُنْقِذوني مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ ، وَلكِنَّ صَوْتي كانَ يَتَلاشى إِلى جانِبِ صَفيرِ المِكْبَسِ المُرْتَفِعِ . وَاقْتَرَبَ السَّقْفُ مِنْ رَأْسي ، وَأَحْسَسْتُ بِالمَوْتِ يَقْتَرِبُ مِنّي ، وَتَصَوَّرْتُ اللَّحْظَةَ الَّتي سَتُسْحَقُ فيها عِظامي وَتَتَفَتَّتُ تَحْتَ ضَغْطِ السَّقْفِ الثَّقيلِ.

وَفَجْأَةً نَظَرْتُ إِلى أَحَدِ جُدْرانِ الحُجْرَةِ فَلَمَحْتُ خَيْطاً رَقيقاً مِنْ نورٍ خافِتٍ ، يَتَسَرَّبُ بَيْنَ أَلْواحِ الجِدارِ الخَشَبِيَّةِ ، فَانْدَفَعْتُ نَحْوَهُ بِكُلِّ قُوَّتي ، وَارْتَطَمْتُ بِلَوْحِ الخَشَبِ فَانْهارَ تَحْتَ وَطْأَةِ جَسَدي ، وَأَحْدَثَ فَجْوَةً خَرَجْتُ مِنْها أَلْهَثُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ . وَبَعْدَ لَحَظاتٍ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّقْفِ يَرْتَطِمُ بِالأَرْضِ وَيَسْحَقُ تَحْتَهُ زُجاجَ المِصْباحِ. وَغِبْتُ عَنْ وَعْيِي ، ثُمَّ أَفَقْتُ عَلى يَدٍ تَهُزُّني ، وَ وَجَدْتُ أَمامي تِلْكَ الفَتاةَ الجَميلَةَ الَّتي حَذَّرَتْني مِنْ قَبْلُ وَلَمْ أَسْتَجِبْ لَها .

« قالَتْ لِيَ الفَتاةُ وَفي يَدِها المِصْباحُ : «« هَيّا أَسْرِعْ قَبْلَ أَنْ تُفْلِتَ هذِهِ الفُرْصَةُ الثَّمينَةُ مِنْ يَدِكَ !»» وَمَدَّتْ لي يَدَها لِتُعاوِنَني

عَلى الوُقوفِ ، ثُمَّ مَشَيْتُ مَعَها عَبْرَ المَمرّاتِ الضَيِّقَةِ المُتَعَرِّجَةِ ، إلى أنْ وَصَلْنا إلى بابٍ فَتَحَتْهُ بِصُعوبَةٍ ، وَدَخَلْنا غُرْفَةَ نَوْمٍ لَها نافَذَةٌ زُجاجِيَّةٌ يَتَسَرَّبُ خِلالَها نورُ القَمَرِ .

« قالَتِ الفَتاةُ : « عَلَيْكَ أنْ تَقْفِزَ مِنْ هذِهِ النّافِذَةِ لِتَنْجُوَ بِنَفْسِكَ !» وَكانَتِ النّافِذَةُ مُرْتَفِعَةً عَنِ الأَرْضِ . وَفَجْأَةً لَمَحْتُ الكابْتِن ستارْك يَتَقَدَّمُ نَحْوَنا وَقَدْ أَمْسَكَ في يَدِهِ فَأْساً ؛ فَأَسْرَعْتُ إلى النّافِذَةِ وَفَتَحْتُها ، ثُمَّ نَظَرْتُ خَلْفي فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَتَقَدَّمُ نَحْوي ، فَتَعَلَّقَتِ الفَتاةُ بِرَقَبَتِهِ تُحاوِلُ أنْ تَمْنَعَهُ مِنَ اللَّحاقِ بي ، وَسَمِعْتُها تَقولُ : « أَرْجوكَ أنْ لا تَفْعَلَ شَيْئاً ! لَقَدْ وَعَدْتَني بِذلِكَ بَعْدَ المَرَّةِ الأَخيرَةِ . وَأَنا واثِقَةٌ بِأَنَّ هذا المُهَنْدِسَ لَنْ يَبوحَ بِشَيْءٍ .» وَ سَمِعْتُ ستارْك يَقولُ لَها : « إنَّكِ مَجْنونَةٌ وَ سَتَكونينَ سَبَباً في تَحْطيمِنا !» ثُمَّ دَفَعَها جانِباً وَهُوَ يَقولُ : « اُتْرُكيني أَتَخَلَّصْ مِنْهُ ؛ فَقَدْ عَرَفَ عَنّا الكَثيرَ !» ثُمَّ قَذَفَني بِالفَأْسِ بِكُلِّ ما لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ وَ أَنا أُحاوِلُ القَفْزَ إلى الحَديقَةِ ، وَهَوى حَدُّ الفَأْسِ عَلى يَدي ، فَأَحْسَسْتُ بِأَلَمٍ شَديدٍ ، وَرَأَيْتُ الدِّماءَ تَسيلُ بِغَزارَةٍ وَتُلَطِّخُ مَلابِسي ، غَيْرَ أَنَّ الضَّرْبَةَ ساعَدَتْني عَلى أنْ أَهْوِيَ بِجَسَدي إلى الحَديقَةِ . وَحاوَلْتُ الوُقوفَ بِصُعوبَةٍ وَأَنا أَسْتَنِدُ إلى شَجَرَةٍ بِجانِبي ، وَنَظَرْتُ إلى يَدي فَإِذا بِإِبْهامي قَدْ قُطِعَتْ ، فَأَخْرَجْتُ مِنْديلاً وَلَفَفْتُ بِهِ الجُرْحَ ، ثُمَّ



أخَذْتُ أجْري بَيْنَ الأشْجارِ على غَيْرِ هُدًى، لعَلّي أجِدُ مَنْ يُنْقِذُني . وَاشْتَدَّ بِيَ الإعْياءُ حَتّى سَقَطْتُ عَلى الأرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيَّ وَلَمْ أفْتَحْ عَيْنَيَّ إلا عَلى ضَوْءِ الفَجْرِ . وَحاوَلْتُ أنْ أسْتَجْمِعَ قُوايَ ، وَتَلَفَّتُّ حَوْلي وَلكِنّي لَمْ أجِدْ أثَرًا لِلْبَيْتِ أوِ الحَديقَةِ الّتي كُنْتُ فيها . وَأدْرَكْتُ أنّي قَريبٌ مِنْ مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الحَديدِيَّةِ الّتي وَصَلْتُ إلَيْها في المَساءِ ، وَكِدْتُ أعْتَقِدُ أنَّ ما حَدَثَ لي لَمْ يَكُنْ إلّا حُلْماً مُزْعِجًا ، لَوْلا ما كُنْتُ أحِسُّ بِهِ مِنْ ألَمٍ شَديدٍ في يَدي . وَبَعْدَ لَحَظاتٍ قَليلَةٍ أخَذْتُ أسيرُ مُتَحامِلاً عَلى نَفْسي حَتّى وَصَلْتُ إلى المَحَطَّةِ ، وَ هُناكَ وَجَدْتُ عامِلاً أبْلَغَني بِأنَّ قِطاراً سَيَتَوَجَّهُ إلى ريدِنْغ بَعْدَ خَمْسِ دَقائِقَ ، فَسَألْتُهُ إنْ كانَ يَعْرِفُ في تِلْكَ الجِهَةِ رَجُلاً بِاسْمِ الكابْتِن ستارْك ، فَأجابَ بِأنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ بِهذا الاِسْمِ عَلى الإطْلاقِ . وَجاءَ القِطارُ ، وَكُنْتُ في حالَةِ إعْياءٍ شَديدَةٍ ، فَفَضَّلْتُ أنْ أذْهَبَ أوَّلاً إلى لَنْدَن لِتَضْميدِ جُرْحي ، ثُمَّ أبْلِغَ الشُّرْطَةَ بَعْدَ ذلِكَ . وَقَدْ تَفَضَّلَ الدُّكْتور واطْسُن بِعَمَلِ الإسْعافاتِ اللّازِمَةِ لي ، وَنَصَحَني بِالحُضورِ إلَيْكُمْ .»

كُنّا نَسْتَمِعُ إلى هَذَرْلي في صَمْتٍ وَ تَعَجُّبٍ ، وَ لَمّا انْتَهى مِنْ كَلامِهِ نَهَضَ هُولْمز ، وَأخَذَ يَبْحَثُ في رَفٍّ عَلَيْهِ كُتُبٌ وَمُجَلَّداتٌ حَتّى عَثَرَ عَلى مِلَفٍّ ، فَأخَذَهُ وَراحَ يُقَلِّبُ صَفَحاتِهِ وَهُوَ يَقولُ :

« إنّي أحْتَفِظُ في هذا المِلَفِّ بِقُصاصاتِ الصُّحُفِ الَّتي تَهُمُّني .» ثُمَّ أرْدَفَ وَهُوَ يُشيرُ إلى ورَقَةٍ : « أنْظُرْ ! إنَّ هذا الإعْلانَ يَهُمُّكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ في الصُّحُفِ مُنْذُ عامٍ تَقْريباً .» وَراحَ يَقْرَأُ نَصَّهُ :

تغيب في التاسع من هذا الشهر السيد هايلنغ ، وهو في السادسة والعشرين من عمره ، ويعمل مهندسًا للطاقة المائية . فقد خرج من منزله في الساعة العاشرة مساءً ، ولم يعد ، ولم يسمع عنه أي خبر منذ ذلك الحين .

وَعَقَّبَ هُولْمز عَلى الإعْلانِ قائِلاً : « رُبَّما كانَ هذا المُهَنْدِسُ هُوَ آخِرَ مَنِ اسْتَدْعاهُ الكابْتِن لإصْلاحِ المِكْبَسِ قَبْلَكَ .»

صاحَ هَذَرْلي : « هذا ما أشارَتْ إلَيْهِ الفَتاةُ !»

قالَ هُولْمز : « إنَّ الكابْتِن رَجُلٌ عَنيفٌ ، وَلا يَسْمَحُ لأيِّ إنْسانٍ بِأنْ يَقِفَ في طَريقِ مَصْلَحَتِهِ .» وَطَلَبَ مِنّا أنْ نَسْتَعِدَّ لِلذَّهابِ إلى سكُوتْلانْد يارْد ، ثُمَّ إلى قَرْيَةِ إيفورْد .

وَرَكِبْنا القِطارَ مَعاً مُتَّجِهينَ إلى تِلْكَ القَرْيَةِ الصَّغيرَةِ ، وَبِصُحْبَتِنا الضّابِطُ برادْستريت مِن سكُوتْلانْد يارْد ، الَّذي أخْرَجَ مِنْ حَقيبَتِهِ خَريطَةً وَأخَذَ يَتَفَحَّصُها ، ثُمَّ قالَ : « مِنَ الغَريبِ أنَّ المَكانَ الَّذي

ذَكَرَهُ هَذَرْلي لا يُمْكِنُ أنْ يَبْعُدَ ساعَةً عَنِ المَحطَّةِ إذا ذَهَبْنا إلَيْهِ بِالعَرَبَةِ .» فَدَقَّقَ هُولمْز النَّظَرَ في الخَريطَةِ ، وَقالَ : « أنْتَ مُصيبٌ في رَأيِكَ ؛ فَالتِّلالُ العالِيَةُ تُحيطُ بِالمِنْطَقَةِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَنا هَذَرْلي أنَّهُ أحَسَّ بِالعَرَبَةِ تَسيرُ في طَريقٍ مُرْتَفِعٍ .»

وَنظَرَ إلى الخَريطَةِ مَرَّةً ثانِيَةً ثُمَّ قالَ : « ثَمَّةَ نُقْطَةٌ أخْرى ، فَقَدْ فَهِمْتُ مِنْ كَلامِ هَذَرْلي أنَّ الجَوادَ الَّذي كانَ يَجُرُّ العَرَبَةَ ، كانَ نَشِطاً غَيْرَ مُجْهَدٍ ، وَمَعْنى هذا أنَّ المَسافَةَ الَّتي سارَها عِنْدَما جاءَ بِالكابْتِن إلى المَحطَّةِ كانَتْ قَصيرَةً .»

وَنَظَرْتُ إلى هُولمْز وَقَدْ أحْسَسْتُ أنَّهُ يوشِكُ أنْ يَكْتَشِفَ غُموضَ هذِهِ الأحْداثِ ، فَقُلْتُ : « إذاً كَيْفَ تُفَسِّرُ أنَّ المَسافَةَ مِنَ المَحطَّةِ إلى المَكانِ قَدِ اسْتَغْرَقَتْ ساعَةً كَما قالَ هَذَرْلي ؟»

قالَ هُولمْز : « الأمْرُ بَسيطٌ لِلْغايَةِ ، فَالهَدَفُ الَّذي كانَ يَرْمي إلَيْهِ كابْتِن ستارْك هُوَ تَضْليلُ هَذَرْلي ؛ حَتّى لا يَعْرِفَ مَوْقِعَ المَكانِ بِالتَّحْديدِ ؛ وَمِمّا يُؤَيِّدُ ذلِكَ أنَّهُ لَمّا هَرَبَ طَلَباً لِلنَّجاةِ وَجَدَ نَفْسَهُ قَريباً مِنَ المَحطَّةِ ، رَغْمَ ما كانَ بِهِ مِنْ إعْياءٍ .»

سَكَتَ هُولمْز قَليلاً ثُمَّ قالَ : « إنَّ أغْلَبَ الظَّنِّ أنَّ هذا الشّابَّ قَدْ وَقَعَ في شِباكِ عِصابَةٍ لِتَزْييفِ النُّقودِ المَعْدِنِيَّةِ ، وَالمِكْبَسُ أكْبَرُ دَليلٍ

عَلى ذلِكَ .»

قالَ هَذَرْلي : « لَقَدْ راوَدَتْني هذِهِ الفِكْرَةُ عِنْدَما كُنْتُ أفْحَصُ الآلَةَ ، ورَأَيْتُ مَسْحوقَ المَعْدِنِ يَمْلأُ الحَوْضَ ، وَزادَتْ شُكوكي عِنْدَما بَدَأَ تَشْغيلُ المِكْبَسِ لِلْقَضاءِ عَلَيَّ .»

قالَ الضّابِطُ مُعَقِّباً : « إنَّ الشُّرْطَةَ عَلى عِلْمٍ بِوُجودِ مِثْلِ هذِهِ العِصابَةِ في مَكانٍ ما قُرْبَ مَدينَةِ ريدِنْغ ، وَلكِنَّنا لَمْ نَتَمَكَّنْ حَتّى الآنَ مِنْ ضَبْطِ أفْرادِها .»

وَعِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ المَحَطَّةِ نَظَرْتُ مِنَ النّافِذَةِ ؛ فَرَأَيْتُ دُخاناً كَثيفاً يَتَصاعَدُ فَوْقَ الأشْجارِ ، وَلَمّا وَقَفَ القِطارُ اقْتَرَبَ مِنّا ناظِرُ المَحَطَّةِ ، فَسَأَلَهُ الضّابِطُ : « ما هذا الدُّخانُ ؟»

أجابَ : « إنَّهُ حَريقٌ قَدْ شَبَّ أثْناءَ اللَّيْلِ في بَيْتٍ قَريبٍ مِنّا ، وَأعْتَقِدُ أنَّهُ قَدْ أتى عَلى البَيْتِ كُلِّهِ .»

سَأَلْتُ الرَّجُلَ عَنْ صاحِبِ هَذا البَيْتِ ، فَقالَ : « إنَّهُ الدُّكْتورُ بيتْشَر .»

سَأَلَهُ هَذَرْلي مُسْتَفْسِراً : « هَلْ هُوَ طَبيبٌ ألْمانِيٌّ ؟»

أجابَ ناظِرُ المَحَطَّةِ : « لا ، يا سَيِّدي ، إنَّهُ مُواطِنٌ إنْجليزِيٌّ يُقيمُ

مَعَهُ رَجُلٌ أجْنَبِيٌّ نَحيلُ الجِسْمِ .»

وَتَرَكْنا المَحَطَّةَ مُسْرِعينَ في اتِّجاهِ الحَريقِ . وَهُناكَ رَأَيْنا رِجالَ المَطافِئِ يُحاوِلونَ السَّيْطَرَةَ عَلى النّيرانِ دونَ جَدْوى ؛ فَقَدِ الْتَهَمَتِ المَبْنى ، وَلَمْ تَتْرُكْ مِنْهُ غَيْرَ بَعْضِ النَّوافِذِ المُشْتَعِلَةِ . وَصاحَ هَذَرْلي : « هذا هُوَ البَيْتُ بِعَيْنِهِ ! وَهذِهِ هِيَ النّافِذَةُ الَّتي قَفَزْتُ مِنْها إلى الحَديقَةِ بَيْنَ هذِهِ الأَشْجارِ !»

وَنَظَرَ هُولْمز إلى الشّابِّ وَقالَ : « لَقَدْ أخَذْتَ بِثَأْرِكَ ، يا هَذَرْلي ، وَمِمّا لا شَكَّ فيهِ أنَّ المِصْباحَ الَّذي سَحَقَهُ المِكْبَسُ ، تَسَبَّبَ في إشْعالِ النّارِ في جُدْرانِهِ الخَشَبِيَّةِ ، في الوَقْتِ الَّذي كانَ فيهِ ستارْك وَ صاحِبُهُ يَتَعَقَّبانِكَ . كُنْ عَلى حَذَرٍ ، أَيُّها الفَتى ؛ فَقَدْ يَكونُ ستارْك بَيْنَ هذا الجَمْعِ الغَفيرِ ، وَمَعَ أنّي مُوقِنٌ مِنْ أنَّهُ قَدْ لاذَ بِالفِرارِ هُوَ وَأَصْحابُهُ .»

وَكانَ مِنَ الواضِحِ أنَّ هذِهِ العِصابَةَ قَدِ انْتَقَلَتْ إلى مَكانٍ آخَرَ ، وَأخَذَتْ مَعَها ما تَبَقّى مِنْ نُقودٍ مُزَيَّفَةٍ ، وَأنَّ الشُّرْطَةَ لَمْ تَتَمَكَّنْ حَتّى الآنَ مِنْ مَعْرِفَةِ أيِّ شَيْءٍ عَنْ نَشاطِها .

وَلاحَظَ هُولْمز – وَنَحْنُ نَسيرُ في طَريقِنا عائِدينَ إلى المَحَطَّةِ – وُجودَ آثارِ أقْدامٍ ، فَقالَ : « إنَّها أقْدامُ شَخْصَيْنِ ، أحَدُهُما امْرَأَةٌ كَما

يَبْدو مِنْ شَكْلِ أَثَرِ الحِذاءِ عَلى الأَرْضِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُما قَدْ أَرادا إِنْقاذَ هَذَرْلي فَحَمَلاهُ إِلى مَكانٍ قَريبٍ مِنْ مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الحَديدِيَّةِ ، عِنْدَما كانَ فاقِدَ الوَعْيِ . وَبِذلِكَ فَسَّرَ هُولْمز سِرَّ وُجودِ هذا الشّابِّ قَريباً مِنَ المَحَطَّةِ عِنْدَما أَفاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ ، مُسْتَعيناً بِما ذَكَرَهُ هَذَرْلي مِنْ تَوَسُّلاتِ الفَتاةِ إِلى الكابْتِن ستارْك بِأَنْ لا يَقْتُلَهُ .

قالَ هَذَرْلي : « وا أَسَفاهُ ! لَقَدْ فَقَدْتُ إِبْهامي وَخَسِرْتُ خَمْسينَ جُنَيْهاً !»

نَظَرَ إِلَيْهِ هُولْمز قائِلاً: « وَلكِنَّكَ نَجَوْتَ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ ، واكْتَسَبْتَ خِبْرَةً لأَحْداثٍ غَريبَةٍ لَنْ تَنْساها أَبَداً !»

المريضُ المقيمُ

بَعْدَ وَفاةِ زَوْجَتي عامَ ١٨٩٤ ، رَأَيْتُ أنْ أقيمَ مَعَ صَديقي هُولْمز في بَيْتِهِ بِشارِعِ بيكَر . وَفي مَساءِ يَوْمٍ مِنْ أيّامِ أكْتوبر (تَشْرين الأوّل) زارَنا رَجُلٌ في نَحْوِ الثّالِثَةِ وَالثّلاثينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَكانَ يَبْدو نَحيلَ الجِسْمِ مُجْهَداً ، وَقَدَّمَ نَفْسَهُ قائِلاً : « أنا الدُّكْتور بيرسي تريفيلْيان ، وَأقيمُ في المَنْزِلِ رَقْم ٤٠٣ بِشارِعِ برُوك .» وَ رَحَّبَ بِهِ هُولْمز وَ أبْدى اسْتِعْدادَهُ لِمُعاوَنَتِهِ فيما يَطْلُبُ .

سَألْتُهُ : « هَلْ ألَّفْتَ كِتاباً عَنْ داءِ تَخَشُّبِ الجِسْمِ ؟ » فَظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ الفَخْرِ وَالاِعْتِزازِ ، وَقالَ : « أجَلْ ، أنا مُؤَلِّفُ هذا الكِتابِ .» ثُمَّ أخْبَرَ هُولْمز بِأنَّهُ أتى طالِباً العَوْنَ وَالنَّصيحَةَ ، لأنَّ أحْداثاً غَريبةً تَقَعُ في بَيْتِهِ مُنْذُ مُدَّةٍ ، وَ قَدْ بَلَغَتْ ذُرْوَتَها هذهِ اللَّيْلَةَ .

اِعْتَدَلَ هُولْمز في جِلْسَتِهِ وَ أشْعَلَ غَلْيونَهُ ، وَ قالَ إنَّهُ عَلى اسْتِعْدادٍ

لِسَماع قِصَّتِهِ بِكُلِّ ما فيها مِنْ تَفاصيلَ .

قَصَّ الرَّجُلُ حِكايَتَهُ فقالَ : « بَدَأْتُ حَياتي طَبيباً في أَحَدِ المُسْتَشْفَياتِ العامَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَتي أَنْ أَتَخَصَّصَ في فَرْعٍ مِنْ فُروعِ الطِّبِّ ، لأَنَّ ذَلِكَ يَتَطَلَّبُ أَمْوالاً كَثيرَةً لَمْ يَكُنْ في مَقْدوري تَوْفيرُها . وَلَكِنْ فَجْأَةً زارَني رَجُلٌ يُسَمّى بلسِنْغتون ، ادَّعى أَنَّهُ يُقَدِّرُ مهارَتي كَطَبيبٍ ، وَعَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَسْتَأْجِرَ لي بَيْتاً في شارِعِ بِرُوك ، لأَنَّهُ كانَ موقِناً مِنْ أَنّي أَفْتَقِرُ إِلى المالِ ، فَشَكَرْتُهُ عَلى هَذا العَرْضِ وَسَأَلْتُهُ عَنِ السَّبَبِ الَّذي مِنْ أَجْلِهِ أَقْدَمَ عَلى مُعاوَنَتي ، فَقالَ : « إِنَّني أَفْعَلُ هَذا لِمَنْفَعَتي الخاصَّةِ ، فَأَنا أَدَّخِرُ بِضْعَةَ آلافٍ مِنَ الجُنَيْهاتِ ، وَ أَرْغَبُ في اسْتِثْمارِها عَنْ طَريقِكَ .»

وَتَعَجَّبْتُ مِنْ أَمْرِهِ وَسَأَلْتُهُ عَنِ الدَّوْرِ المَطْلوبِ مِنّي في عَمَلِيَّةِ الاسْتِثْمارِ هَذِهِ ، فَقالَ : « إِنّي أُريدُكَ أَنْ تَتَخَصَّصَ في عِلاجِ مَرْضى تَخَشُّبِ الجِسْمِ ، وَ سَوْفَ أُوَفِّرُ لَكَ المَكانَ المُناسِبَ وَأُزَوِّدُهُ بِالأَثاثِ وَالمُعَدّاتِ اللازِمَةِ ، وَهَذا كُلُّهُ نَظيرَ ثَلاثَةِ أَرْباعِ دَخْلِكَ مِنَ العَمَلِ .»

« وَكانَ العَرْضُ غَريباً ، وَلَكِنّي قَبِلْتُهُ . وَبَعْدَ بِضْعَةِ أَسابيعَ انْتَهَيْنا مِنْ إِعْدادِ البَيْتِ الَّذي أَسْتَأْجَرْناهُ في شارِعِ بِرُوك ، وَأَبْدى بلسِنْغتون رَغْبَتَهُ في أَنْ يَعيشَ مَعي في البَيْتِ نَفْسِهِ ، بِحُجَّةِ أَنَّهُ يَحْتاجُ إِلى

طَبيبٍ بِجانِبِهِ يَتَولّى رِعايَتَهُ ؛ لأَنَّهُ يُعاني مِنْ هُبوطٍ في القَلْبِ ، وَضَعْفٍ عامٍّ في جِسْمِهِ . وَشَغَلَ الرَّجُلُ حُجْرَتَيْن في الطّابَق العُلْوِيِّ ؛ واحِدَةً لِلنَّوْمِ وَالأخْرى لِلاِسْتِقْبالِ ، وَبَقيتُ أنا وَعِيادتي بِالطّابَقِ الأرْضِيِّ .

« وَكانَ الرَّجُلُ غَريباً في طِباعِهِ ، يُفَضِّلُ أنْ يَكونَ وَحيداً بِغَيْرِ أصْدِقاءَ ، وَكانَ يَأتي إلى مَكْتَبي كُلَّ مَساءٍ لِيَعُدَّ النُّقودَ الَّتي حَصَلْتُ عَلَيْها ، ثُمَّ يَحْتَفِظَ لِنَفْسِهِ بِثَلاثَةِ أرْباعِها وَيَتْرُكَ الرُّبْعَ الباقِيَ لي . وَكانَ يَحْفَظُ نُقودَهُ في خِزانَةٍ حَديدِيَّةٍ يَضَعُها بِجِوارِهِ في حُجْرَةِ نَوْمِهِ .

« وَ بَعْدَ مُدَّةٍ تَزايَدَ عَدَدُ المَرْضى في عِيادَتي ، وَ زادَتْ أمْوالُ الرَّجُلِ مِنَ النِّسْبَةِ الَّتي يَسْتَوْلي عَلَيْها مِنْ دَخْلي كُلَّ يَوْمٍ .

« وَذاتَ يَوْمٍ أعْرَبَ لي عَنْ قَلَقِهِ بِسَبَبِ حَوادِثِ السَّرِقَةِ الَّتي تَجْتاحُ لَنْدَن ، وَأبْدى رَغْبَتَهُ في وَضْعِ أقْفالٍ جَديدَةٍ عَلى بابِ الخِزانَةِ لإحْكامِ غَلْقِها ، وَكانَ في حالَةٍ شَديدَةٍ مِنَ القَلَقِ وَالاضْطِرابِ ، وَبَدا كَأنَّهُ يَتَرَقَّبُ مَجْهولاً سَيَنْقَضُّ عَلَيْهِ ، فَلَزِمَ حُجْرَتَهُ وَأغْلَقَ البابَ عَلَيْهِ . وَأخَذَ يُراقِبُ الطَّريقَ مِنَ النّافِذَةِ لأكْثَرَ مِنْ أسْبوعٍ ، وَكادَتْ أعْصابُهُ تَهْدأ ، لَوْلا ما حَدَثَ مُنْذُ يَوْمَيْنِ ؛ فَقَدْ تَسَلَّمْتُ خِطاباً بِدونِ

تَوْقيعٍ أوْ تاريخٍ جاءَ فيهِ :

« عزيزي الدكتور تريفليان

أنا نبيل روسي أعيش في إنجلترا ، وقد داهمني مرض التخشب منذ عدة سنوات ، وأرغب في زيارتك لأنني أعلم بمهارتك في علاج هذا المرض .
وسوف أحضر إليك غداً مساء في حوالي الساعة السادسة والربع . »

وَجاءَ النَّبيلُ الرُّوسِيُّ في الميعادِ الَّذي حَدَّدَهُ ، وَكانَ كَهْلاً نَحيلَ الجِسْمِ ، غَيْرَ أنَّ مَنْظَرَهُ لَمْ يَكُنْ يَدُلُّ على أنَّهُ مِنَ النُّبَـلاءِ . وَكانَ يَتَّكِئُ إلى شابٍّ وَسيمٍ طَويلِ القامَةِ ، عَريضِ المَنْكِبَيْنِ ، قَوِيِّ العَضَلاتِ . وَقالَ الشّابُّ بِلَهْجَةٍ أجْنَبِيَّةٍ : « أنا آسِفٌ ، يا دُكْتور لِما أسَبِّبُهُ مِنْ إزْعاجٍ بِحُضوري مَعَ والِدي .» فَأَفْهَمْتُ الشّابَّ أنَّ هَذا لَيْسَ بِالأمْرِ الغَريبِ ، وَسَألْتُهُ إنْ كانَ يُفَضِّلُ أنْ يَظَلَّ مَعَنا أثْناءَ فَحْصِ والِدِهِ ، فَأجابَني بِأنَّهُ يُفَضِّلُ البَقاءَ في غُرْفَةِ الانْتِظارِ .

وَخَرَجَ الشّابُّ ، وَبَدَأتُ أقومُ بِواجِبي نَحْوَ المَريضِ ، فَسَألْتُهُ عَنْ مَرَضِهِ وَتاريخِهِ وَما يَشْعُرُ بِهِ . وَكانَ الرَّجُلُ يُجيبُني بِلَهْجَةٍ أجْنَبِيَّةٍ ، وَبِكَلامٍ يَتَّسِمُ بِالغَباءِ . وَفَجْأةً رَأيْتُ عَضَلاتِ الرَّجُلِ قَدْ تَقَلَّصَتْ ،

وَتَجمَّدَ في مَقْعَدِهِ ، وَاتَّسَعَتْ عَيْناهُ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّ نَوْبَةَ المَرَض قَدِ انْتابَتْهُ . وَكانَ لا بُدَّ مِنْ إِعْطائِهِ الدَّواءَ اللازِمَ لإِسْعافِهِ ، غَيْرَ أَنَّ زُجاجَةَ الدَّواءِ لَمْ تَكُنْ بِمَكْتَبي ، فَخَرَجْتُ لإِحْضارِها مِنَ الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ ، وَلَمّا عُدْتُ لَمْ أَجِدْ لِلْمَريضِ أَثَراً ، وَكانَ الشّابُّ قَدِ اخْتَفى أَيْضاً مِنْ غُرْفَةِ الانْتِظارِ .

« وَلَمْ يَكُنِ السَّيِّدُ بلسِنْغتون مَوْجوداً في البَيْتِ آنذاكَ ، وَعِنْدَما عادَ آثَرْتُ أَنْ لا أُخْبِرَهُ بِشَيْءٍ مِمّا حَدَثَ ، وَاعْتَبَرْتُ الأَمْرَ مُنْتَهِياً ، وَلَكِنّي فوجِئْتُ في السّاعَةِ السّادِسَةِ وَالرُّبْعِ مَساءً بِعَوْدَةِ الرَّجُلَيْنِ إِلى عِيادَتي ، وَاعْتَذَرَ المَريضُ عَمّا حَدَثَ بِالأَمْسِ ، وَقالَ : « عِنْدَما أَفَقْتُ مِنْ نَوْبَةِ المَرَض الَّتي انْتابَتْني بِالأَمْس في عِيادَتِكَ ، كُنْتُ عاجِزاً عَنِ التَّفْكيرِ ، وَ وَجَدْتُ نَفْسي في مَكانٍ غَريبٍ ، فَرَأَيْتُ أَنْ أَخْرُجَ في الحالِ .» وَأَكْمَلَ الشّابُّ حَديثَ والِدِهِ فَقالَ : « حينَما وَجَدْتُ أَبي يَخْرُجُ مِنْ حُجْرَةِ الكَشْفِ اعْتَقَدْتُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدِ انْتَهى ، فَعُدْتُ بِهِ إِلى المَنْزِلِ ، وَهُناكَ عَرَفْتُ مِنْهُ الحَقيقَةَ ، وَرَأَيْتُ أَنْ نَجيءَ إِلَيْكَ اليَوْمَ لِنُكْمِلَ العِلاجَ ، وَنَعْتَذِرَ عَمّا حَدَثَ .»

« وَقَبِلْتُ الاعْتِذارَ ، وَلَمْ أَجِدْ مانِعاً مِنْ إِكْمالِ فَحْصِ المَريضِ . وَعِنْدَما فَرَغْتُ مِنْ فَحْصِهِ ، كَتَبْتُ لَهُ الدَّواءَ اللازِمَ ، وَالنَّصائِحَ الَّتي يَجِبُ اتِّباعُها .

« وَكانَ السَّيِّدُ بلسِنْغتون خارِجَ البَيْتِ في ذَلِكَ الحين ، فَلَمّا عادَ وَدَخَلَ حُجْرَتَهُ سَمِعْتُهُ يَصيحُ غاضِباً : « يا دُكْتور ! مَن الّذي دَخَلَ حُجْرَتي وَأنا بِالخارِج ؟» فَقُلْتُ : « لا أَحَدَ . ماذا حَدَثَ ؟» فَقالَ « لا تَكْذِبْ !» وَطَلَبَ مِنّي أنْ أَصْعَدَ إِلَيْهِ . وَدَخَلْتُ مَعَهُ الحُجْرَةَ فَوَجَدْتُ آثارَ أَحْذِيَةٍ تُلَطِّخُ السَّجّادَةَ ، كَما وَجَدْتُ الأثاثَ مُبَعْثَراً . وَفَكَّرْتُ في الأمْرِ فَرَجَّحْتُ أَنْ يَكونَ الشّابُّ قَدْ دَخَلَ الحُجْرَةَ ، وَعَبَثَ بِمُحْتَوَياتِها في الوَقْتِ الّذي كُنْتُ فيهِ أقومُ بِفَحْص والِدِهِ إذْ إنّهُ لَمْ يَزُرْني اليَوْمَ إلا هَذانِ الرَّجُلانِ . غَيْرَ أَنّي تَعَجَّبْتُ مِنْ شِدَّةِ الفَزَعِ الّذي انْتابَ بلسِنْغتون ، فَالأمْرُ لَمْ يَحْتَمِلْ كُلَّ هَذِهِ الضَّجَّةِ ، خاصَّةً أنَّ خِزانَةَ النُّقودِ كانَتْ في مَكانِها ، وَلَمْ يَفْقِدِ الرَّجُلُ شَيْئاً مِنْ حُجْرَتِهِ . وَلَكِنَّ الخَوْفَ كانَ قَدِ اسْتَبَدَّ بِهِ ، وَسَمِعْتُهُ يَذْكُرُ اسْمَكَ ، يا سَيِّدُ هُولمز ، وَلَمّا كُنْتُ أَعْلَمُ عَنْكَ الكَثيرَ رَأَيْتُ أَنْ أَحْضُرَ لآخُذَكَ إِلَيْهِ ؛ لِكَيْ تَهْدَأَ أَعْصابُهُ .»

وَلَمْ يَقُلْ هُولمز شَيْئاً ، وَنَهَضَ وَأَحْضَرَ قُبَّعَتي وَ قُبَّعَتَهُ ، وَطَلَبَ مِنّي أَنْ أُرافِقَهُ مَعَ الدُّكْتور تريفِلْيان . وَسَرْعانَ ما كُنّا في الطَّريقِ إِلى شارِعِ بروك حَيْثُ يَقَعُ البَيْتُ .

وَعِنْدَما وَصَلْنا فَتَحَ الطَّبيبُ البابَ ، فَسَمِعْنا صَوْتاً مِنَ الدّاخِلِ يَصيحُ مُحَذِّراً : « قِفوا مَكانَكُمْ وَإلّا أَطْلَقْتُ النّارَ عَلَيْكُمْ !» فَرَدَّ

عَلَيْهِ تريفِلْيان مُعاتِباً : « ما هَذا الغَباءُ يا بلسِنْغتون !»

فَلَمّا أَيْقَنَ الرَّجُلُ أَنَّ القادِمينَ لَيْسوا أَعْداءً لَهُ ، اعْتَذَرَ وَ وَضَعَ المُسَدَّسَ في جَيْبِهِ ، ثُمَّ دَعانا لِلصُّعودِ إِلَيْهِ ، فَوَجَدْناهُ في حالَةٍ مِنْ الاضْطِرابِ يُرْثى لَها ، وَلَكِنَّهُ رَحَّبَ بِنا قائِلاً لِهُولمْز إِنَّهُ في أَشَدِّ الحاجَةِ إِلَيْهِ ؛ لإِنْقاذِهِ مِنْ خَطَرٍ مُحَقَّقٍ يُحْدِقُ بِهِ .

سَأَلَهُ هُولمْز : « هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرّوسِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قاما بِزِيارَةِ الطَّبيبِ ؟» فَنَفى ذَلِكَ . ثُمَّ دَعانا لِمُعايَنَةِ حُجْرَتِهِ ، وَأَشارَ إِلى الخِزانَةِ الحَديدِيَّةِ المَوْجودَةِ بِجِوارِ سَريرِهِ قائِلاً : « إِنّي أَحْتَفِظُ بِأَمْوالي في هَذا المَكانِ ، لأَنّي لا أَثِقُ بِالبُنوكِ ، وَلا أُحِبُّ التَّعامُلَ مَعَها ، وَلكِنّي أَخافُ مِنْ سَطْوِ اللُّصوصِ وَالمُجْرِمينَ . »

وَلَمْ يُعَقِّبْ هُولمْز عَلى كَلامِ بلسِنْغتون ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةَ شَكٍّ كَأَنَّهُ لا يُصَدِّقُ ما يَقولُ ، وَهَمَّ بِالانْصِرافِ فاسْتَوْقَفَهُ الرَّجُلُ سائِلاً : « ما هِيَ نَصيحَتُكَ يا سَيِّدي ؟»

أَجابَهُ : « لَنْ أَقولَ لَكَ شَيْئاً لأَنَّكَ تُخْفي عَنّا الحَقيقَةَ ! » ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ وَقالَ : « هَيّا بِنا نَعودُ إِلى البَيْتِ يا واطْسُن .»

خَرَجْنا مُسْرِعَيْنِ ، وَفي الطَّريقِ قالَ لي : « أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذا الرَّجُلَ



لهُ أعْداءَ يُريدونَ الفتْكَ بِهِ ، لِذَلِكَ فَهُوَ في حالَةِ رُعْبٍ وَاضْطِرابٍ. وَأعْتَقِدُ أيْضا أنَّ الشَّخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ زارا ترِيفِلْيان يُريدانِ إلْحاقَ الضَّرَرِ بِهِ لِسَبَبٍ سَنَعْرِفُهُ ، وَأنَّهُما دَخَلا غُرْفَةَ الرَّجُلِ وَعَبَثا بِمُحْتَوَياتِها .»

قُلْتُ : « لكِنَّ أحَدَهُما كانَ مَريضاً .»

ضَحِكَ هُولمْز وَقالَ : « مِنَ السَّهْلِ ، يا واطْسُن ، أنْ يَتَظاهَرَ أيُّ فَرْدٍ بِأنَّهُ مَريضٌ بِداءِ التَّخَشُّبِ .»

* * * *

في صَباحِ اليَوْمِ التَّالي أيْقَظَني هُولمْز ، وَطَلَبَ مِنِّي أنْ أسْتَعِدَّ لِلْخُروجِ مَعَهُ ، فَسَألْتُهُ عَنِ السَّبَبِ ، فَأخْبَرَني بِأنَّ الدُّكْتور ترِيفِلْيان بَعَثَ بِرِسالَةٍ مُخْتَصَرَةٍ قالَ فيها : « احْضُرْ حالاً لأمْرٍ هامٍّ !»

بَعْدَ قَليلٍ وَصَلْنا البَيْتَ ، فَاسْتَقْبَلَنا الدُّكْتور بِوَجْهٍ شاحِبٍ وَعَيْنَيْنِ زائِغَتَيْنِ ، وَقالَ : « حَدَثَ أمْرٌ فَظيعٌ لِلْغايَةِ ؛ لَقَدْ شَنَقَ بلسِنْغتون نَفْسَهُ ! وَرِجالُ الشُّرْطَةِ مَوْجودونَ بِحُجْرَتِهِ لِلْمُعايَنَةِ وَالتَّحْقيقِ .»

وَطَلَبَ هُولمْز مِنْ ترِيفِلْيان أنْ يَقُصَّ عَلَيْهِ ما رَآهُ ، فَقالَ : « لَقَدْ عَثَرَتْ عَلَيْهِ الخادِمَةُ ، وَهِيَ تُحْضِرُ إلَيْهِ الشّايَ في الصَّباحِ ، مُعَلَّقاً في حَبْلٍ يَتَدَلَّى مِنْ مِشْبَكِ المِصْباحِ المُثَبَّتِ في سَقْفِ الحُجْرَةِ .

وَيَبْدو أنَّهُ وَقَفَ عَلى خِزانَتِهِ الحَديدِيَّةِ ، وَلَفَّ الحَبْلَ حَوْلَ عُنُقِهِ ثُمَّ رَكَلَ الخِزانَةَ مِنْ تَحْتِهِ بِقَدَمِهِ ، فَضَغَطَ الحَبْلُ عَلى عُنُقِهِ حَتّى فارَقَ الحَياةَ .»

دَخَلْنا الغُرْفَةَ فَوَجَدْنا ضابِطَ الشُّرْطَةِ يُدَوِّنُ مُلاحَظاتِهِ وَالجُثَّةُ تَتَأَرْجَحُ مِنْ فَوْقِهِ ، فَسَأَلَهُ هُولْمز عَنْ رَأْيِهِ في هَذا الحادِثِ ، فقالَ : « أعْتَقِدُ أنَّ بلسِنْغتون قَدْ أصابَهُ الجُنونُ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ فانْتَحَرَ !»

سَأَلَهُ هُولْمز : « هَلْ وَجَدْتَ شَيْئًا غَريباً بِالحُجْرَةِ ؟»

أجابَ الضّابِطُ : « وَجَدْتُ أرْبَعَةَ أعْقابٍ مِنَ السّيجارِ .» وَقَدَّمَها إلى هُولْمز الَّذي أخَذَ يُقَلِّبُها بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ سَأَلَ : « أيْنَ عُلْبَةُ السّيجارِ الخاصَّةُ بِبلسِنْغتون ؟»

أشارَ الضّابِطُ إلَيْها ، وَكانَتْ عَلى المِنْضَدَةِ ، وَقالَ : « لَقَدْ وَجَدْتُها في جَيْبِ القَتيلِ .» فَفَتَحَها هُولْمز وَأَخَذَ يَشُمُّ ما تَبَقّى بِها مِنْ تَبَغٍ ، وَقالَ : « هَذا النَّوْعُ مِنَ السّيجارِ كوبِيٌّ ، أمّا هَذِهِ الأعْقابُ فَهِيَ لِسيجارٍ هولَنْدِيٍّ .»

وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ عَدَسَةً مُكَبِّرَةً وَأَخَذَ يَفْحَصُ الأعْقابَ بِعِنايَةٍ، ثُمَّ قالَ : « إنَّ اثْنَيْنِ مِنْها وُضِعا في مِبْسَمٍ أثْناءَ التَّدْخينِ .» وَنَظَرَ إلى

الضَّابِطِ الشَّابُّ قائِلاً : « يا سَيِّدي ، إنَّ بلسِنْغتون قَدْ قُتِلَ وَلَمْ يَنْتَحِرْ !»

وَأَنْكَرَ الضَّابِطُ ذَلِكَ قائِلاً : « إنِّي لا أُوافِقُكَ رَأْيَكَ ، يا سَيِّدُ هُولْمز ، فَالقَتَلَةُ عادَةً لا يَلْجَأُونَ إلى اسْتِخْدام وَسيلَةِ الشَّنْقِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ ضَحاياهُمْ .»

قالَ هُولْمز : « إنَّ رَأْيَكَ يَبْدو وَجيهاً ، وَلَكِنَّ هُناكَ سِرًّا سَوْفَ أَعْرِفُهُ ، وَأَرى أَنَّ بلسِنْغتون شَنَقَهُ أَعْداؤُهُ وَاسْتَخْدَموا هَذا الحَبْلَ الَّذي اقْتُطِعَ مِنْ هَذا !» وَسَحَبَ مِنْ تَحْتِ السَّريرِ حَبْلاً طَويلاً مِنَ النَّوْعِ نَفْسِهِ المُلْتَفُّ حَوْلَ رَقَبَةِ القَتيلِ . وَعِنْدَئِذٍ قالَ تريفِلْيان : « إنَّ صاحِبي كانَ يَحْتَفِظُ بِهَذا الحَبْلِ لِكَيْ يَسْتَخْدِمَهُ في الهَرَبِ مِنَ النّافِذَةِ ، إذا ما شَبَّ حَريقٌ عَلى سُلَّمِ البَيْتِ يَحولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الهُبوطِ إلى الطّابَقِ الأَرْضِيِّ .»

وَفَحَصَ هُولْمز الأَبْوابَ وَالنَّوافِذَ فَلَمْ يَجِدْ أَثَراً لاِسْتِخْدامِ العُنْفِ ، فَقالَ لِلضّابِطِ : « يَبْدو أَنَّ الجُناةَ دَخَلوا بِمُساعَدَةِ أَحَدِ الخَدَمِ ، فَالأَبْوابُ كُلُّها سَليمَةٌ .»

قالَ الدُّكْتور تريفِلْيان : « لَقَدْ بَدَأْتُ أَفْهَمُ ، فَإنَّ أَحَدَ الخَدَمِ الَّذينَ يَعْمَلونَ هُنا قَدِ اخْتَفى اليَوْمَ .»

قالَ هُولْمز : « إنّي أعْتَقِدُ أنَّ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ ادَّعَيا أنَّهُما روسيّانِ هُما القاتِلانِ ، وَقَدْ تَمَكَّنا مِنْ فَتْحِ بابِ هَذِهِ الحُجْرَةِ بِواسِطَةِ سِلْكٍ مَتينٍ استَطاعا أنْ يُحَرِّكا بِهِ المِفْتاحَ ، كَما هُوَ واضِحٌ مِنَ الأثَرِ الظّاهِرِ عَلى الفُتْحَةِ الخارِجيَّةِ لِلْبابِ ، وَلا بُدَّ أنَّهُما قَدِ اسْتَخْدَما مِنْديلاً لِتَكْميمِ فَمِ بلسِنْغتون لِمَنْعِهِ مِنَ الصِّياحِ ، ثُمَّ عَقَدا لَهُ ما يُشْبِهُ المُحاكَمَةَ وَالَّتي اسْتَغْرَقَتْ بَعْضَ الوَقْتِ ، مِمّا جَعَلَهُما يُدَخِّنانِ السِّيجارَ ، وَكانَ أحَدُهُما يَسْتَخْدِمُ مِبْسَماً . وَبَعْدَ انْتِهاءِ المُحاكَمَةِ أصْدَرا الحُكْمَ بِشَنْقِ الرَّجُلِ ، فَلَمّا أتَمّا تَنْفيذَ الحُكْمِ خَرَجا بِمُساعَدَةِ الخادِمِ الَّذي أغْلَقَ البابَ كالمُعْتادِ .»

وَطَلَبَ هُولْمز مِنَ الطَّبيبِ أنْ يُعْطِيَهُ صورَةً فوتوغْرافِيَّةً لِبلسِنْغتون، حَتّى يَتَمَكَّنَ مِنِ اسْتِقْصاءِ الحَقائِقِ وَالتَّعَرُّفِ عَلى شَخْصِيَّتِهِ . وَغادَرَ رِجالُ الشُّرْطَةِ البَيْتَ ، بَعْدَ أنْ تَعَهَّدَ الضّابِطُ بِالبَحْثِ عَنِ الخادِمِ الهارِبِ وَإلْقاءِ القَبْض عَلَيْهِ . وَعُدْتُ وَهُولْمز إلى مَنْزِلنا لِتَناوُلِ طَعام الإفْطارِ . وَفي نَحْوِ السّاعَةِ الثّالِثَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ عُدْنا إلى شارِع برُوك ، وَتَبِعَنا الضّابِطُ الَّذي بادَرَنا بِقَوْلِهِ : « لَقَدْ ألْقَيْنا القَبْضَ عَلى الخادِمِ الهارِبِ ، يا سَيِّدي ، وَهُوَ مُحْتَجَزٌ الآنَ في قِسْمِ الشُّرْطَةِ .»

قالَ هُولْمز : « لَقَدْ عَرَفْتُ القاتِلَيْنِ ، وَهُما بِيدِيل وَ هايورْد .»

صاحَ الضّابِطُ مُتَعَجِّباً : « المُتَّهمانِ بِالسَّطْوِ عَلى بَنْكِ وِرْثنْغدون ؟!»

قالَ هُولْمز : « نَعَمْ ، وَكانَ بلسِنْغتون شَريكاً لَهُما ، وَاسْمُهُ الحَقيقِيُّ ساتُون .»

وَعِنْدَما لاحَظَ عَلاماتِ التَّعَجُّبِ تَرْتَسِمُ عَلى وَجْهي سَأَلَني : « أَ لَمْ تَسْمَعْ بِحادِثِ السَّطْوِ عَلى هَذا البَنْكِ ؟ إِنَّهُ حادِثٌ مَشْهورٌ وَقَعَ مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ عاماً ؛ فَقَدْ هاجَمَهُ أَرْبَعَةُ لُصوصٍ ، وَهُمْ بِيدِيل وَهايوِرْد وَساتُونَ وَشَخْصٌ رابِعٌ اسْمُهُ كارْترايت . وَقَدْ تَمَكَّنوا بَعْدَ قَتْلِ الحارِسِ ، مِنْ سَرِقَةِ سَبْعَةِ آلافِ جُنَيْهٍ ، وَ اعْتَبَرَتِ المَحْكَمَةُ ساتُون شاهِدَ إِثْباتٍ ، وَصَدَرَ الحُكْمُ بِإِعْدامِ كارْترايت لِقَتْلِهِ الحارِسَ ، وَبِحَبْسِ كُلٍّ مِنْ بِيديل وَهايوِرد خَمْسَةَ عَشَرَ عاماً ، وَأَطْلَقَتْ سَراحَ ساتُون لِمُعاوَنَتِهِ لِرِجالِ الشُّرْطَةِ ، وَأَعْضاءِ المَحْكَمَةِ في كَشْفِ الجَريمَةِ . وَقَدْ رَأى ساتُون أَنْ يُغَيِّرَ اسْمَهُ إِلى بلسِنْغتون ، غَيْرَ أَنَّ زَميلَيْهِ صَمَّما عَلى الانْتِقامِ مِنْهُ بَعْدَ خُروجِهِما مِنَ السِّجْنِ .»

هَذِهِ هِيَ الحَقيقَةُ الَّتي اكْتَشَفَها هُولْمز ، وَ الغَريبُ أَنَّ القاتِلَيْنِ قَدْ هَرَبا عَلى ظَهْرِ سَفينَةٍ ، وَلَكِنَّها غَرِقَتْ بِهِما عَلى شَواطِئِ البُرْتُغالِ !

اِخْتِفاءُ اللَّيدي فرانْسِيس كارْفاكْس

قالَ لي هُولْمز عِنْدَما لَقيتُهُ ظُهْرَ أحَدِ الأيّامِ : « إنَّكَ تَبْدو اليَوْمَ ، يا واطْسُن ، أنيقاً مُنْتَعِشاً .»

قُلْتُ : « هَذا بِفَضْلِ حَمّامِ البُخارِ الَّذي اسْتَمْتَعْتُ بِهِ صَباحَ اليَوْمِ ، فَأَنا كُلَّما أحْسَسْتُ بِالإجْهادِ ذَهَبْتُ إلى حَمّامٍ قَريبٍ مِنَ البَيْتِ .»

قالَ مُبْتَسِماً : « إنّي أراكَ في حاجَةٍ إلى التَّغْييرِ لِكَيْ تَسْتَعيدَ نَشاطَكَ ، فَما رَأْيُكَ في رِحْلَةٍ مُمْتِعَةٍ إلى سويسْرا ، حَيْثُ تُقيمُ في أفْخَرِ الفَنادِقِ بِلُوزان ، دونَ أنْ يُكَلِّفَكَ هَذا شَيْئاً ؟»

فَرِحْتُ لِهَذا العَرْضِ السَّخِيِّ المُفاجِئِ ، وَسَأَلْتُهُ : « ما الَّذي دَعاكَ إلى إتاحَةِ هذهِ الفُرْصَةِ لي ؟»

وَلَمْ يَرُدَّ ، بَلْ مَدَّ يَدَهُ في جَيْبِهِ وَأَخْرَجَ مُذَكِّرَةً أَخَذَ يُقَلِّبُ صَفَحاتِها ، ثُمَّ قالَ : « اِسْمَعْ ، يا واطْسُن ، إنَّ الطُّيورَ الوَديعَةَ لا تَسْلَمُ مِنَ الأذى ، كَما لا تَسْلَمُ العانِساتُ الثَّرِيّاتُ عِنْدَما يَلْتَفُّ حَوْلَهُنَّ الأَوْغادُ مِنَ الرِّجالِ ، وَأَخْشى أَنْ تَكونَ اللَّيدي فرانْسيس كارْفاكْس قَدْ وَقَعَتْ في قَبْضَةِ أَحَدِ الأَشْرارِ !» وَصَمَتَ قَليلاً ثُمَّ قالَ : « إنَّ هَذِهِ السَّيِّدَةَ هِيَ آخِرُ أَفْرادِ أُسْرَةٍ نَبيلَةٍ . وَهِيَ لَيْسَتْ ثَرِيَّةً، وَلَكِنَّها تَمْتَلِكُ مَجْموعَةً مِنَ الجَواهِرِ الإسْبانِيَّةِ النّادِرَةِ ، المُرَصَّعَةِ بالماسِ وَ الأَحْجارِ الكَريمَةِ ، تَحْمِلُها مَعَها أَيْنَما ذَهَبَتْ . وَهِيَ جَميلَةٌ ، وَلَمْ تَبْلُغْ بَعْدُ الأَرْبعينَ مِنْ عُمْرِها ، وَلَها خادِمَةٌ عَجوزٌ تُدْعى الآنِسَةَ دوبْني ، تَعيشُ مَعَها في لَنْدَن ، وَقَدِ اتَّصَلَتْ هَذِهِ الخادِمَةُ بي أَمْسِ وَأَبْلَغَتْني بِأَنَّ سَيِّدَتَها انْقَطَعَتْ أَخْبارُها مُنْذُ خَمْسَةِ أَسابيعَ ، وَأَنَّ آخِرَ خِطابٍ وَصَلَها مِنْها قَدْ أُرْسِلَ مِنَ الفُنْدُقِ الَّذي كانَتْ تُقيمُ فيه بِلُوزان ، وَأَنَّها اتَّصَلَتْ بِمُديرِ هَذا الفُنْدُقِ ؛ فَأَبْلَغَها بِأَنَّ سَيِّدَتَها غادَرَتِ الفُنْدُقَ دونَ أَنْ تَذْكُرَ عُنْواناً لَها .»

وَصَمَتَ هُولْمز قَليلاً ثُمَّ واصَلَ حَديثَهُ : « إنَّ هَذِهِ الخادِمَةَ تَشْعُرُ بِالقَلَقِ عَلى سَيِّدَتِها ، وَقَدْ أَبْلَغَتْ أَقارِبَها بِذَلِكَ فَطَلَبوا مِنْها الاتِّصالَ بي ، وَإِبْلاغي بِأَنَّهُمْ عَلى اسْتِعْدادٍ لِتَقْديمِ ما يَلْزَمُ مِنْ مالٍ لِلْبَحْثِ عَنْها .»

سَألْتُ هُولْمز : « هَلْ كانَتْ هَذِهِ السَّيِّدَةُ تُراسِلُ أحَداً في لَنْدَن غَيْرَ خادِمَتِها ؟»

أجابَ : « إنَّها كانَتْ عَلى اتِّصالٍ بِمُديرِ البَنْكِ الَّذي تَتَعامَلُ مَعَهُ ، وَقَدِ اتَّصَلْتُ بِهِ فَأَخْبَرَني بِأَنَّ آخِرَ مَبْلَغٍ سَحَبَتْهُ قَدْ حُوِّلَ إلى فَتاةٍ فَرَنْسِيَّةٍ تُدْعى ماري دِيفِين ، عَلى أحَدِ البُنوكِ في مَدينَةِ مونبلِيِه بِفَرَنْسا ، وَعَلَيْكَ الآنَ ، يا واطْسُن ، أنْ تَتَوَجَّهَ وَحْدَكَ إلى سويسْرا لِلْبَحْثِ عَنِ اللَّيدي فرانْسِيس كارْفاكْس ، وَكُنْتُ أُحِبُّ أنْ أكونَ مَعَكَ لَوْلا أنّي مَشْغولٌ هَذِهِ الأيّامَ بِبَعْضِ الأمورِ ، وَلا تَنْسَ أنْ تَتَّصِلَ بي كُلَّما احْتَجْتَ إلى مَشورَةٍ .»

وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ وَصَلْتُ إلى لُوزان وَأَقَمْتُ في الفُنْدُقِ الوَطَنِيِّ . وَأَخْبَرَني مُديرُ الفُنْدُقِ بِأَنَّ اللَّيدي فرانْسِيس مَكَثَتْ عِنْدَهُمْ بِضْعَةَ أسابيعَ ، وَكانَتْ مَحْبوبَةً مِنَ الجَميعِ لِرِقَّتِها وَجَمالِها ، وَأَنَّها كانَتْ تَحْتَفِظُ في غُرْفَتِها بِصُنْدوقٍ مُغْلَقٍ تَعْتَزُّ بِهِ ، كَما كانَتْ لَها خادِمَةٌ لَطيفَةٌ تُدْعى ماري دِيفِين خَطَبَها أحَدُ العامِلينَ بِالفُنْدُقِ ، وَتَعيشُ الآنَ في مَدينَةِ مُونْبلِيِه بِفَرَنْسا .

أَبْرَقْتُ إلى هُولْمز بِما جَمَعْتُ مِنْ مَعْلوماتٍ ، وَأَنا فَخورٌ بِنَجاحي في تِلْكَ المُهِمَّةِ ، رَغْمَ أنَّني كُنْتُ لا أزالُ أجْهَلُ سَبَبَ مُغادَرَةِ

اللّيدي فرانْسِيس لِلْفُنْدُقِ فَجْأةً ، وَفي وَقْتٍ كانَ يَتَوَقَّعُ كُلُّ مَنْ عَرَفَها هُناكَ أنَّها سَوْفَ تَمُدُّ إقامَتَها ؛ حَتّى تَزْدادَ اسْتِمْتاعاً بِبُحَيْرَةِ جِنيف .

وَتَحَدَّثْتُ إلى الشّابِّ الّذي خَطَبَ الخادِمَةَ ماري دِيفِين ، فَذَكَرَ لي أنَّ رَجُلاً طَوِيلَ القامَةِ ، ذا لِحْيَةٍ كَثيفَةٍ ، قَدْ زارَ اللّيدي فرانْسِيس بِالفُنْدُقِ قَبْلَ رَحيلِها بِيَوْمَيْنِ ، وَقَدْ رَآهُ مَعَها قُرْبَ البُحَيْرَةِ ، وَكانَ يَتَحَدَّثُ إلَيْها حَديثاً جِدِّيّاً . وَفي اليَوْمِ التّالي حَضَرَ إلى الفُنْدُقِ وَطَلَبَ مُقابَلَتَها وَلَكِنَّها رَفَضَتْ ، وَغادَرَتِ الفُنْدُقَ مُباشَرَةً . وَهُوَ يَعْتَقِدُ أنَّ هَذا الرَّجُلَ مُواطِنٌ إنْجليزِيٌّ ، وَهُوَ الّذي تَسَبَّبَ في أنْ تَتَصَرَّفَ هَذا التَّصَرُّفَ المُفاجِئَ . ثُمَّ سَأَلْتُ هَذا الشّابَّ عَنْ خَطيبَتِهِ ، فَأَخْبَرَني بِأَنَّها سافَرَتْ إلى مُونْبلِيِيه ، وَأَعْطاني عُنْوانَها حَتّى يُمْكِنَني الاتِّصالُ بِها .

وَعَرَفْتُ مِنْ إحْدى شَرِكاتِ السِّياحَةِ أنَّ اللّيدي فرانْسِيس قَدْ سافَرَتْ إلى مَدينَةِ بادِن – بادِن في أَلْمانْيا ، فَقَرَّرْتُ اللَّحاقَ بِها . وَهُناكَ عَلِمْتُ مِنْ مُديرِ الفُنْدُقِ الإنْجليزِيِّ ، الّذي نَزَلْتُ بِهِ لِمُدَّةِ أُسْبوعَيْنِ أنَّها قَدْ تَعَرَّفَتْ هُناكَ عَلى أَحَدِ رِجالِ الدِّينِ مِنْ نُزَلاءِ الفُنْدُقِ ، يُدْعى الدُّكْتور شليسِنْغَر ، وكانَ الرَّجُلُ مَريضاً وَيُمْضي مُعْظَمَ وَقْتِهِ إلى جانِبِ زَوْجَتِهِ ، في تَأْليفِ بَعْضِ الكُتُبِ الدّينِيَّةِ .

وَعَلِمْتُ أَيْضاً أَنَّ الرَّجُلَ عادَ إلى لَنْدَن هُوَ وزَوْجَتُهُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أسابيعَ، وَ بِصُحْبَتِهِما اللَّيدي فرانْسِيس .

وَ سَأَلْتُ مُديرَ الفُنْدُقِ عَنِ الخادِمَةِ الَّتي كانَتْ مَعَها ، فَقالَ : « لَقَدْ غادَرَتِ الفُنْدُقَ وَهِيَ تَبْكي حُزْناً على فِراقِ سَيِّدَتِها ، وَأَقْسَمَتْ أَنْ لا تَقومَ بَعْدَ الآنَ بِخِدْمَةِ أَحَدٍ غَيْرِ سَيِّدَتِها . وَقَدْ جاءَ رَجُلٌ إِنْجليزِيٌّ آخَرُ مُنْذُ أُسْبوعٍ وَسَأَلَ عَنْها ، وَهُوَ رَجُلٌ غَريبٌ أَشْبَهُ ما يكونُ بِحَيَوانٍ بَرِّيٍّ .»

وَعِنْدَئِذٍ تَذَكَّرْتُ ما سَمِعْتُهُ عَنْ هَذا الرَّجُل الَّذي يُظَنُّ أَنَّ اللَّيدي فرانْسِيس غادَرَتْ لُوزان بِسَبَبِهِ ، وَ تَخَيَّلْتُ أَنَّهُ يُطارِدُها أَيْنَما ذَهَبَتْ . وَبَدَأْتُ أَخْشى عَلَيْها مِنْ هَذِهِ المُطارَدَةِ ، وَاسْتَبْعَدْتُ أَنْ تُصابَ بِضَرَرٍ ما دامَتْ بِصُحْبَةِ الدُّكْتور شليسِنْغَر وَزَوْجَتِهِ .

وَأَبْرَقْتُ إلى هُولمْز بِما رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ ، فَأَجابَ بِبَرْقِيَّةٍ عَجيبَةٍ جاءَ فيها : « صِفْ لي أُذُنَ الدُّكْتور شليسِنْغَر اليُسْرى – هُولمْز . » لَمْ أَجِدْ تَعْليلاً لِهَذِهِ البَرْقِيَّةِ ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّهُ يَمْزَحُ ، وَلَكِنِّي تَوَجَّهْتُ إلى مُونْبِلِييه وَقابَلْتُ الخادِمَةَ مارِي دِيفِين ، الَّتي أَخْبَرَتْني بِأَنَّ سَيِّدَتَها اللَّيدي فرانْسِيس كانَتْ تُعامِلُها مُعامَلَةً حَسَنَةً ، وَلَكِنَّها تَغَيَّرَتْ نَحْوَها فَجْأَةً إلى دَرَجَةِ أَنِ اتَّهَمَتْها بِالسَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُها عَنِ المَبْلَغ

الَّذي حُوِّلَ بِاسْمِها ، فَقالَتْ إنَّهُ هَدِيَّةٌ مِنْ سَيِّدَتِها بِمُناسَبَةِ قُرْبِ زَواجِها . فَسأَلْتُها عَنِ الرَّجُلِ الَّذي زارَها في لُوزان ، فَعَرَفْتُ مِنْها أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُهَذَّباً في التَّعامُلِ مَعَ سَيِّدَتِها ، وَتَعْتَقِدُ أَنَّهُ هُوَ الَّذي تَسَبَّبَ في رَحيلِها عَنْ لُوزان . وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتْ عَنِ الحَديثِ وَنَظَرَتْ مِنَ النّافِذَةِ ، وَقالَتْ بِلَهْجَةٍ مُضْطَرِبَةٍ : « أُنْظُرْ يا سَيِّدي ! هَذا هُوَ



الرَّجُلُ الَّذي كُنّا نَتَحَدَّثُ عَنْهُ الآنَ . إِنَّهُ خارِجَ الدّارِ .»

نَظَرْتُ مِنَ النّافِذَةِ ، فَشاهَدْتُ رَجُلاً طَويلَ القامَةِ ، لَهُ لِحْيَةٌ كَثَّةٌ، يَسيرُ بِبُطْءٍ وَسَطَ الطَّريقِ وَهُوَ يُدَقِّقُ النَّظَرَ في أَرْقامِ البُيوتِ المُصْطَفَّةِ عَلى الجانِبَيْنِ . وَكانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ بَيْتِ ماري ديڤين، فَأَسْرَعْتُ بِالخُروجِ مِنَ البَيْتِ ، فَرَأَيْتُهُ أَمامي ، فَقُلْتُ وَقَدِ انْتابَتْني مَشاعِرُ الغَضَبِ : « أَظُنُّ أَنَّكَ مواطِنٌ إِنجليزِيٌّ ، أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

رَدَّ بِصَوْتٍ خَشِنٍ : « ما شَأْنُكَ أَيُّها الرَّجُلُ ؟ اِبْتَعِدْ عَنّي !»

وَلٰكِنّي تابَعْتُ كَلامي : « ما اسْمُكَ ؟» وَلَمْ يَعْبَأْ بي ، وَ واصَلَ سَيْرَهُ فَلَحِقْتُ بِهِ وَأَمْسَكْتُهُ مِنْ كَتِفِهِ قائِلاً : « أَيْنَ اللَّيدي فرانْسيس كارْفاكْس ؟ ماذا فَعَلْتَ بِها ؟ وَلِماذا تَتَعَقَّبُها ؟»

زَمْجَرَ الرَّجُلُ غاضِباً ، وَانْقَضَّ عَلَيَّ بِقُوَّةٍ مُطْبِقاً يَدَيْهِ حَوْلَ عُنُقي حَتّى كِدْتُ أَفْقِدُ وَعْيي ، لَوْلا أَنْ أَنْقَذَني مِنْهُ عامِلٌ فَرَنْسِيٌّ كانَ بِالطَّريقِ ، وَضَرَبَهُ عَلى يَدَيْهِ بِعَصاً كانَتْ مَعَهُ . وَرَأى الرَّجُلُ أَنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ يَتْرُكَني وَيَمْضِيَ لِحالِهِ ، وَاتَّجَهَ نَحْوَ بَيْتِ ماري ديڤين ثُمَّ دَخَلَهُ مِنْ بابِهِ .

وَحاوَلْتُ أَنْ أَشْكُرَ هٰذا العامِلَ الفَرَنْسِيَّ الَّذي أَنْقَذَني مِنْ قَبْضَةِ

هَذا الوَحْش ِالمُفتَرِس ِ، وَلَكِنْ سَرْعانَ ما فَطِنْتُ إلى أنَّ هَذا العامِلَ لَمْ يَكُنْ سِوى شِرْلُوك هُولمز نَفْسِهِ ، الَّذي قالَ مُبْتَسِماً : « لَقَدْ أخْطَأتَ هَذِهِ المَرَّةَ يا واطْسُن ! وَعَلى أيَّةِ حالٍ سَوْفَ نَرْحَلُ اللَّيْلَةَ مَعاً بِقِطارِ المَساءِ إلى لَنْدَن .» ثُمَّ اصْطَحَبَني إلى الفُنْدُقِ الَّذي أقيمُ فيهِ، حَيْثُ خَلَعَ المَلابِسَ الَّتي كانَ يَتَخَفَّى فيها ، وَارْتَدى مَلابِسَهُ العادِيَّةَ . وَسَأَلْتُهُ لِماذا حَضَرَ إلى مونبْلِييه فَأجابَ : « رَأَيْتُ أنْ أحْضُرَ بِنَفْسي لِمُعاوَنَتِكَ ، وَتَوَقَّعْتُ أنْ تَكونَ هذهِ المَدينَةُ هِيَ هَدَفَكَ الأخيرَ في هَذِهِ الرِّحْلَةِ .» وَأخْبَرَني بِأنَّهُ يَنْتَظِرُ رَجُلاً كَلَّفَهُ بِجَمْعِ بَعْضِ المَعْلوماتِ عَنِ اللَّيدي فرانْسِيس لَعَلَّها تُفيدُنا في مُهِمَّتِنا .

وَبَعْدَ قَليلٍ حَضَرَ الرَّجُلُ الَّذي يَنْتَظِرُهُ هُولمز ، فَإذا بِهِ الرَّجُلُ نَفْسُهُ الَّذي تَشاجَرْتُ مَعَهُ في الطَّريقِ . وَقَدَّمَهُ هُولمز إلَيَّ قائِلاً : « هَذا هُوَ السَّيِّدُ فِيلِيب غرين .» وَبَدا الرَّجُلُ كَأنَّهُ لا يَسْتَلْطِفُ وُجودي مَعَهُما ، وَالْتَفَتَ إلى هُولمز وَقالَ : « لَقَدْ تَسَلَّمْتُ بَرْقِيَّتَكَ ، يا سَيِّدي ، وَلَكِنْ ما سَبَبُ وُجودِ هَذا الرَّجُلِ مَعَكَ ؟»

أجابَه هُولمز : « إنَّهُ صَديقي القَديمُ الدُّكْتور واطْسُن ، لَعَلَّكَ سَمِعْتَ بِهِ .»

نَظَرَ الرَّجُلُ إلَيَّ وَقالَ مُعْتَذِراً : « إنِّي آسِفٌ ! لَقَدْ فَقَدْتُ صَوابي،



يا دُكْتور واطْسُن ، عِنْدَما اتَّهَمْتَني بِإلْحاقِ الضَّرَرِ بِاللّيدي فرانْسِيس .» ثُمَّ نَظَرَ إلى هُولْمز وَسَأَلَهُ : « كَيْفَ عَلِمْتَ أَنّي لا أزالُ عَلى قَيْدِ الحَياةِ ؟ وَكَيْفَ عَرَفْتَ عُنْواني حَتّى تُبْرِقَ إلَيَّ ؟»

أجابَهُ : « أخْبَرَتْني بِذَلِكَ الآنِسَةُ دوبْني، خادِمَةُ اللّيدي فرانْسِيس، وَهِيَ تَعْرِفُكَ حَقَّ المَعْرِفَةِ مُنْذُ أيّام الشَّبابِ ، وَقَبْلَ أنْ تُهاجِرَ إلى

جَنوبِ إفْريقِيَّةَ .»

تَحَدَّثَ فيليب غرين عَن العَلاقَةِ الَّتي تَرْبِطُهُ بِاللّيدي فرانْسِيس ، فَقالَ إنَّهُ يُحِبُّ هَذِهِ السَّيِّدَةَ مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلَةٍ ، وَكانَتْ تُبادِلُهُ حُبًّا بِحُبٍّ ، غَيْرَ أَنَّهُ كانَ فَقيراً وَصاحِبَ نَزَواتٍ ؛ فَصَمَّمَ عَلى الهِجْرَةِ إلى جَنوبِ إفْريقِيَّةَ لِكَيْ يُكَوِّنَ لِنَفْسِهِ ثَرْوَةً مُناسِبَةً ، وَيُهَذِّبَ سُلوكَهُ . وَظَلَّتِ اللّيدي فرانْسِيس تَنتَظِرُهُ ، رافِضَةً الزَّواجَ بِغَيْرِهِ ، وَلَمّا عادَ وَجَدَها قَدْ سافَرَتْ إلى لُوزان ، وَلَحِقَ بِها وَلَكِنَّها صَدَّتْهُ . ثُمَّ غادَرَتْ لُوزان إلى بادِن – بادن ، فَتَبِعَها إلى هُناكَ ، إلا أَنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ لَها عَلى أَثَرٍ ، فَجاءَ إلى مونْبلْييه لِمُقابَلَةِ ماري دِيفِين ، الَّتي كانَتْ تَخْدِمُها في لُوزان ، لَعَلَّهُ يَجِدُ لَدَيْها ما يُفيدُهُ في مَعْرِفَةِ أَخْبارِ المَرْأَةِ الَّتي يُحِبُّها .

وَ وَعَدَهُ هُولمْز بِأَنَّهُ ، سَيَبْذُلُ قُصارى جَهْدِهِ لِمَعْرِفَةِ سِرِّ اخْتِفاءِ هَذِهِ السَّيِّدَةِ ، وَطَلَبَ مِنْهُ العَوْدَةَ إلى لَنْدَن تارِكًا لَهُ عُنْوانَهُ ، حَتّى يَتَمَكَّنَ مِنْ الاتِّصالِ بِهِ إذا ما احْتاجَ إلَيْهِ .

وَعُدْنا إلى لَنْدَن ، فَوَجَدْنا بِالبَيْتِ بَرْقِيَّةً مُرْسَلَةً مِنْ مُديرِ الفُنْدُقِ في بادِن – بادِن ، تَقولُ : « مَقْطوعَةٌ وَ لَيْسَتْ مُنْتَظِمَةً .»

سَأَلْتُ هُولمْز عَنْ مَعْنى هَذِهِ البَرْقِيَّةِ ، فَقالَ إنَّها رَدٌّ عَلى سُؤالٍ عَنْ

شَكْل أُذُنِ الدُّكْتور شليسِنْغَر . وَقَدْ سَأَلَني مِنْ قَبْلُ السُّؤالَ نَفْسَهُ ، وَلَمْ أَرُدَّ عَلَيْهِ لاِعْتِقادي أَنَّهُ كانَ يَمْزَحُ .

قالَ هُولْمز : « إنَّ هَذِهِ البَرْقِيَّةَ بالِغَةُ الأَهَمِّيَّةِ ، فالآنَ تَأَكَّدْتُ أَنَّ ما يُسَمَّى بِالدُّكْتور شليسِنْغَر لَيْسَ إلّا المُجْرِمَ العالَمِيَّ هَنْري پِيترز القادِمَ من أُسْتُرالْيا . وَهَذا المُجْرِمُ الخَطيرُ يَسْتَدْرِجُ العانِساتِ الثَّرِيّاتِ وَيسْلُبُ أَمْوالَهُنَّ تَحْتَ سِتارِ الدّين ، وَ تُساعِدُهُ في النَّشاطِ الإجْرامِيِّ امْرَأَةٌ تَدَّعي أَنَّها زَوْجَتُهُ . »

وَرَأى هُولْمز أَنَّ الأَمْرَ يَسْتَدْعي سُرْعَةَ الحَرَكَةِ لإِنْقاذِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ المِسْكينَةِ ؛ فاتَّصَلَ بِسكُوتْلانْديارْد حَتّى يَكونَ لَدى الشُّرْطَةِ عِلْمٌ بِما تَوَصَّلَ إِلَيْهِ مِنْ مَعْلوماتٍ ، حَوْلَ اخْتِفاءِ اللَّيدي فرانْسِيس كارْفاكْس .

وَذاتَ يَوْمٍ عَلِمَ هُولْمز مِنْ أَحَدِ المُرابينَ المُتَّصِلينَ بِهِ ، أَنَّ رَجُلاً قَدْ رَهَنَ لَدَيْهِ قِطْعَةً ثَمينَةً مِنَ الجَواهِرِ الإسْبانِيَّةِ . وَطَلَبَ هُولْمز مِنْ ذَلِكَ المُرابي أَنْ يَصِفَ لَهُ أُذُنَ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، غَيْرَ أَنَّ هُولْمز وَجَدَ بارِقَةَ أَمَلٍ ، وَرَجَّحَ أَنْ يَكونَ هُوَ المُجْرِمَ الخَطيرَ پِيتَرْز ، الَّذي يَدَّعي أَنَّهُ الدُّكْتور شليسِنْغَر .

وَطَلَبَ هُولْمز مِنْ فِيلِيب غرين ، الَّذي يُحِبُّ اللَّيدي فرانْسِيس ،

أنْ يُراقِبَ مَتْجَرَ المُرابي ؛ فَقَدْ يعودُ ذَلِكَ الرَّجُلُ لِكَيْ يرْهَنَ قِطْعَةً أخْرى مِنَ الحُلِيِّ ، فَوافَقَ وَانْصَرَفَ . وَانْقَطَعَتْ أخْبارُهُ يوْمَيْنِ ، إلى أنْ جاءَ في اليَوْمِ الثّالِثِ وَأخْبَرَنا بِأنَّهُ تَعَرَّفَ عَلى بَيْتِ المُجْرِمِ ، فَسَألَهُ هُولْمز أنْ يُوَضِّحَ كَلامَهُ ، فَقالَ : « مُنْذُ ما يَقْرُبُ مِنْ ساعَةٍ جاءَتْ إلى مَتْجَرِ المُرابي امْرَأةٌ لِكَيْ تَرْهَنَ قِطْعَةً أخْرى مِنَ المُجَوْهَراتِ ، وَقَدْ تَبِعْتُها بَعْدَ أنْ غادَرَتِ المَتْجَرَ فَوَجَدْتُها تَدْخُلُ مَتْجَرَ مُتَعَهِّدٍ لِدَفْنِ المَوْتى ، وَسَمِعْتُها تَقولُ لِصاحِبِهِ : « لَقَدْ تَأخَّرْتَ عَلَيْنا ! » فَقالَ : « مَعْذِرَةً عَنِ التَّأخيرِ ! سَأصِلُ بَعْدَ قَليلٍ ، لأنَّ مَقاييسَ صُنْدوقِ المَيِّتِ الَّتي أعْطَيْتِ لَنا اسْتَغْرَقَتْ في الصُّنْعِ وَقْتًا أطْوَلَ مِنْ غَيْرِها . » وَتَبِعْتُ السَّيِّدَةَ إلى بَيْتِها ، وَعَرَفْتُ العُنْوانَ بِالتَّحْديدِ . »

وَأخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ وَرَقَةً أعْطاها إلى هُولْمز ، الَّذي طَلَبَ مِنْهُ أنْ يُكْمِلَ حَديثَهُ ، فَقالَ : « وَقَفْتُ أراقِبُ البَيْتَ عَنْ بُعْدٍ ، وَكانَتِ النَّوافِذُ مُغْلَقَةً ، وَرَأيْتُ عَرَبَةَ نَقْلٍ تَحْمِلُ شَيْئًا لَمْ أتَبَيَّنْهُ في أوَّلِ الأمْرِ ، وَلَكِنْ سَرْعانَ ما أدْرَكْتُ أنَّهُ صُنْدوقٌ لِلْمَوْتى ، أنْزَلَهُ الرِّجالُ مِنَ العَرَبَةِ وَأدْخَلوهُ البَيْتَ ، بَعْدَ أنْ فَتَحَتْ لَهُمْ تِلْكَ السَّيِّدَةُ الَّتي كُنْتُ أتْبَعُها . »

وَخَتَمَ غرين كَلامَهُ قائِلاً : « لِهَذا أسْرَعْتُ ، يا سَيِّدي ، بِالمَجيءِ

إِلَيْكَ .»

وَالْتَقَطَ هُولمز مِنْ فَوْقِ مَكْتَبِهِ وَرَقَةً ، وَكَتَبَ عَلَيْها بِضْعَ كَلِماتٍ، ثُمَّ طَواها وَسَلَّمَها لِلسَّيِّدِ غرين قائِلاً : « عَلَيْكَ أَنْ تَتَوَجَّهَ فوراً بِهَذِهِ الوَرَقَةِ إلى سكُوتْلانْد يارْد .» ثُمَّ أضافَ : « لَقَدْ طَلَبْتُ مِنَ الجِهاتِ المَسْئولَةِ هُناكَ إِذْنَ تَفْتيشٍ ، يا واطْسُن ، فَالأَمْرُ يَبْدو خَطيراً لِلْغايَةِ .»

وَ سادَ الاعْتِقادُ بَيْنَنا أَنَّ صُنْدوقَ المَوْتى قَدْ أُعِدَّ لِلَّيدي فرانْسِيس، الَّتي قُتِلتْ أَوْ توشِكُ أَنْ تُقْتَلَ . وَطَلَبَ مِنِّي هُولمْز أَنْ أُسْرِعَ مَعَهُ إلى بَيْتِ المُجْرِمِ لَعَلَّنا نُنْقِذُ الضَّحِيَّةَ قَبْلَ الفَتْكِ بِها . وَفي العَرَبَةِ قالَ إِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ بِيترز قَدِ احْتالَ عَلى السَّيِّدَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَوْهَمَها بِأَنَّهُ رَجُلُ دينٍ حَتَّى تَثِقَ بِهِ ، وَجَعَلَها تَتَخَلَّصُ مِنْ خادِمَتِها في بادِن – بادِن . ثُمَّ جاءَ بِها إلى لَنْدَن وَاسْتَأْجَرَ شَقَّةً مَفْروشَةً حَبَسَها بِداخِلِها، وَقَطَعَ صِلَتَها بِالعالَمِ الخارِجِيِّ لِكَيْ يَسْتَوْلِيَ عَلى ما تَمْلِكُهُ مِنْ أَمْوالٍ وَجَواهِرَ ، ثُمَّ يَقْتُلَها .

وَفي الطَّريقِ مَرَرْنا بِمَتْجَرِ مُتَعَهِّدِ دَفْنِ المَوْتى ، فَرَأى هُولمْز أَنْ نَتَوَقَّفَ لِلسُّؤالِ عَنْ ميعادِ تَشْييعِ الجِنازَةِ ، فَعَلِمْنا أَنَّهُ في السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ صَباحِ الغَدِ .

وَ واصَلْنا السَّيْرَ إلى العُنْوانِ الَّذي حَدَّدَهُ لَنا غرين ، وَتَوَقَّفَتِ العَرَبَةُ أمامَ البَيْتِ فَنَزَلْنا ، وَطَلَبَ هُولْمز مِنَ السّائِقِ أَنْ يَنْصَرِفَ . ثُمَّ دَقَّ جَرَسَ البابِ فَفَتَحَتْ لَنا سَيِّدَةٌ طَويلَةُ القامَةِ ، وَسَأَلَتْنا عَمّا نُريدُ ، فَأَجابَها هُولْمز : « أريدُ أنْ أتَحَدَّثَ إلى الدُّكْتور شليسِنْغَر .»

قالَتْ : « لا يوجَدُ هُنا شَخْصٌ بِهَذا الاسْمِ .»

وَحاوَلَتْ إغْلاقَ البابِ فَمَنَعَها هُولْمز ، وَقالَ : « أريدُ مُقابَلَةَ الرَّجُلِ الَّذي يَسْكُنُ هَذا البَيْتَ .»

تَرَدَّدَتِ السَّيِّدَةُ قَليلاً ، ثُمَّ قالَتْ : « تَفَضَّلْ ؛ فَزَوْجي لا يَخْشى مُقابَلَةَ أيِّ إنْسانٍ !»

وَقادَتْنا إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ وَقالَتْ : « سَوْفَ يَحْضُرُ إلَيْكُمُ السَّيِّدُ بِيتَرز بَعْدَ قَليلٍ .» وَغادَرَتِ الغُرْفَةَ ، فَهَمَسَ هُولْمز في أُذُني : « إنَّنا نَسيرُ في الطَّريقِ الصَّحيحِ . إنَّ اسْمَ الرَّجُلِ بِيتَرز .»

وَجاءَ الرَّجُلُ ، وَكانَ طَويلَ القامَةِ ، أَصْلَعَ الرَّأْسِ ، عابِسَ الوَجْهِ ، وَبادَرَنا بِقَوْلِهِ : « أعْتَقِدُ أنَّكُمْ أَخْطَأْتُمُ المَكانَ أيُّها السّادَةُ !» وَقاطَعَهُ هُولْمز قائِلاً : « أنا شِرْلوك هُولْمز ، وَأَنْتَ هَنْري بِيتَرز الَّذي اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ في بادِن – بادِن اسْمَ الدُّكْتور شليسِنْغَر .»

قالَ الرَّجُلُ ساخِراً : « إنَّ هَذا لا يُخيفُني ، يا سَيِّدُ هُولْمز ! فَماذا تُريدُ مِنّي ؟» سَأَلَهُ هُولْمز: « ماذا فَعَلْتَ بِاللَّيدي فرانْسِيس كارْفاكْس، الَّتي كانَتْ مَعَكَ في بادِن – بادِن ؟»

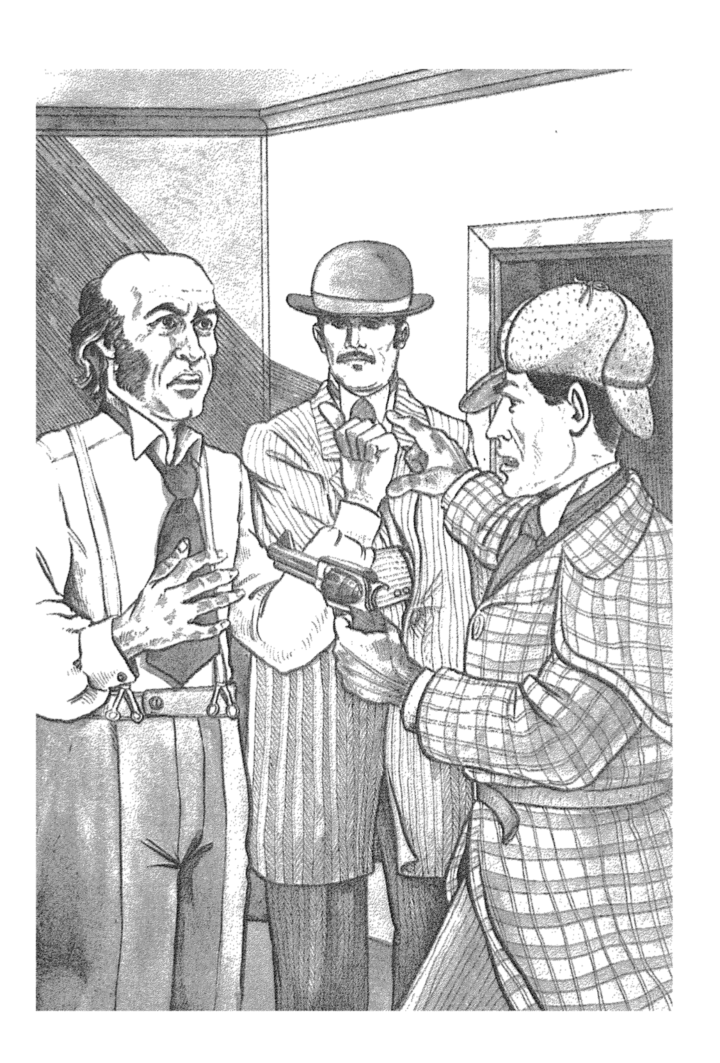
ثُمَّ خَفَضَ صَوْتَهُ قائِلاً: « أكونُ شاكِراً لَوْ أَرْشَدْتَنا عَنْ مَكانِها !»

أجابَ : « لَقَدْ تَعَرَّفْنا عَلى هَذِهِ السَّيِّدَةِ هُناكَ ، وَكانَتْ مُسْرِفَةً فَأَنْفَقَتْ كُلَّ ما لَدَيْها مِنْ مالٍ ، فَاضْطُرِرْتُ إلى أَنْ أُقْرِضَها مِئَةَ جُنَيْهٍ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ سَدادَ الدَّيْنِ فَأَعْطَتْنا بَدَلاً مِنْهُ بَعْضَ الجَواهِرِ عَديمَةِ القيمَةِ ، ثُمَّ عادَتْ مَعَنا إلى لَنْدَن حَيْثُ تَرَكَتْنا في مَحَطَّةِ ڤِيكْتوريا ، وَلَمْ نَسْمَعْ عَنْها شَيْئاً حَتّى الآنَ .»

قالَ هُولْمز: « سَوْفَ أَتَوَلّى البَحْثَ عَنْها بِنَفْسي ، وَسَنَبْدَأُ بِتَفْتيشِ بَيْتِكَ هَذا !»

قالَ الرَّجُلُ : « إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ ذَلِكَ ، يا سَيِّدُ هُولْمز ، لأَنَّكَ لا تَحْمِلُ إذْناً رَسْمِيا بِالتَّفْتيشِ .»

وَشَهَرَ هُولْمز مُسَدَّسَهُ وَ قالَ : « سَأُكْمِلُ مُهِمَّتي سَواءً أَرَدْتَ أَوْ لَمْ تُرِدْ ! » ثُمَّ أَشارَ إلَيَّ بِأَصْبَعِهِ قائِلاً : « هَذا صَديقي واطْسُن ، وَهُوَ رَجُلٌ خَطيرٌ يَحْمِلُ سِلاحاً أَيْضاً !»



وَرأى الرَّجُلُ أنَّ مِنَ الأَفْضَلِ أنْ يَكونَ لَطيفاً مَعَنا ، فَقادَنا إلى الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ حَيْثُ وَجَدْنا صُنْدوقَ المَوْتى ، مَوْضوعاً فَوْقَ مِنْضَدَةٍ عالِيَةٍ ، فَطَلَبَ هُولمز مِنَ الرَّجُلِ أنْ يَفْتَحَهُ ، فَاعْتَرَضَ قائِلاً : « إنَّ بِداخِلِهِ جُثْمانَ سَيِّدَةٍ عَجوزٍ ، كانَتْ تَعْمَلُ خادِمَةً عِنْدَ زَوْجَتي مِنْ زَمَنٍ ، وَقَدْ عَلِمْنا بِمَرَضِها فَطَلَبْنا مِنَ المُسْتَشْفى الَّذي كانَتْ تُقيمُ فيهِ أنْ نَنْقُلَها إلى بَيْتِنا ، حَيْثُ نَتَوَلّى عِلاجَها بِأَنْفُسِنا ، وَكَلَّفْنا أَحَدَ الأَطِبّاءِ بِرِعايَتِها ، وَلَكِنَّها تُوُفِّيَتْ أَمْسِ . وَنَحْنُ الآنَ نَسْتَعِدُّ لِتَشْييعِ جِنازَتِها .» وَفَتَحَ الرَّجُلُ الصُّنْدوقَ ، وَكانَ بِداخِلِهِ جُثْمانُ سَيِّدَةٍ عَجوزٍ ضَئيلَةِ الجِسْمِ ، فَتَنَفَّسْنا الصُّعَداءَ لأَنَّها لَمْ تَكُنِ اللَّيدي فرانْسيس .

وَتَوَجَّهْنا إلى المُسْتَشْفى لِنَتَأَكَّدَ مِمّا قالَهُ الرَّجُلُ ، وَقابَلْنا الطَّبيبَ المُعالِجَ ، وَعَرَفْنا مِنَ المَعْلوماتِ الَّتي حَصَلْنا عَلَيْها صِدْقَ كَلامِ پيتَرز .

وَعُدْتُ مَعَ هُولمز إلى بَيْتِهِ لِكَيْ نَسْتَريحَ ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ ساهِراً طَوالَ اللَّيْلِ يُدَخِّنُ غَلْيونَهُ ، كَعادَتِهِ كُلَّما صادَفَ مُشْكِلَةً . وَفي الصَّباحِ الباكِرِ أَيْقَظَني وَهُوَ يَقولُ : « إنَّ السّاعَةَ ، يا واطْسُن ، تَقْتَرِبُ مِنْ ميعادِ تَشْييعِ الجِنازَةِ ، فَهَيّا نُسْرِعْ إلى بَيْتِ پيتَرز .»

وَرَكِبْنا العَرَبَةَ وَأَسْرَعَتْ بِنا إلى البَيْتِ ، فَوَصَلْنا في اللَّحْظَةِ الَّتي

كانَ فيها رِجالٌ مُتَعَهِّدِ دَفْنِ المَوْتى يُحاوِلونَ إخْراجَ الصُّنْدوقِ مِنَ البَيْتِ ، فَنَزَلَ هُولْمز مِنَ العَرَبَةِ مُسْرِعًا ، وَاعْتَرَضَ الرِّجالَ قائِلاً : « عودوا بِهَذا الصُّنْدوقِ إلى الدّاخِلِ !» وَ ظَهَرَ بِيتَرز وَ هُوَ يُزَمْجِرُ قائِلاً : « ما هَذا ؟! لَيْسَ لَكَ أيُّ حَقٍّ ، يا سَيِّدي ، في إصْدارِ الأوامِرِ !»

قالَ هُولْمز « إنَّ الصُّنْدوقَ لَنْ يُسْمَحَ لَهُ بِالخُروجِ قَبْلَ تَفْتيشِهِ مِنْ جَديدٍ !»

رَدَّ عَلَيْهِ بِيتَرز ساخِراً : « وَلَكِنَّكَ لا تَحْمِلُ إذْنًا رَسْمِيا بِالتَّفْتيشِ !»

وَما كادَ الرَّجُلُ يَنْتَهي مِنْ كَلامِهِ ، حَتّى رَأَيْنا ضابِطًا مِنْ شُرْطَةِ سكُوتْلانْد يارْد ، يُلَوِّحُ بِوَرَقَةٍ في يَدِهِ قائِلاً : « هَذا هُوَ إذْنُ التَّفْتيشِ الّذي طَلَبْتَهُ مِنّا أمْسِ ، يا سَيِّدُ هُولْمز ، وَنَحْنُ نَشْكُرُكَ عَلى صادِقِ مُعاوَنَتِكَ لَنا .»

وَتَقَدَّمَ الضّابِطُ وَفَتَحَ غِطاءَ الصُّنْدوقِ ، فَفاحَتْ حَوْلَنا رائِحَةُ غازٍ مُخَدِّرٍ ، شُبِّعَتْ بِهِ قِطْعَةُ قُماشٍ وُضِعَتْ عَلى وَجْهِ سَيِّدَةٍ شابَّةٍ جَميلَةٍ ، غائِبَةٍ عَنْ وَعْيِها . وَمَدَدْتُ يَدي وَأَزَحْتُ القِناعَ عَنْ وَجْهِها ، وَأَخَذْتُ أُحَرِّكُهُ بِرِفْقٍ ، ثُمَّ أَمْسَكْتُ يَدَها فَأَحْسَسْتُ بِنَبَضاتِ قَلْبِها تَتَوالى بِانْتِظامٍ ؛ فَقُلْتُ وَالسَّعادَةُ تَمْلأُ وَجْهي : « إنَّ السَّيِّدَةَ لا تَزالُ

عَلى قَيْدِ الحَياةِ ! لَقَدْ جِئْنا في الوَقْتِ المُناسِبِ وأنْقَذْناها مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ !» وَأجْرِيَتْ لَها الإسْعافاتُ اللازِمَةُ ، وَجاءَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ السَّيِّدُ غرين ، وَ نَظَرَ إلى وَجْهِ السَّيِّدَةِ قائِلاً: « إنَّها اللَّيدي فرانْسِيس. حَمْداً لِلّهِ وشُكْراً !» وَحينَما أوْشَكَتْ أنْ تُفيقَ إلى وَعْيِها ، أخْرَجْناها مِنَ الصُّنْدوقِ ، وَ فوجِئْنا بِجُثْمانِ السَّيِّدَةِ العَجوزِ تَحْتَها .

نَظَرَ هُولمز إلَيَّ وَقالَ : « لَقَدْ كُنْتُ غَبِياً ، يا واطْسُن ! لأنّي لَمْ أتَبَيَّنْ إلّا صَباحَ اليَوْمِ مَعْنى قَوْلِ مُتَعَهِّدِ دَفْنِ المَوْتى ، حينَما قالَ لِلسَّيِّدَةِ إنَّ صُنْعَ صُنْدوقِ المَوْتى قَدِ اسْتَغْرَقَ وَقْتاً أطْوَلَ مِنْ غَيْرِهِ ، وَمَعْنى هَذا أنَّ الصُّنْدوقَ لَمْ يَكُنْ عادِيًّا لأنَّهُ أعِدَّ لِشَخْصَيْنِ ؛ هُما السَّيِّدَةُ العَجوزُ الّتي فارَقَتِ الحَياةَ ، وَاللَّيدي فرانْسِيس الّتي خُدِّرَتْ لِكَيْ تَموتَ مَوْتاً بَطيئاً .»

أمّا بِيتَرز وَصاحِبَتُهُ فَلَمْ نَعْثُرْ لَهُما عَلى أثَرٍ ، وَيَبْدو أنَّهُما هَرَبا عِنْدَما شاهَدا الضّابِطَ يُلَوِّحُ بِالإذْنِ الرَّسْمِيِّ بِالتَّفْتيشِ .

ثلاثة بِاسْمِ غارِيدِب

ذاتَ يَوْمٍ كانَ هُولمْز جالِساً في اسْتِرْخاءٍ يُدَخِّنُ غَلْيونَهُ ، وَفَجْأةً قالَ : « إلَيْكَ ، يا واطْسُن ، فُرْصَةً تُمكّنُكَ مِنَ الحُصولِ عَلى بَعْضِ المالِ !»

سَألْتُهُ : « ما هِيَ ؟»

أجابَني : « ما عَلَيْكَ سِوى أنْ تَبْحَثَ مَعي عَنْ رَجُلٍ اسْمُهُ غارِيدِب .»

سَألْتُهُ : « ما العَلاقَةُ بَيْنَ هَذا الاسْمِ وَ المالِ ؟»

أجابَني : « لا تَتَعَجَّلْ ، فَسَوْفَ يَحْضُرُ الآنَ رَجُلٌ تَعْرِفُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ .»

رَأيْتُ دَليلَ التِّليفوناتِ عَلى المِنْضَدَةِ ، فَأخَذْتُ أبْحَثُ فيهِ عَنْ

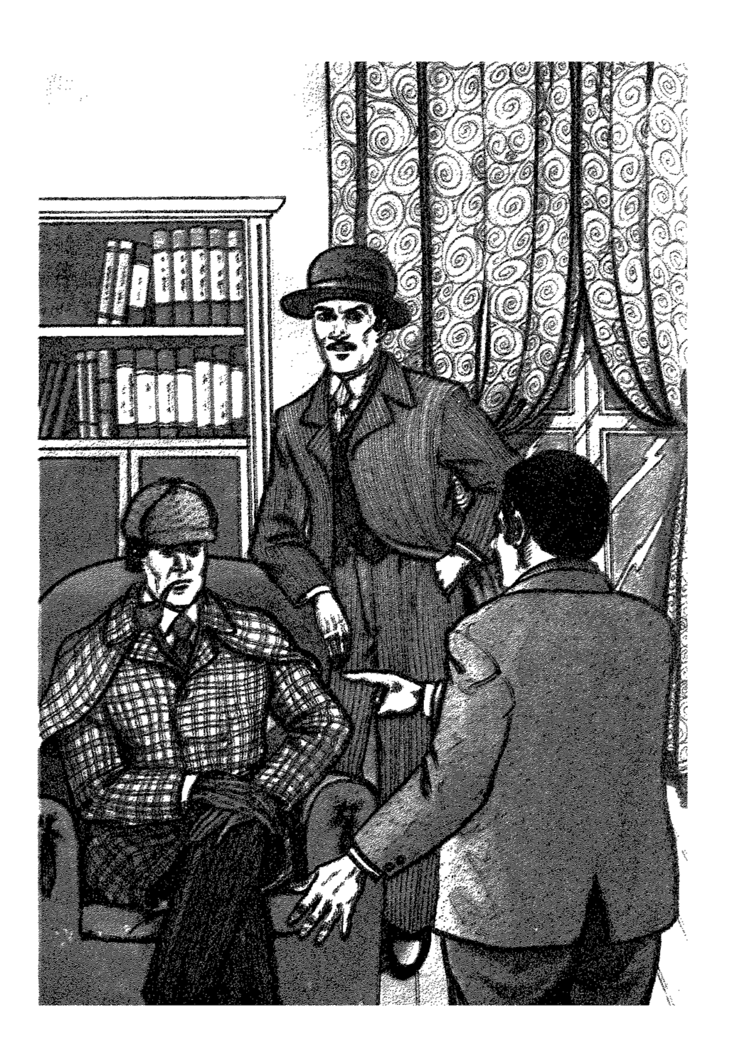
هذا الاِسْمِ ، وَلِحُسْنِ حَظّي عَثَرْتُ عَلَيْهِ في إحْدى الصَّفَحاتِ ، فَصِحْتُ فَرِحاً : « وَجَدْتُهُ يا هُولْمز ! »

وَتَناوَلَ الدَّليلَ مِنْ يَدي وَنَظَرَ فيهِ ، ثُمَّ قالَ : « آسِفٌ ! فَهذا اسْمُ الرَّجُلِ الَّذي سَيَحْضُرُ الآنَ ، إنَّهُ ناثان غارِيدِب . »

وَبَعْدَ قَليل دَخَلَتْ عَلَيْنا الخادِمَةُ تَحْمِلُ بِطاقَةً تناوَلْتُها مِنْها ، وَقَرَأْتُ الاسْمَ المُدَوَّنَ عَلَيْها « جُون غارِيدِب ، مُحامٍ في كنساس بِأمْريكا » فانْتابَني شُعورٌ بِالفَرَحِ وَصِحْتُ : « هذا هُوَ الاسْمُ الَّذي تَبْحَثُ عَنْهُ ، يا هُولْمز ، فَهُوَ غَيْرُ المُدَوَّنِ في دَليلِ التِّليفونات . » وَلكِنَّهُ نَظَرَ إلَيَّ وَ قالَ مُبْتَسِماً : « آسِفٌ ! فَقَدْ سَمِعْتُ بِصاحِبِ هذِهِ البِطاقَةِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ زِيارَتَهُ الآنَ ، وَعَلَيْكَ أنْ تَبْحَثَ عَنْ ثالِثٍ بِالاسْمِ نَفْسِهِ .

وَسَرْعانَ ما دَخَلَ الرَّجُلُ ، وَكانَ قَصيرَ القامَةِ قَوِيَّ البِنْيَةِ حادَّ البَصَرِ ، وَراحَ يَنْظُرُ إلَيْنا ، ثُمَّ قالَ وَهُوَ يُشيرُ إلى هُولْمز : « أنْتَ السَّيِّدُ هُولْمز ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟ لَقَدْ عَرَفْتُكَ مِنَ الصّورَةِ الَّتي تَنْشُرُها لَكَ الصُّحُفُ . »

وَطَلَبَ مِنْهُ هُولْمز أنْ يَجْلِسَ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ اسْتَمَرَّ يَقولُ: « أعْتَقِدُ أنَّ ثَمَّةَ خِطاباً قَدْ وَصَلَكَ مِنْ شَخْصٍ يُدْعى السَّيِّدَ ناثان غارِيدِب . »



وَتَناوَلَ هُولمز مِلَفاً مِنْ فَوْقِ المِنْضَدَةِ ، ثُمَّ قالَ : « أَنْتَ إذاً السَّيِّدُ جُون غارِيدِب ، المُحامي الأَمْريكِيُّ المَذْكورُ في هذا الخِطابِ ؟»

قالَ الرَّجُلُ : « نَعَمْ .»

وَسَأَلَهُ هُولمز عَنِ السَّيِّدِ ناثان غارِيدِب ، وَعَنْ سَبَبِ عَدمِ حُضورِهِ مَعَهُ . وَبَدا عَلى الزّائِرِ شَيْءٌ مِنَ الضِّيق وَهُوَ يَقولُ : « إنّي أَتَعَجَّبُ لِهذا الرَّجُلِ ! وَلا أَعْرِفُ لِماذا لَجَأَ إِلَيْكَ في هذا المَوْضوع الَّذي لا شَأْنَ لَكَ بِهِ ! فَعِنْدَما اتَّصَلْتُ بِهِ صَباحَ اليَوْمِ عَلِمْتُ بِالخِطابِ الَّذي أَرْسَلَهُ إِلَيْكَ ، لِهذا أَسْرَعْتُ بِالمَجيءِ لِمُقابَلَتِكَ قَبْلَ أَنْ يَحْضُرَ .»

رَدَّ عَلَيْهِ هُولمز بِصَوْتٍ هادِئٍ : « لا داعِيَ لِهذا القَلَقِ ، يا سَيِّدي ، إِنَّ الرَّجُلَ أَرادَ أَنْ يَضْمَنَ لِنَفْسِهِ النَّجاحَ فَلَجَأَ إِلَيَّ .»

هَدَأَ الرَّجُلُ ثُمَّ قالَ : « إنَّني لا أُريدُ أَنْ تَتَدَخَّلَ الشُّرْطَةُ في أَعْمالِنا ، وَما دُمْتَ مُسْتَعِداً لِمُعاوَنَتِنا في البَحْثِ عَنْ رَجُل بِاسْمِ غارِيدِب فَلا بَأْسَ في ذلِكَ .»

وَ وَعَدَ هُولمز الرَّجلُ بِأَنْ يَبْذُلَ قُصارى جَهْدِهِ لِمُعاوَنَتِهِ هُوَ وَصاحِبِهِ ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَقُصَّ عَلَيْهِ القِصَّةَ حَتّى يَكونَ عَلى عِلم

بالحَقائِقِ المُتعلِّقةِ بِها . وَسَكَتَ الرَّجُلُ قَليلاً ثُمَّ قالَ وَهُوَ يُشيرُ إِلَيَّ: « مِنَ الأَفْضَلِ ، يا سَيِّدُ هُولمز ، أَنْ تُعَرِّفَني بِصاحِبِكَ هذا لِكَيْ أَتمكَّنَ مِنَ الكَلامِ بِاطْمِئْنانٍ . »

قالَ هُولمز : « إِنَّهُ صَديقي الدُّكْتور واطْسُن ، أَ لَمْ تَسْمَعْ ؟ إِنَّهُ يُساعِدُني في جَميعِ القَضايا الَّتي أَتوَلَّاها ، فَلا تَخَفْ !»

وَاطْمَأَنَّ الرَّجُلُ وَقالَ : « حَسَنٌ .» وَأَخَذَ يَحْكي قِصَّتَهُ ، فَقالَ : «كانَ يَعيشُ في وِلايَةِ كنساس بِأَمْريكا رَجُلٌ يُسَمّى غارِيدِب ، كَوَّنَ لِنَفْسِهِ ثَرْوَةً طائِلَةً عَنْ طَريقِ بَيْعِ وَشِراءِ العَقاراتِ وَالأَراضي الزِّراعِيَّةِ، وَاشْتَغَلَ بِتِجارَةِ القَمْحِ ، فَتَضاعَفَتْ ثَرْوَتُهُ ، وَ اشْتَرى مَزْرَعَةً ضَخْمَةً اسْتَغَلَّها في تَرْبِيَةِ الأَغْنامِ وَالماشِيَةِ وَالاتِّجارِ فيها ، حَتّى أَصْبَحَ مِنْ رِجالِ الأَعْمالِ المَرْموقينَ في وِلايَة كنساس . غَيْرَ أَنَّهُ كانَ وَحيداً إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَقارِبُ يَرِثونَهُ ، وَكانَ مُعْتَزًّا بِاسْمِهِ الغَريبِ اعْتِزازاً شَديداً .

« وَذاتَ يَوْمٍ زارَني في مَكْتَبي وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ الفَرَحِ وَالابْتِهاجِ ، وَقالَ إِنَّهُ سَعيدٌ لأَنَّهُ يَلْتَقي لأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ بِرَجُلٍ آخَرَ يَحْمِلُ اسْمَهُ . وَطَلَبَ مِنّي بِإِلْحاحٍ أَنْ أَبْحَثَ لَهُ عَنْ رِجالٍ آخَرينَ يَحْمِلونَ نَفْسَ الاسْمِ ، غَيْرَ أَنّي اعْتَذَرْتُ لَهُ حينَئِذٍ لانْشِغالي بِالمُحاماةِ الَّتي تَسْتَنْفِدُ كُلَّ وَقْتي .»

وَسَكَتَ الرَّجُلُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ واصَلَ الكَلامَ : « وَمُنْذُ عام تَقْريباً ماتَ هذا الثَّرِيُّ ، وَتَرَكَ وَصِيَّةً قَسَّمَ فيها أَمْلاكَهُ إلى ثَلاثَةِ أَجْزاءٍ مُتَساوِيَةٍ ، خَصَّصَ أَحَدَها لي بِشَرْطِ أَنْ أَجِدَ شَخْصَيْنِ آخَرَيْنِ يَحْمِلُ كُلٌّ مِنْهُما اسْمَ غارِيدِب ؛ لِيَحْصُلا عَلى الجُزْءَيْنِ الباقِيَيْنِ . وَتَبْلُغُ قيمَةُ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ هذهِ الأَجْزاءِ الثَّلاثَةِ خَمْسَةَ مَلايينَ مِنَ الدّولاراتِ . وَاشْتَرَطَ أَنْ لا تُنَفَّذَ هذهِ الوَصِيَّةُ إلّا بَعْدَ العُثورِ عَلى هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ . »

وَسَكَتَ الرَّجُلُ لِيَرْشُفَ قَليلاً مِنَ الشّاي الَّذي قُدِّمَ لَهُ ، ثُمَّ عادَ يَقولُ : « وَهٰكَذا تَرَكْتُ ، يا سَيِّدي ، عَمَلي في المُحاماةِ ، وَأَخَذْتُ أَتَجَوَّلُ بَحْثاً عَنْ رَجُلَيْنِ يَحْمِلانِ اسْمَ غارِيدِب ، بَعْدَ أَنْ يَئِسْتُ مِنْ وُجودِهِما في أَمْريكا . وَصادَفَني الحَظُّ هُنا في بَلَدِكُمْ ؛ فَقَدْ عَثَرْتُ عَنْ طَريقِ دَليلِ التِّليفوناتِ عَلى شَخْص اسْمُهُ غارِيدِب ، فَأَسْرَعْتُ مُنْذُ يَوْمَيْنِ إلى زِيارَتِه ، وَحَكَيْتُ لَهُ القِصَّةَ فَفَرِحَ لِهٰذِهِ المُفاجَأَةِ السّارَّةِ ، وَ وَعَدَ بِأَنْ يَتَعاوَنَ مَعي في البَحْثِ عَنِ الرَّجُلِ الثّالِثِ . وَقَدْ عَلِمْتُ مِنْهُ اليَوْمَ أَنَّهُ اتَّصَلَ بِكَ ، وَأَنَّكَ قَدْ أَبْدَيْتَ لَهُ الاسْتِعْدادَ لِتَقْديمِ العَوْنِ ، وَلِهٰذا فَإِنّي أَعِدُكَ بِتَحَمُّلِ جَميعِ النَّفَقاتِ الَّتي سَوْفَ تَتَكَبَّدُها . »

وَنَظَرَ هُولْمز إِلَيَّ ثُمَّ قالَ : « إِنَّها قِصَّةٌ طَريفَةٌ يا واطْسُن ! » ثُمَّ نَظَرَ

إلى الرَّجُل قائِلاً : « أقْتَرِحُ أنْ تَبْدأ خُطَّتَكَ بِنَشْرِ إعْلانٍ في الصُّحُفِ .»

أسْرَعَ الرَّجُلُ يَقولُ : « لَقَدْ فَعَلْتُ هذا ، يا سَيِّدُ هُولْمز ، مُنْذُ مُدَّةٍ، وَلكِنّي لَمْ أصِلْ إلى أيَّةِ نَتيجَةٍ .»

وَأبْدى هُولْمز أسَفَهُ لِذلِكَ قائِلاً : « لَقَدْ تَكَبَّدْتَ ، يا سَيِّدُ غارِيدِب، المَشَقَّةَ بِحُضورِكَ إلى هُنا مِنْ وِلايَةِ كنساس دونَ جَدْوى . وَلَقَدْ كانَ لي في تِلْكَ الوِلايَةِ صَديقٌ يُدْعى الدُّكْتور ستار ، كانَ عُضْواً في مَجْلِس الوِلايَةِ مُنْذُ عامِ ١٨٩٠ ، وَلكِنّي عَلِمْتُ أخيراً أنَّهُ ماتَ .»

قالَ غارِيدِب : « إنّي أعْرِفُ هذا الرَّجُلَ خَيْرَ مَعْرِفَةٍ ، فَقَدْ كانَ فاضِلاً ، يُحِبُّهُ الجَميعُ ، وَقَدْ أسِفَ النّاسُ لِوَفاتِهِ .»

وَتَرَكَنا الرَّجُلُ وَخَرَجَ بَعْدَ أنْ وَعَدَ بِالاتِّصالِ بِنا كُلَّما جَدَّ جَديدٌ.

جَلَسَ هُولْمز صامِتاً يُدَخِّنُ غَلْيونَهُ ، ثُمَّ قالَ : « إنّي لأتَعَجَّبُ لِهذا الرَّجُلِ ! وَأعْتَقِدُ أنَّهُ خَدَعَنا بِأكاذيبِهِ . إنَّهُ يَعيشُ في إنْجلْترا مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ، وَقَدْ عَرَفْتُ ذلِكَ مِنْ طِرازِ مَلابِسِهِ ، وَإنْ كانَتْ لَهْجَةُ حَديثِهِ تَدُلُّ عَلى أنَّهُ مُواطِنٌ أمْريكِيٌّ . وَمِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى تَبَيَّنْتُ أنَّهُ كاذِبٌ

عِنْدَما اخْتَرَعْتُ لَهُ قِصَّةَ صَديقي ستار ، فَأنا لا أعْرِفُ رَجُلاً بِهذا الاِسْمِ عَلى الإطْلاقِ ، وَلكِنَّهُ وافَقَني وَادَّعى صِلَتَهُ بِهذا الرَّجُلِ المَزْعومِ ! أمّا ادِّعاؤهُ بِأنَّهُ قَدْ أعْلَنَ في الصُّحُفِ فَهذا أيْضاً مَحْضُ افْتِراءٍ . لأنَّكَ تَعْلَمُ ، يا واطْسُن ، أنّي أتابِعُ كُلَّ ما يُنْشَرُ في الصُّحُفِ بِدِقَّةٍ ، لأنَّ هذا كَثيراً ما يُفيدُني في كَشْفِ أسْرارِ الجَرائِمِ .»

وَسَكَتَ هُولْمز قَليلاً ثُمَّ عادَ يقولُ : « إنَّ الَّذي يُحَيِّرُني حَقا هُوَ تِلْكَ القِصَّةُ الَّتي رَواها هذا الرَّجُلُ ، عَنْ ذلِكَ الأمْريكِيِّ الثَّرِيِّ الَّذي يُدْعى غارِيدِب ، وَعَلى أيَّةِ حالٍ فَإنّي لا أصَدِّقُهُ ، وَأعْتَقِدُ أنَّ وَراءَهُ خُطَّةً يُحاوِلُ أنْ يَحيكَ خُيوطَها الآنَ لاِرْتِكابِ جَريمَةٍ ، وَأرى أنْ نَتَّصِلَ بِذلِكَ الرَّجُلِ الَّذي يُدْعى ناثان غارِيدِب ، وَكُلُّ ما أرْجوهُ أنْ لا يَكونَ هُوَ الآخَرُ كاذِباً .»

وَطَلَبَ مِنّي هُولْمز أنْ أتَّصِلَ بِالرَّجُلِ تِليفونِيًّا ، فَرَدَّ عَلَيَّ بِصَوْتٍ ضَعيفٍ قائلاً : « نَعَمْ . أنا ناثان غارِيدِب ! ماذا تُريدونَ ؟ وَمَنْ أنْتُمْ ؟»

وَشَرَحْتُ لَهُ الغَرَضَ مِنْ هذِهِ المُكالَمَةِ ، فَأبْدى رَغْبَتَهُ في أنْ يَتَحَدَّثَ إلى هُولْمز الَّذي تَناوَلَ السَّمّاعَةَ مِنّي ، وَبَدَأَ الكَلامَ مَعَهُ ،

وَسَمِعْتُهُ يَقولُ : « أعْتَقِدُ أنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ ؟ تَقولُ إنَّكَ اتَّصَلْتَ بِهِ مُنْذُ يَوْمَيْنِ فَقَطْ ؟! شَيْءٌ جَميلٌ حَقًّا أنْ تَظْفَرَ بِخَمْسَةِ مَلايينَ مِنَ الدُّولاراتِ ! إذًا سَوْفَ أجِدُكَ بِمُفْرَدِكَ في البَيْتِ هذا المَساءَ . حَسَنٌ ! سَوْفَ أحْضُرُ وَمَعي صَديقي الدُّكْتور واطْسُن . نَعَمْ ، هذا المَساءَ في السّاعَةِ السّادِسَةِ . طَبْعًا لا تُخْبِرْ هذا المُحامِيَ الأمْريكِيَّ بِزِيارَتي هذِهِ . مَعَ السَّلامَةِ .»

وَحَلَّ المَساءُ ، وَكان الجَوُّ جَميلاً ، فَتَوَجَّهْنا إلى ذلِكَ الحَيِّ العَتيقِ ، حَيْثُ يوجَدُ بَيْتُ ناثان غارِيدِب . وَسَرْعانَ ما تَوَصَّلْنا إلى البَيْتِ عَنْ طَريقِ العُنْوانِ المَكْتوبِ في الخِطابِ ، الَّذي أرْسِلَ إلى هُولْمز .

كانَ المَبْنى مُشَيَّدًا بِالحِجارَةِ الحَمْراءِ الدّاكِنَةِ عَلى طِرازِ القَرْنِ الثّامِنَ عَشَرَ ، وَبِهِ مَدْخَلٌ واسِعٌ يَنْتَهي بِسُلَّمٍ عَريضٍ مِنَ الرُّخامِ الأبْيَض ، وَعُلِّقَتْ عَلى الجُدْرانِ لافِتاتٌ كُتِبَتْ عَلَيْها أسْماءُ السُّكّانِ ، وَمِنْ بَيْنِها واحِدٌ بِاسْمِ ناثان غارِيدِب . وَطَرَقَ هُولْمز البابَ، الَّذي سَرْعانَ ما فَتَحَهُ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ ، وَكانَ مُتَقَدِّمًا في السِّنِّ ، طَويلَ القامَةِ مُنْحَنِيَ الظَّهْرِ ، أصْلَعَ الرَّأسِ ، غائِرَ العَيْنَيْنِ ، لَهُ لِحْيَةٌ كَلِحْيَةِ الجَدْي . وَرَحَّبَ الرَّجُلُ بِنا ، وَقادَنا إلى داخِلِ الدّارِ ، وَهُوَ يَعْتَذِرُ لأنَّ الخادِمَةَ قَدْ غادَرَتِ البَيْتَ مُنْذُ قَليلٍ ، وَهُوَ يَعيشُ بِمُفْرَدِهِ.

كانَتِ الغُرْفَةُ الَّتي قادَنا إلَيْها واسِعَةً ، مُكَدَّسَةً بِالصَّناديقِ الزُّجاجيَّةِ وَالخَزائِنِ المَمْلوءَةِ بِالنَّباتاتِ المُجَفَّفَةِ ، وَالعِظامِ الَّتي طالَ عَلَيْها الزَّمَنُ ، وَقِطَعٍ مِنَ الأَحْجارِ ذاتِ الأَلْوانِ المُخْتَلِفَةِ ، إلى جانِبِ بَعْضِ الطُّيورِ وَالفَراشاتِ المُحَنَّطَةِ . وَكانَ بِوَسَطِ الغُرْفَةِ مِنْضَدَةٌ كَبيرَةٌ تَناثَرَتْ فَوْقَها بَعْضُ الكُتُبِ وَالمَناظيرِ المُكَبِّرَةِ ، وَصُنْدوقٌ بِهِ بَعْضُ العُمْلاتِ المَعْدِنِيَّةِ القَديمَةِ ، وَآخَرُ بِهِ آلاتٌ مِنَ العَصْرِ الحَجَرِيِّ ، وَإناءٌ بِهِ أَزْهارٌ جَميلَةُ المَنْظَرِ. وَتَعَجَّبْنا لِتَنَوُّعِ الهِواياتِ الَّتي كانَتْ تَحْظى بِاهْتِمامِ هذا الرَّجُلِ المُسِنِّ ، وَالَّتي مِنْ أَجْلِها كَرَّسَ حَياتَهُ وَعَزَلَ نَفْسَهُ عَنِ المُجْتَمَعِ المُحيطِ بِهِ .

وَتَحَدَّثَ الرَّجُلُ عَنْ هذِهِ الهِواياتِ الَّتي تُكَلِّفُهُ الكَثيرَ مِنَ المالِ وَالجَهْدِ ، وَالَّتي لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَعيشَ بِدونِها ، وَقالَ : « إنَّ الأَمَلَ الَّذي أَدْخَلَهُ المُحامي الأَمْريكِيُّ إلى قَلْبي ، قَدْ مَلأَني فَرَحاً ، فَإذا حَصَلْتُ عَلى المالِ الَّذي وُعِدْتُ بِهِ فَسَوْفَ أَقْتَني مَجْموعاتٍ أُخْرى قَيِّمَةً ، تُضَمُّ إلى ما عِنْدي . إنَّني موقِنٌ مِنْ أَنَّ هذا الأَمْريكِيَّ لا يَكْذِبُ عَلَيَّ وَلا يَخْدَعُني ، وَعَلى أَيَّةِ حالٍ فَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَتَّصِلَ بِكَ لِلاسْتِعانَةِ بِمَشورَتِكَ ، يا سَيِّدُ هُولْمز .»

قالَ هُولْمز : « فَعَلْتَ حَسَناً ، يا سَيِّدي .»

وَ واصَلَ السَّيِّدُ ناثان غارِيدِب الحَديثَ فَقالَ : « لَقَدْ وَعَدَني السَّيِّدُ جُون غارِيدِب بِشِراءِ حِصَّتي في الوَصِيَّةِ عِنْدَما يَتِمُّ تَنْفيذُها ، وَتَعَهَّدَ بِأَنْ يَدْفَعَ لي خَمْسَةَ مَلايينَ مِنَ الدُّولاراتِ ثَمَناً لَها ، وَهذا عَرْضٌ سَخِيٌّ وَمُناسِبٌ لي ، إِذْ إِنَّني لا أَوَدُّ أَنْ أَتْرُكَ هِواياتي هذِهِ لِكَيْ أُسافِرَ إِلى أَمْريكا لِإِدارَةِ مُمْتَلَكاتي ، كَما أَنّي لا أُحِبُّ أَنْ أَتْرُكَ هذا البَيْتَ القَديمَ ، أَوْ أُغادِرَ وَطَني مَهْما كانَتِ الظُّروفُ .»

وَكانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّ السَّيِّدَ ناثان غارِيدِب عَلى أَتَمِّ الاِسْتِعْدادِ لاحْتِمالِ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ المَصاعِبِ ؛ لِلْعُثورِ عَلى الشَّخْصِ الثّالِثِ الَّذي يَحْمِلُ اسْمَ غارِيدِب ، حَتّى يَتَمَكَّنَ مِنَ الحُصولِ عَلى الثَّرْوَةِ الَّتي وُعِدَ بِها . وَنَظَرَ إِلَيْهِ هُولْمز نَظْرَةَ اسْتِفْسارٍ ، ثُمَّ قالَ : « أَوَدُّ أَنْ أَسْتَفْسِرَ مِنْكَ ، يا سَيِّدُ غارِيدِب ، عَنْ بَعْضِ الأَشْياءِ الَّتي لَمْ تَذْكُرْها في خِطابِكَ الَّذي بَعَثْتَ بِهِ إِلَيَّ ، فَأَنْتَ بِالطَّبْعِ لَمْ تَكُنْ لَكَ سابِقُ مَعْرِفَةٍ بِهذا المُحامي الأَمْريكِيِّ .»

قالَ الرَّجُلُ : « فِعْلاً ، فَقَدْ تَعَرَّفْتُ عَلَيْهِ يَوْمَ الثُّلاثاءِ الماضي حينَ قَدِمَ لِمُقابَلَتي .»

سَأَلَهُ هُولْمز : « هَلْ تَحَدَّثَ إِلَيْكَ عَنْ زِيارَتِهِ لي صَباحَ اليَوْمِ .»

أَجابَ الرَّجُلُ : « أَجَلْ . وَمِنَ الغَريبِ أَنَّهُ غَضِبَ مِنّي حينَ

ذَكَرْتُ لَهُ أَنِّي اتَّصَلْتُ بِكَ بِشَأْنِ هذا المَوْضوعِ ، وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ إهانَةً كَبيرَةً لَهُ . وَلكِنَّهُ لَمّا عادَ مِنْ عِنْدِكَ بَدا مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ قَدِ اطْمَأَنَّ إِلَيْكَ .»

أَخَذَ الرَّجُلُ يُجيبُ عَنِ الأَسْئِلَةِ الَّتي وَجَّهَها إِلَيْهِ هُولمز ، فَقال إِنَّهُ يَعيشُ عيشَةً آمِنَةً بِمُفْرَدِهِ في هذا البَيْتِ مُنْذُ خَمْسِ سَنَواتٍ ، وَلا يَخْشى أَنْ يَنْقَضَّ عَلَيْهِ اللُّصوصُ ، لأَنَّهُ لا يَمْلِكُ غَيْرَ هذِهِ المَجْموعاتِ العِلْمِيَّةِ الَّتي لا تَسْتَرْعي انْتِباهَهُمْ . وَأَسْهَبَ الرَّجُلُ في الحَديثِ عَنْ هِواياتِهِ إِلى أَنْ سَمِعْنا دَقّاتٍ عَلى البابِ ، فَقامَ وَفَتَحَهُ فَإِذا بِالمُحامي الأَمْريكِيِّ يَنْدَفِعُ إِلى الدّاخِلِ مُمْسِكًا بِيَدِهِ صَحيفَةً يُلَوِّحُ بِها في فَرَحٍ وَابْتِهاجٍ ، وَيَقولُ : « أَبْشِرْ ، يا سَيِّدُ غاريدب ! لَقَدْ أَصْبَحْتَ فِعْلاً مِنَ الأَثْرِياءِ ، وَكُلِّلَتْ مُهِمَّتُنا بِالنَّجاحِ !» ثُمَّ وَجَّهَ الكَلامَ إِلى هُولمز قائِلاً : « نَحْنُ نَشْكُرُكَ ، يا سَيِّدُ هُولمز ، فَإِنَّنا لَمْ نَعُدْ في حاجَةٍ إِلى مُعاوَنَتِكَ ، بَعْدَ أَنْ وَجَدْنا الرَّجُلَ الَّذي نَبْحَثُ عَنْهُ .»

وَأَشارَ بِيَدِهِ إِلى إِعْلانٍ ، طَلَبَ مِنّا أَنْ نَقْرَأَهُ ، وَقَدْ جاءَ فيهِ :

هَوارد غاريدب – لِصِناعَةِ الآلاتِ الزِّراعِيَّةِ : المَحاريثُ البُخارِيَّةُ وَاليَدَوِيَّةُ وَعَرَباتُ المُزارِعينَ – بِرْمِنْغهام .



وَغَمَرَ الفَرَحُ صاحِبَ الدّارِ فَأخَذَ يَصيحُ : « هذا رائعٌ ! لَقَدْ أصْبَحْتُ غَنِيًّا ! أسْرِعْ بِرَبِّكَ بِالاتِّصالِ بِهِ .»

قالَ الأمْريكِيُّ : « لَقَدْ كَتَبْتُ فِعْلاً إلَيْهِ ، وَأبْلَغْتُهُ بِأنَّكَ سَوْفَ تَتَوَجَّهُ إلى بِرْمِنْغهام غَداً مساءً لِمُقابَلَتِهِ .»

وَعادَ صاحِبُ الدّارِ إلى هُدوئِهِ ، وَقالَ بِدَهْشَةٍ : « أ تُريدُني أنْ أتَوَجَّهَ لِمُقابَلَةِ هذا الرَّجُلِ ؟»

أجابَ الأمْريكِيُّ : « وَما الغَرابَةُ في هذا ؟ إنَّكَ مُواطِنٌ إنْجليزِيٌّ، لَكَ احْتِرامُكَ في المُجْتَمَعِ ، وَسَوْفَ يُصَدِّقُكَ في الحالِ، أمّا أنا فَأجْنَبِيٌّ ، وَمِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِ أنْ يُصَدِّقَ ما أقولُهُ عَنْ تِلْكَ القِصَّةِ الغَريبَةِ . وَعَلى أيَّةِ حالٍ كُنْتُ أوَدُّ أنْ أذْهَبَ مَعَكَ غَداً ، غَيْرَ أنّي مَشْغولٌ بِدَرَجَةٍ كَبيرَةٍ ، وَلكِنْ سَوْفَ أحاوِلُ أنْ ألْحَقَ بِكَ مَتى انْتَهَيْتُ مِنْ أعْمالي .»

وَحاوَلَ السَّيِّدُ ناثان غاريدِب أنْ يَعْتَذِرَ ، وَلكِنَّ الأمْريكِيَّ ألَحَّ عَلَيْهِ ، وَقالَ : « إنَّها مُهِمَّةٌ سَهْلَةٌ . عَلَيْكَ أنْ تُقابِلَ الرَّجُلَ وَتَحْكِيَ لَهُ القِصَّةَ ، وَتَأخُذَ مِنْهُ إقْراراً كِتابِيًّا بِوُجودِهِ عَلى قَيْدِ الحَياةِ ، وَهذا شَيْءٌ بَسيطٌ بِالقِياسِ إلى ما تَحَمَّلْتُهُ أنا مِنْ مَشَقَّةٍ ، لِلْبَحْثِ عَنْ شَريكَيْنِ لِكَيْ تُنَفَّذَ الوَصِيَّةُ .»

قالَ هُولْمز : « إنَّ السَّيِّدَ جُون غارِيدِب مُصيبٌ . »

عِنْدَئِذٍ قالَ صاحِبُ الدّارِ إنَّهُ سَوْفَ يَقومُ بِهذِهِ المُهِمَّةِ ، ما دامَتْ تَهْدِفُ إلى تَحْقيقِ أَمَلِهِ في الثَّرْوَةِ . فَطَلَبَ مِنْهُ هُولْمز أنْ يُبَلِّغَهُ عِنْدَ عَوْدَتِهِ بِما أَسْفَرَتْ عَنْهُ هذِهِ الرِّحْلَةُ .

وَقالَ الأمريكِيُّ إنَّهُ سَوْفَ يَحْضُرُ في اليَوْمِ التّالي لِمُصاحَبَةِ ناثان غارِيدِب إلى المَحَطَّةِ لِتَوْديعِهِ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ في الخُروجِ وَغادَرَ البَيْتَ .

وَدَعانا السَّيِّدُ ناثان غارِيدِب إلى مُشاهَدَةِ مَجْموعاتِهِ العِلْمِيَّةِ ، وَلكِنَّ هُولْمز اعْتَذَرَ لِضيقِ الوَقْتِ ، وَ وَعَدَ بِأنْ يَحْضُرَ في اليَوْمِ التّالي لِرُؤْيَتِها أَثْناءَ غِيابِهِ في رِحْلَتِهِ إلى بِرْمِنْغهام ، فَوافَقَ الرَّجُلُ وَ وَعَدَنا بِإبْلاغِ خادِمَتِهِ بِأنْ تَسْمَحَ لَنا بِدُخولِ البَيْتِ أَثْناءَ غِيابِهِ . وَطَلَبَ هُولْمز مِنْهُ أنْ يَدُلَّهُ عَلى المَكْتَبِ الَّذي اسْتَأْجَرَ مِنْهُ هذا المَكانَ ، لأنَّهُ مُهْتَمٌّ بِمَعْرِفَةِ تَواريخِ المَباني ، فَأَعْطاهُ عُنْوانَهُ . ثُمَّ غادَرْنا البَيْتَ عائِدَيْنِ إلى دارِ هُولْمز ، حَيْثُ اسْتَلْقَيْنا في الفِراشِ لِنَأْخُذَ قِسْطاً مِنَ الرّاحَةِ .

وَفَجْأَةً قالَ هُولْمز : « أَ لَمْ تَلْحَظْ شَيْئاً ، يا واطْسُن ، في الإعْلانِ المَنْشورِ في صَحيفَةِ بِرْمِنْغهام ؟ »

وَأَجَبْتُ بِأَنّي لَمْ أَلْحَظْ شَيْئًا غَيْرَ عادِيٍّ ، فَقالَ : « إنَّ كَلِمَةَ مَحاريتَ خَطَأ ، وَنَقَلَها عامِلُ المَطْبَعَةِ كَما وَجَدَها في الوَرَقَةِ الّتي قُدِّمَتْ لَهُ ، وَلَمْ يُحاوِلْ تَصْحيحَها . وَأَعْتَقِدُ أَنَّ المُحامِيَ الأَمْريكِيَّ هُوَ الّذي كَتَبَ هذا الإِعْلانَ بِنَفْسِهِ ، وَنَشَرَهُ في هذِهِ الصَّحيفَةِ حَتّى يُهَيِّئَ سَبَبًا يُبْعِدُ بِهِ ناثان غاريدِب عَنْ بَيْتِهِ ، وَلَوْ لِيَوْمٍ واحِدٍ ، عِنْدَ قِيامِهِ بِرِحْلَتِهِ إِلى بِرْمِنْغهام . إِنَّ غَداً يَوْمُ عَمَلٍ جادٍّ ، وَعَلَيْنا أَنْ نَأْخُذَ أَكْبَرَ قِسْطٍ مِنَ الرّاحَةِ الآنَ . »

وَ في اليَوْمِ التّالي خَرَجَ هُولمز مُبَكِّرًا ، وَ بَقيتُ بِمُفْرَدي في البَيْتِ أَنْتَظِرُ عَوْدَتَهُ . وَ مَعَ دَقّاتِ السّاعَةِ الواحِدَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ سَمِعْتُ البابَ يُفْتَحُ ، وَ رَأَيْتُ هُولمز يَدْخُلُ عابِسَ الوَجْهِ مُقَطِّبَ الجَبينِ ، وَ حينَما رَآني بادَرَني بِقَوْلِهِ : « إِنَّ الأَمْرَ أَخْطَرُ مِمّا تَوَقَّعْتُ ، يا واطْسُن ! إِنَّ جُون غاريدِب هذا لَيْسَ إِلا السَّفّاحَ إيفانز ، وَهُوَ مُجْرِمٌ شِرّيرٌ مَعْروفٌ لَدى رِجالِ سكُوتْلانْد يارْد !»

وَلَمْ أَكُنْ قَدْ سَمِعْتُ بِهذا المُجْرِمِ مِنْ قَبْلُ ، وَلكِنَّ هُولمز ذَكَرَ أَنَّهُ اطَّلَعَ عَلى مِلَفِّهِ في سكُوتْلانْد يارْد ، وَشاهَدَ صورَتَهُ فَعَرَفَهُ في الحالِ ، وَقالَ إِنَّ سِجِلَّهُ مَشْحونٌ بِالجَرائِمِ الّتي ارْتَكَبَها طَوالَ حَياتِهِ. وَهُوَ أَمْريكِيُّ الجِنْسِيَّةِ ، وُلِدَ في شيكاغُو ، وَيَبْلُغُ الرّابِعَةَ وَالأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَجاءَ إِلى لَنْدَن عامَ ١٨٩٣ عَقِبَ خُروجِهِ مِنَ السِّجْن

في أمْرِيكا . وَفي أحَدِ المَلاهي اللَّيْلِيَّةِ أطْلَقَ الرَّصاصَ عَلى رَجُل فَأرْداهُ قَتيلاً ، وَكانَ هذا القَتيلُ مُجْرِماً خَطيراً يُدْعى برِسْكُوت ، وَحُكِمَ عَلى إيڤانز بِالسِّجْن خَمْس سَنَواتٍ . وَقَدْ أتَمَّ المُدَّةَ في العام الماضي ، وَهُوَ الآنَ مَوْضوعٌ تَحْتَ مُراقَبَةِ رِجالِ الشُّرْطَةِ . وَقَدْ تَوَجَّهَ هُولْمز إلى المَكْتَبِ الَّذي اسْتَأجَرَ مِنْهُ ناثان غارِيدِب مَسْكَنَهُ، وَعَلِمَ أنَّ هذا المَسْكَنَ كانَ يُقيمُ فيهِ رَجُلٌ أمْرِيكِيٌّ يُدْعى برِسْكُوت ، وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذي قَتَلَهُ إيڤانز وَ سُجِنَ بِسَبَبِهِ .

وَخَتَمَ هُولْمز حَديثَهُ قائِلاً : « لا بُدَّ إذاً ، يا واطْسُن ، مِنْ مَعْرِفَةِ العَلاقَةِ الَّتي تَرْبطُ بَيْنَ هذِهِ القِصَّةِ وَالبَيْتِ الَّذي يَسْكُنُهُ السَّيِّدُ ناثان غارِيدِب ، وَيَحْتَفِظُ فيهِ بِمَجْموعاتِهِ العِلْمِيَّةِ .»

وَجَلَسَ هُولْمز ساكِناً لا يَتَكَلَّمُ ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ قامَ وَأخْرَجَ مُسَدَّساً مِنْ دُرْجِ مَكْتَبِهِ ، وَسَلَّمَهُ إلَيَّ قائِلاً : « خُذْ ، يا واطْسُن ، هذا المُسَدَّسَ حَتَّى تَكونَ مُسْتَعِدًّا ، إذاحاوَلَ إيڤانز التَّصَدِّيَ لَنا !» وَخَرَجْنا مُتَّجِهَيْن إلى بَيْتِ ناثان غارِيدِب ، وَكانَتِ السّاعَةُ قَدْ قارَبَتِ الرّابِعَةَ مَساءً عِنْدَما وَصَلْنا إلى هُناكَ ، وَرَأيْنا الخادِمَةَ توشِكُ أنْ تُغادِرَ البَيْتَ، وَسَمَحَتْ لَنا بِالدُّخولِ ، كَما أبْلَغَها سَيِّدُها ، ثُمَّ خَرَجَتْ وَتَرَكَتْنا وَحْدَنا ، وَبَدَأنا نَكْتَشِفُ ما حَوْلَنا .

قالَ هُولْمز : « إنَّ إيڤانز بَرْهَنَ عَلى أنَّهُ يَتَميَّزُ بِذكاءٍ خارِقٍ اخْتَرَعَ قِصَّةَ الوَصيَّةِ ، وَكَتَبَ هذا الإعْلانَ لِيَدْفَعَ صاحِبَ البَيْتِ لِلذَّهابِ إلى بِرْمِنْغَهام ؛ حَتّى يَخْلُوَ لَهُ المَكانُ . وَأنا موقِنٌ مِنْ أنَّهُ سَيَحْضُرُ بَعْدَ قَليلٍ .»

كُنْتُ أظُنُّ أنَّ إيڤانز يَطْمَعُ في المَجْموعاتِ العِلْميَّةِ الَّتي يَحْتَفِظُ بِها ناثان غارِيدِب ، وَلكِنَّ هُولْمز لَمْ يُوافِقْني عَلى هذا الرَّأْيِ ، وَقالَ: « لا ، يا واطْسُن ، إنَّ الأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ خَطيرٍ ، فَأنا أُرَجِّحُ أنَّ ثَمَّةَ عَلاقَةً مُريبَةً كانَتْ تَرْبِطُ بَيْنَ إيڤانز السَّفّاحِ وَالمُجْرِمِ بِرِسْكُوت ، الَّذي قُتِلَ في أحَدِ المَلاهي اللَّيْليَّةِ . إنَّ بِرِسْكُوت هذا كانَ يَسْكُنُ هُنا ، وَلا بُدَّ أنَّهُ يُخْفي في هذا المَكانِ شَيْئاً يُهِمُّ إيڤانز ، لِذلِكَ عَمِلَ عَلى إبْعادِ صاحِبِ البَيْتِ عَنْهُ ؛ حَتّى يَتَمَكَّنَ مِنَ البَحْثِ عَمّا يُريدُ .»

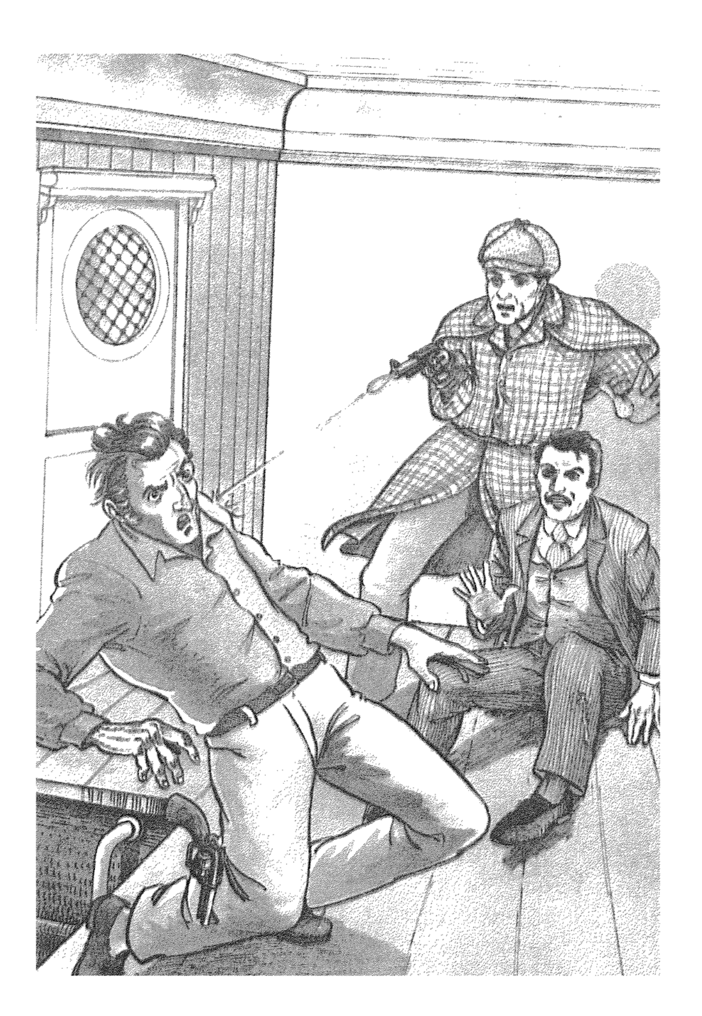
وَسَمِعْنا صَوْتَ مِفْتاحٍ يَدورُ في قُفْلِ البابِ ، فَاخْتَبَأْنا وَراءَ إحْدى الخَزائِنِ صامِتَيْنِ ، وَبَعْدَ لَحْظَةٍ ظَهَرَ رَجُلٌ وَأخَذَ يَتَقَدَّمُ في حَذَرٍ إلى الدّاخِلِ ، وَسَرْعانَ ما تَبَيَّنّا أنَّهُ إيڤانز . وَأخَذَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ حَوْلَهُ لِيَتأكَّدَ مِنْ خُلُوِّ المَكانِ ، ثُمَّ خَلَعَ مِعْطَفَهُ وَنَحّى جانِباً المِنْضَدَةَ الَّتي كانَتْ تَتَوَسَّطُ الحُجْرَةَ ، وَأزاحَ السَّجّادَةَ الَّتي تَحْتَها . وَرَأَيْناهُ يَرْفَعُ قِطْعَةً مُرَبَّعَةً مِنَ الأَرْضيَّةِ الخَشَبيَّةِ ، فَظَهَرَتْ فَجْوَةٌ ، وَأضاءَ مِصْباحاً صَغيراً

كانَ بِيَدِهِ ، وَأَخَذَ يَنْزِلُ في الفَجْوَةِ حَتّى اخْتَفى مِنْ أمامِنا .

وَأَمْسَكَ هُولْمز بِمُسَدَّسِهِ ، وَأَسْرَعْنا نَحْوَ الحُفْرَةِ وَنَظَرْنا داخِلَها، فَأَحَسَّ إيڤانز بِوُجودِنا ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ الغَضَبِ وَالاِسْتِياءِ ، وَلٰكِنَّهُ تَظاهَرَ بِالهُدوءِ وَهُوَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ مِنَ الحُفْرَةِ ، وَيَقولُ : « لَقَدْ غَلَبْتَني ، يا هُولْمز ؛ فَقَدْ كُنْتُ واثِقًا مُنْذُ الوَهْلَةِ الأولى بِأَنَّ أَكاذيبي لَنْ تَخْدَعَكَ .» وَفَجْأَةً أَحْسَسْتُ بِضَرْبَةٍ خاطِفَةٍ مُؤْلِمَةٍ تُصيبُ قَدَمي مِنْ جَرّاءِ طَلْقَةِ مُسَدَّسٍ ، فَفَقَدْتُ تَوازُني وَهَوَيْتُ إلى الأَرْضِ . وَسَرْعانَ ما شاهَدْتُ إيڤانز يَهْوي هُوَ الآخَرُ مُضَرَّجًا بِالدِّماءِ ، بَعْدَ أَنْ أَمْطَرَهُ هُولْمز بِوابِلٍ مِنَ الطَّلَقاتِ أَصابَتْهُ في كَتِفِهِ فَشَلَّتْ حَرَكَتَهُ .

تَقَدَّمَ هُولْمز مِنّي ، وَانْحَنى عَلَيَّ بِرِفْقٍ وَهُوَ يَقولُ : « أَرْجو أَنْ لا تَكونَ إِصابَتُكَ جَسيمَةً ، يا واطْسُن .»

وَكانَتْ عَيْناهُ مُغْرَوْرِقَتَيْنِ بِالدُّموعِ وَهُوَ يُحاوِلُ أَنْ يُضَمِّدَ جُرْحي بِرِباطٍ كانَ مَعَهُ . أَمّا أَنا فَلَمْ أَكُنْ مُهْتَمًّا بِإِصابَتي هٰذِهِ بِقَدْرِ اهْتِمامي بِنَجاحِ مُهِمَّتِهِ ، فَقُلْتُ : « الأَمْرُ بَسيطٌ ، يا هُولْمز ، لَيْسَ سِوى جُرْحٍ سَطْحِيٍّ .» وَرَدَّ عَلَيَّ بَعْدَ أَنْ أَكْمَلَ لَفَّ الرِّباطِ حَوْلَ قَدَمي : « الحَمْدُ لِلّٰهِ ! إِنَّهُ جُرْحٌ سَطْحِيٌّ وَالرَّصاصَةُ لَمْ تَنْفُذْ إلى العَظْمِ .»



وَحَدَجَ إيڤانز بِبَصَرِهِ وَقالَ : « يا لَكَ مِنْ مَحْظوظٍ ! لَوْ أنَّ صَديقي هذا قُتِلَ ، لَخَرَجْتَ مِنْ هُنا جُثَّةً هامِدَةً !»

وَأعانَني عَلى الوُقوفِ ، وَقَدِ اسْتَنَدْتُ إلَيْهِ ، وَنَظَرْنا داخِلَ الحُفْرَةِ ، وَ كانَتْ لا تَزالُ مُضاءَةً بِمِصْباحِ إيڤانز ، فَوَجَدْنا مِنْضَدَةً رُصَّتْ فَوْقَها رُزَمٌ مِنَ الوَرَقِ وَالزُّجاجاتِ بِجانِبِ آلَةٍ مُتَوَسِّطَةِ الحَجْمِ ، فَسَألْتُ هُولْمز : « ما هذا ؟»

أجابَني : « هذِهِ آلَةُ طِباعَةٍ لِتَزْييفِ النُّقودِ الوَرَقِيَّةِ .»

وَتَدَخَّلَ إيڤانز قائلاً : « نَعَمْ ، هذِهِ آلَةُ طِباعَةٍ كَما ذَكَرْتَ، وَكانَ بِرِسْكُوت يَسْتَخْدِمُها في تَزْييفِ النُّقودِ الوَرَقِيَّةِ ، وَهذِهِ الأوْراقُ المَرْصوصَةُ بِجانِبِها هِيَ عُمْلاتٌ تَمَّ طَبْعُها ، وَقيمَةُ كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْها مِئَةٌ مِنَ الجُنَيْهاتِ ، يُمْكِنُ بِها خِداعُ أيِّ إنْسانٍ ؛ نَظَراً لِدِقَّةِ إتْقانِ تَزْييفِها !»

وَنَظَرَ إيڤانز إلى هُولْمز مُسْتَعْطِفاً وَقالَ : « هيّا ، يا سَيِّدي ، نَتَقاسَمْ هذِهِ الأوْراقَ ، وَلْيَذْهَبْ كُلٌّ مِنّا في طَريقِهِ ؛ فَلا أحَدَ يَرانا الآنَ .»

رَدَّ عَلَيْهِ هُولْمز ساخِراً : « نَحْنُ لا نَفْعَلُ هذا في بِلادِنا ! لَقَدْ أطْلَقْتَ النّارَ ، يا إيڤانزَ ، مُنْذُ عِدَّةِ سَنَواتٍ عَلى هذا المُزَيِّفِ ، أ لَيْسَ

كَذلِكَ ؟»

أجابَ الرَّجُلُ : « بَلى ، وَسُجِنْتُ بِسَبَبِ ذلِكَ خَمْسَ سَنَواتٍ ، في الوَقْتِ الَّذي كانَ يَنْبَغي فيهِ أَنْ يُقَدَّمَ إِلَيَّ وِسامٌ مَلَكِيٌّ ؛ لأَنّي خَلَّصْتُ البِلادَ مِنْ هذا الأَفّاقِ المُزَيِّفِ !»

وَضَحِكَ هُولْمز لِكَلامِهِ ، وَلكِنَّ الرَّجُلَ واصَلَ كَلامَهُ قائِلاً : «كانَ في إِمْكاني أَنْ أَقْتُلَ غارِيدِب وَلكِنِّي لَمْ أَفْعَلْ . وَكَما تَرى لَمْ أَسْتَخْدِمْ هذِهِ الآلَةَ في التَّزْييفِ وَإِغْراقِ الأَسْواقِ بِإِنْتاجِها ، وَلِهذا فَإِنّي أَرْجوكَ ، يا سَيِّدُ هُولْمز ، أَنْ تُطْلِقَ سَراحي .»

رَدَّ عَلَيْهِ هُولْمز قائِلاً : « هذا لَيْسَ مِنْ شَأْني ، فَأَنْتَ الآنَ مُتَّهَمٌ بِالشُّروعِ في قَتْلِ صَديقي .»

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ وَقالَ : « أَرْجو ، يا سَيِّدُ واطْسُن ، الاتِّصالَ بِسكُوتْلانْد يارْد ، فَهُمْ في انْتِظارِ مُكالَمَةٍ مِنّا .»

تِلْكَ هِيَ الحَقائِقُ وَراءَ قِصَّةِ إِيڤانز السَّفّاحِ الأَمْريكِيِّ . أَمّا ناثان فَقَدْ عَلِمْنا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ احْتِمالَ هذِهِ الصَّدْمَةِ عِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ بِرْمِنْغهام . وَهُوَ الآنَ يُعالَجُ في أَحَدِ المُسْتَشْفَياتِ الخاصَّةِ في لَنْدَن .

أَخيراً شَعَرَ رِجالُ سكُوتْلانْد يارْد بِارْتِياحٍ عَظيمٍ لِعُثورِهِمْ عَلى

آلَةِ التَّزْيِيفِ ، بَعْدَ أنْ كادَ اليَأسُ يَسْتَوْلي عَلَيْهِمْ . وَقُدِّمُ إيقَانز لِلْمُحاكَمَةِ بِتُهْمَةِ الشُّروعِ في قَتْلي ، وَدَخَلَ السِّجْنَ مَرَّةً أخرى .

مُغامَرَةُ وِيسْتِريا لودْج

كانَ يَوْماً عاصِفاً في أواخِرِ أيّامِ شَهْرِ مارِس ، وَكُنّا نَتَناوَلُ طَعامَ الغَداءِ عِنْدَما تَلَقّى شِرْلوك هُولمز بَرْقِيَّةً جاءَ فيها : « وَقَعَ لِيَ الآنَ حادِثٌ غَريبٌ . هَلْ لي أنْ أحْضُرَ لِمُقابَلَتِكَ . سكُوت إكِلز – مَكْتَبُ بَريدِ تشيرنغ كروس .»

وَبَعْدَ قَليلٍ سَمِعْنا وَقْعَ أقْدامٍ عَلى السُّلَّمِ ، فَقالَ هُولمز : « ها هُوَ ذا صاحِبُ البَرْقِيَّةِ قَدْ جاءَ .»

وَدَخَلَ الرَّجُلُ ، وَكانَ شَيْخاً وَقوراً طَويلَ القامَةِ بَديناً .

بَدَأ الرَّجُلُ حَديثَهُ فَقالَ : « وَقَعَ لِيَ اليَوْمَ ، يا سَيِّدُ هُولمز ، حادِثٌ غَريبٌ وَ مُزْعِجٌ لِلْغايَةِ ، فَبادَرْتُ بِالحُضورِ إلَيْكَ لِكَيْ تُفَسِّرَهُ لي .»

وَطَلَبَ مِنْهُ هُولمز أنْ يَسْتَريحَ ثُمَّ يَقُصَّ عَلَيْنا كُلَّ شَيْءٍ بِالتَّفْصيلِ ؛

فَقالَ الرَّجُلُ : « لَيْسَ هُناكَ جَريمَةٌ فيما شاهَدْتُ ، فَحينَما اسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُ أشْياءَ غَريبَةً ، لِذلِكَ رَأَيْتُ أنْ أخْرُجَ مِنَ البَيْتِ في الحالِ . وَتَوَجَّهْتُ إلى مَكْتَبِ التَّأجيرِ فَعَرَفْتُ مِنْهُ أنَّ جارْسيا قَدْ دَفَعَ إيجارَ « وِيسْتِريا لُودْج » لِعِدَّةِ أشْهُرٍ مُقَدَّماً .»

ضَحِكَ هُولْمز وَقالَ : « يا سَيِّدي ، لا تَبْدَأ القِصَّةَ مِنْ نِهايَتِها !



بَلْ رَتِّبِ الأَفْكارَ وَابْدَأْ مِنَ البِدايَةِ .» وَفي أَثْناءِ ذلِكَ حَضَرَ ضابِطٌ مِنَ الشُّرْطَةِ يُدْعى بِينز ، فَرَحَّبَ بِهِ هُولْمز وَدَعاهُ لِلْجُلوسِ .

وسَأَلَ الضَّابِطُ إكِلْز : « أَنْتَ السَّيِّدُ سكُوت إكِلْز ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟»

أجابَ الرَّجُلُ : « بَلى .»

قالَ الضّابِطُ : « إنِّي أَتعَقَّبُكَ مُنْذُ الصَّباح ؛ لأَنَّنا نَوَدُّ أَنْ نَسْتَجْوِبَكَ بِشَأْنِ مَقْتَلِ السَّيِّدِ جارْسيا ، الَّذي يَقْطُنُ البَيْتَ المَعْروفَ بِاسْمِ ويسْتِريا لُودْج .»

حينَئِذٍ بَدا عَلى إكِلْز الانْزِعاجُ ، وَسَأَلَ الضّابِطَ عَنْ تَفاصيلِ هذا الحادِثِ ؛ فَأَجابَهُ الضّابِطُ : « لَقَدْ عُثِرَ عَلى جارْسيا مَقْتولاً في العَراءِ ، وَيَبْدو أَنَّ الجُناةَ قَدْ تَمكَّنوا مِنْ قَتْلِهِ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ !»

قالَ هُولْمز : « كانَ ضَيْفي يوشِكُ أَنْ يَقُصَّ عَلَيْنا ما حَدَثَ في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ ، لَوْلا حُضورُكَ يا سَيِّدي . » ثُمَّ طَلَبَ إلى إكِلْز أَنْ يَتمالَكَ أَعْصابَهُ ، وَ يَقُصَّ عَلَيْنا كُلَّ ما يَعْرِفُهُ عَنْ هذا الحادِثِ .

بَدَأَ الرَّجُلُ حَديثَهُ بِصَوْتٍ هادِئٍ فَقالَ : « أنا رَجُلٌ عَزَبٌ ، وَلي كَثيرٌ مِنَ الأَصْدِقاءِ ، أَحَدُهُمْ مُوَظَّفٌ مُتَقاعِدٌ اسْمُهُ ميلفيل يَعيشُ في

كنزنغتون ، وَقَدْ دَعاني هذا الصَّديقُ إلى بَيْتِه مُنْذُ عِدَّةِ أسابيعَ ، وَلَبَّيْتُ دَعْوَتَهُ . وَهُناكَ تَعَرَّفْتُ على زائرٍ آخرَ يُدْعى السَّيِّدَ جارْسيا ، يَعْمَلُ مُوَظَّفاً بِالسِّفارَةِ الإسْبانِيَّةِ في لَنْدَن ، وَيَبْدو أنَّهُ اسْتَلْطَفَني فَجاءَ لِزِيارَتي في بَيْتي بِمَدينَةِ لي ، فَرَحَّبْتُ بِهِ أَجْمَلَ تَرْحيبٍ . وَعَرَفْتُ أَنَّ لَهُ خادِماً إسبانِيًّا مُخْلِصاً وَآخَرَ طَبَّاخاً مِنْ هُنودِ أمْريكا . ثُمَّ دَعاني لِقَضاءِ بِضْعَةِ أَيّامٍ في بَيْتِهِ المَعْروفِ بِاسْمِ وِيسْتِريا لُودْج .»

وَأَشْعَلَ الرَّجُلُ سيجارًا ، ثُمَّ واصَلَ الكَلامَ : « لَبَّيْتُ الدَّعْوَةَ ، وَاسْتَأْجَرْتُ عَرَبَةً تَوَجَّهْتُ بِها إلى بَيْتِ الرَّجُلِ ، وَهُوَ يَقَعُ في مِنْطَقَةِ أوكْسشُوت القَريبَةِ مِنْ إيشر ، الَّتي تَبْعُدُ حَوالى ثَلاثَةِ كيلو مِتْراتٍ عَنْ لَنْدَن . وَعِنْدَما وَصَلْتُ اسْتَقْبَلَني غارْسيا عَلى بابِ وِيسْتِريا لُودْج ، وَكانَ بَيْتاً كَبيراً مَبْنِيًّا عَلى الطِّرازِ القَديمِ ، وَرَحَّبَ بي تَرْحيباً حارًّا ، وَأَرْشَدَني الخادِمُ الإسْبانِيُّ إلى غُرْفَةِ النَّوْمِ الَّتي أَعِدَّتْ لي . وَكانَ البَيْتُ كَئيباً لا يُسْمَعُ فيهِ صَوْتٌ ، وَيُخَيِّمُ الحُزْنُ في أَرْجائِهِ . وَقَدْ بَذَلَ غارْسيا قُصارى جَهْدِهِ لِلاحْتِفاءِ بي ، غَيْرَ أَنَّ الطَّعامَ الَّذي قُدِّمَ لَنا عَلى العَشاءِ لَمْ يَكُنْ شَهِيًّا ، وَلَمْ يُحْسِنِ الخادِمُ تَقْديمَهُ إلَيْنا ؛ مِمّا جَعَلَني أُفَكِّرُ في قَطْعِ الزِّيارَةِ في الصَّباحِ، وَالعَوْدَةِ إلى بَيْتي .

« وَبَيْنَما نَحْنُ جُلوسٌ ، أَحْضَرَ الخادِمُ إلى صاحِبِ البَيْتِ رِسالَةً

أخَذَ يقْرأها في انْتِباهٍ شَديدٍ ، وَقَدْ قَطَّبَ ما بين جَبينِه ، ولَمّا انْتَهى مِنْ قَراءتِها أخَذَ يُدَخِّنُ سيجاراً في صَمْتٍ وَ إطْراقٍ . وَما كادَ اللَّيْلُ يَنْتَصِفُ حَتّى اسْتَأذَنَ لِيَنامَ . وَتَوَجَّهْتُ إلى غُرْفَتي وَأَلْقَيْتُ بِنَفْسي في الفِراشِ ، وَلَمْ أَلْبَثْ أنِ اسْتَغْرَقْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ لَمْ أفِقْ مِنْهُ إلا في الضُّحى . وَدَقَقْتُ الجَرَسَ لِيَأتِيَ الخادِمُ ، وَلكِنْ لَمْ يَحْضُرْ أحَدٌ ، فَلَبِسْتُ مَلابِسي عَلى عَجَلٍ وَنَزَلْتُ إلى الطّابَقِ الأرْضِيِّ ، فَلَمْ أصادِفْ أحَداً وَلَمْ أسْمَعْ صَوْتاً أوْ أشاهِدْ حَرَكَةً في أيِّ مَكانٍ مِنَ البَيْتِ . وَنادَيْتُ بِصَوْتٍ عالٍ عَلى الخادِمِ مَرَّةً وَعَلى سَيِّدِه مَرَّةً أخْرى دونَ جَدْوى ، وَطَرَقْتُ بابَ الغُرْفَةِ الَّتي يَنامُ فيها غارْسيا فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ أحَدٌ ، فَفَتَحْتُ بابَها فَوَجَدْتُها خالِيَةً وَفِراشَ السَّريرِ مُرَتَّباً لَمْ يُسْتَعْمَلْ طَوالَ اللَّيْلِ . وَأدْرَكْتُ أنَّ غارْسيا وَخادِمَيْه قَدْ غادَروا البَيْتَ ؛ فَكانَتْ نِهايَةَ زِيارَتي لِويسْتِريا لُودْج .»

وَنَظَرَ هُولْمز إلى الرَّجُلِ بِاهْتِمامٍ ، وَسَألَهُ : « ماذا فَعَلْتَ بَعْدَ ذلِكَ ؟»

أجابَ : « غَضِبْتُ غَضَباً شَديداً ، وَاعْتَبَرْتُ ما حَدَثَ إهانَةً لي ؛ فَأسْرَعْتُ بِإعْدادِ حَقيبَتي وَغادَرْتُ البَيْتَ في الحالِ . وَقَرَّرْتُ أنْ أتَّجِهَ إلى مَكْتَبِ التَّأجيرِ ، وَهُناكَ سَألْتُ عَنْ غارْسيا ، وَقَدْ ظَنَنْتُ أنَّهُ هَرَبَ دونَ أنْ يَدْفَعَ الإيجارَ ، وَعَرَفْتُ أنَّ الرَّجُلَ قَدْ دَفَعَ الإيجارَ لِعِدَّةِ

أشْهُرٍ مُقَدَّماً .»

وَعُدْتُ إلى لَنْدَن ، وَعَرَّجْتُ عَلى السِّفارَةِ الإسْبانِيَّةِ لِكَيْ أسْأَلَ عَنْ غارْسيا ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعْروفًا هُناكَ . وَتَوَجَّهْتُ إلى البَيْتِ الَّذي تَعَرَّفْتُ فيهِ إلَيْهِ فَلَمْ يُفِدْني أحَدٌ بِشَيْءٍ . وَأخيراً رَأَيْتُ أنْ أتَّصِلَ بِكَ بِناءً عَلى نَصيحَةِ أحَدِ الأصْدِقاءِ .»

سَكَتَ الرَّجُلُ قَليلاً ثُمَّ اتَّجَهَ إلى الضّابِطِ بِينز قائِلاً : « تِلْكَ هِيَ الحَقيقَةُ كَما أعْرِفُها ، يا سَيِّدي ، وَلَيْسَ لَدَيَّ أيَّةُ مَعْلوماتٍ عَنْ غارْسيا أوْ حاشِيَتِهِ .»

قالَ الضّابِطُ : « نَحْنُ مُتأكِّدونَ مِنْ هذا ، يا سَيِّدُ إكِلْز ، وَلكِنْ أوَدُّ أنْ تَذْكُرَ لَنا ما فَعَلَهُ غارْسيا ، بَعْدَ أنْ قَرَأَ الرِّسالَةَ الَّتي سَلَّمَها لَهُ الخادِمُ .»

قالَ الرَّجُلُ : « ضَغَطَ عَلَيْها ، يا سَيِّدي ، بِيَدِهِ ثُمَّ أَلْقى بِها في النّارِ .»

وَأخْرَجَ الضّابِطُ بِينز وَرَقَةً مِنْ جَيْبِهِ ، وَقالَ : « تِلْكَ هِيَ الرِّسالَةُ الَّتي تَتَكَلَّمُ عَنْها ، وَجَدْتُها بِجانِبِ المِدْفَأةِ سَليمَةً ؛ لأنَّ غارْسيا لَمْ يُحْسِنْ إلْقاءَها فيها .» وَقَرَأَ الرِّسالَةَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ ، وَقَدْ جاءَ فيها :

« نُذَكِّرُكَ بِالألْوانِ الَّتي اتَّفَقْنا عَلَيْها : الأخْضَرُ وَالأبْيَضُ . الأخْضَرُ مَفْتوحٌ ، وَالأبْيَضُ مُغْلَقٌ . السُّلَّمُ الرَّئيسِيُّ ، المَمَرُّ الأوَّلُ ، البابُ السّابِعُ إلى اليَمينِ لَوْنُهُ أخْضَرُ — د .» وَالرِّسالَةُ مُوَجَّهَةٌ إلى غارْسيا في وِيسْتِرِيا لُودْج ، وَقَدْ كُتِبَتْ بِخَطِّ امْرَأَةٍ .»

سَأَلَ إكِلْز الضّابِطَ : « ما الَّذي حَدَثَ لِغارْسيا ؟»

أجابَ الضّابِطُ : « وَجَدْناهُ صَباحَ اليَوْمِ مُهَشَّمَ الرَّأسِ مَقْتولاً في مَكانٍ مَهْجورٍ بِأوكسْشُوت ، عَلى بُعْدِ ثَلاثَةِ كيلو مِتْراتٍ مِنْ بَيْتِهِ . وَأعْتَقِدُ أنَّ الجَريمَةَ لَمْ تَقَعْ بِغَرَضِ السَّرِقَةِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ كانَ في مَكانِهِ حَتّى النُّقودُ . وَلكِنَّنا وَجَدْنا في جَيْبِهِ خِطابَكَ الَّذي أرْسَلْتَهُ ، يا سَيِّدُ إكِلْز ، وَمِنْهُ عَرَفْنا اسْمَهُ وَعُنْوانَهُ ، فَذَهَبْنا إلى بَيْتِهِ وَبَحَثْنا عَنْكَ هُناكَ فَلَمْ نَجِدْكَ ، غَيْرَ أنَّ البَرْقِيَّةَ الَّتي أرْسَلْتَها إلى السَّيِّدِ هُولْمز قَدْ أرْشَدَتْنا إلى مَكانِكَ ، وَ كُلُّ ما أريدُهُ مِنْكَ أنْ تَحْضُرَ مَعي إلى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ ؛ لِنَسْمَعَ أقْوالَكَ في هذا المَوْضوعِ .» وَ خَرَجَ الضّابِطُ وَ مَعَهُ إكِلْز .

في المَساءِ وَأثْناءَ تَناوُلِ الشّاي ، قالَ هُولْمز : « ما رَأْيُكَ ، يا واطْسُن ، في هذِهِ المُشْكِلَةِ ؟»

أجَبْتُهُ : « أعْتَقِدُ أنَّ لِلْخادِمَيْنِ صِلَةً بِهذا الحادِثِ ، وَاخْتِفاؤُهُما

يُؤَيِّدُ هذا الرَّأيَ .»

وَصَمَتَ هُولمْز قَليلاً ثُمَّ قالَ : « مِمّا يُحَيِّرُني ، يا واطْسُن ، أنْ يَسْعى شابٌّ ذَكِيٌّ مِثْلُ غارْسيا لِصَداقَةِ كَهْلٍ يَبْدو عَلَيْهِ الغَباءُ مِثْلِ إكِلْز ، وَأنا أَرَجِّحُ أنَّهُ دَعاهُ إلى بَيْتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ؛ لِيَتَّخِذَ مِنْهُ شاهِداً عَلى وُجودِهِ مَعَهُ في ذلِكَ الوَقْتِ . إذاً لا بُدَّ أنَّهُ كانَتْ ثَمَّةَ مُؤامَرَةٌ مُرَتَّبَةٌ لِارْتِكابِ جَريمَةٍ ما .»

وَسَأَلْتُ هُولمْز عَنِ الأَلْوانِ الَّتي جاءَ ذِكْرُها بِالرِّسالَةِ ، فَقالَ : « قَدْ تَكونُ إشارَةً لأَمْرٍ ما . وَعَلى أَيَّةِ حالٍ سَوْفَ نَعْرِفُ الكَثيرَ عِنْدَما يَصِلُ الرَّدُّ عَلى البَرْقِيَّةِ الَّتي أَرْسَلْتُها مُنْذُ ساعَةٍ .»

وَجاءَ الرَّدُّ بَعْدَ قَليلٍ في بَرْقِيَّةٍ مُطَوَّلَةٍ ، تَحْتَوي عَلى مَجْموعَةٍ مِنَ الأَسْماءِ الغَريبَةِ لَمْ أَفْهَمْ مِنْها شَيْئاً ، وَلكِنَّ هُولمْز أَوْضَحَ لي فيما بَعْدُ أَنَّهُ أَرْسَلَ بَرْقِيَّةً إلى مَكْتَبِ تَأجيرِ المِنْطَقَةِ ؛ فَأَرْسَلَتْ هذا الرَّدَّ ، وَهُوَ يَحْتَوي عَلى قائِمَةٍ بِأَسْماءِ البُيوتِ الكَبيرَةِ الواقِعَةِ في مِنْطَقَةِ أوكْسشُوت .

وَفي المَساءِ ذَهَبْنا إلى قَرْيَةِ إيشِر بِصُحْبَةِ ضابِطِ الشُّرْطَةِ ، وَنَزَلْنا بِالفُنْدُقِ المَوْجودِ . وَبَعْدَ قَليلٍ تَوَجَّهْنا إلى وِيسْتِريا لُودْج ، وَكادَ الظَّلامُ يَكونُ مُنْتَشِراً لَوْلا ضَوْءٌ خافِتٌ يَنْبَعِثُ مِنْ إحْدى نَوافِذِ

الطّابَقِ الأَرْضِيِّ لِلْبَيْتِ .

وَ قالَ الضّابِطُ : « بِالبَيْتِ أحَدُ رِجالِ الشُّرْطَةِ .»

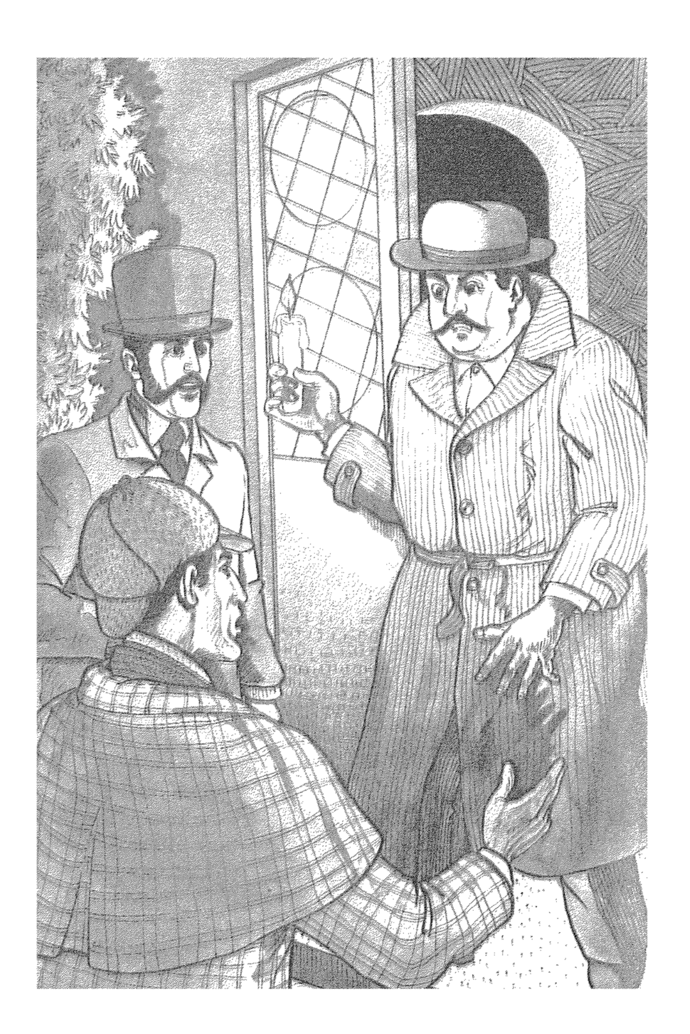
ثُمَّ ذَهَبَ إلى النّافِذَةِ وطَرَقَ عَلى زُجاجِها ، فَرأَيْنا رَجُلَ الشُّرْطَةِ يَهُبُّ مَذْعوراً ، ثُمَّ فَتَحَ لَنا البابَ وَبِيَدِهِ شَمْعَةٌ مُضاءَةٌ ، فَسَأَلَهُ الضّابِطُ عَنْ سَبَبِ اضْطِرابِهِ ، فَقالَ : « لَقَدْ طالَ انْتِظاري في هذا المَكانِ المُنْعَزِلِ ، وَلا أَسْتَطيعُ أنْ أَحْتَمِلَ ما يَحْدُثُ بَعْدَ الآنَ ! وَعِنْدَما طَرَقْتَ النّافِذَةَ ، يا سَيِّدي ، أَحْسَسْتُ أنَّ الشَّيْطانَ قَدْ عادَ مَرَّةً أخْرى !»

وَاسْتَفْسَرَ الضّابِطُ عَمّا يَقْصِدُهُ ، فَقالَ الرَّجُلُ : « لَقَدْ جاءَ الشَّيْطانُ إلى النّافِذَةِ مُنْذُ ساعَتَيْنِ ! وَكانَ وَجْهُهُ قَبيحاً ، وَلَهُ عَيْنانِ واسِعَتانِ وَأَسْنانٌ صَفْراءُ بارِزَةٌ كَأَنْيابِ الحَيَوانِ المُفْتَرِسِ .»

قالَ الضّابِطُ : « لا يَنْبَغي عَلى رَجُلٍ مِنَ الشُّرْطَةِ أنْ يَتَحَدَّثَ بِهذا الأُسْلوبِ !»

قالَ هُولْمز : « لِنَبْحَثِ الأَمْرَ .»

وَدَخَلْنا المَطْبَخَ ، فَوَجَدْناهُ غُرْفَةً كَبيرَةً مُظْلِمَةً خَلْفَ البَيْتِ ، بِوَسَطِها مِنْضَدَةٌ فَوْقَها أطْباقٌ لا يَزالُ بِها آثارُ الطَّعامِ . وَلاحَظْنا شَيْئاً



غَرِيباً فَوْقَ دولابِ المَطْبَخِ ؛ كانَتْ ثَمَّةَ دُمْيَةٌ سَوْداءُ مَكْسُوَّةٌ بِالرِّيش، شُكِّلَتْ عَلى هَيْئَةِ شَخْصٍ حَوْلَهُ حِزامٌ مِنَ القَواقِعِ البَحْرِيَّةِ ، كَما وَجَدْنا بِجِوارِها بَقايا طائِرٍ كَبيرٍ أَبْيَضَ مَكْسُوٌّ بِالرِّيشِ ، انْتُزِعَ مِنْهُ رَأْسُهُ وَرِجْلاهُ وَجَناحاهُ ، وَكانَتْ مُبَعْثَرَةً بِجانِبِهِ .كَما وَجَدَ الضّابِطُ تَحْتَ المِنْضَدَةِ دَلْواً مَمْلوءَةً بِالدِّماءِ ، وَبَعْضَ العِظامِ المُحْتَرِقَةِ . وَتَجَوَّلْنا في البَيْتِ فَلَمْ نَجِدْ شَيْئاً يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ فَانْصَرَفْنا ، وَذَهَبَ ضابِطُ الشُّرْطَةِ إِلى عَمَلِهِ .

وَمَضَتْ عِدَّةُ أَيّامٍ كانَ فيها هُولْمِز يَقومُ بِمُفْرَدِهِ بِزِيارَةٍ لِقَرْيَتَيْ إيشِر و أوكْسشُوت مُتَظاهِراً بِأَنَّهُ عالِمٌ يَجْمَعُ النَّباتاتِ النّادِرَةَ ؛ حَتّى تُتاحَ لَهُ الفُرْصَةُ لِلتَّحَدُّثِ إِلى أَهْلِ القَرْيَةِ .

وَذاتَ صَباحٍ قَرَأْتُ في إِحْدى الصُّحُفِ هذا العُنْوانَ : «كَشْفُ غُموضِ حادِثِ أوكْسشُوت وإلْقاءُ القَبْضِ عَلى القاتِلِ!»

فَلَمّا قَرَأْتُهُ عَلى هُولْمز صاحَ مُتَعَجِّباً : « يا إِلهي ! هَلْ تَمَكَّنَ الضّابِطُ مِنَ الوُصولِ إِلى القاتِلِ بِهذِهِ السُّرْعَةِ ؟!»

وَسَأَلْتُ هُولْمز عَمّا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ مِنْ مَعْلوماتٍ أَثْناءَ حَديثِهِ مَعَ أَهْلِ القَرْيَةِ ، فَقالَ : « إِنَّ العُثورَ عَلى جُثَّةٍ مُهَشَّمَةٍ وَمُلْقاةٍ بَيْنَ الأَشْجارِ قَدْ أَثارَ اهْتِمامَهُمْ ، وَمِنَ الواضِحِ أَنَّ هذِهِ الجَريمَةَ البَشِعَةَ ارْتُكِبَتْ

مِنْ أجْل السَّرِقَةِ . وَحامَتِ الشُّبهاتُ حَوْلَ الخادِمِ وَالطَّبّاخ بِسَبَبِ اخْتِفائِهِما بَعْدَ الحادِثِ ، وَتَمَكَّنَ رِجالُ الشُّرْطَةِ مِنْ إلْقاءِ القَبْضِ عَلى الطَّبّاخِ الَّذي كانَ مُخْتَبِئًا في أحَدِ الأماكِنِ المَهْجورَةِ ، وَ وجَّهوا إلَيْهِ تُهْمَةَ قَتْلِ غارْسيا .»

وَرَأى هُولْمز أنْ نَتَوَجَّهَ لِمُقابَلَةِ الضّابِطِ بِينْز ، فَذَهَبْنا إلى بَيْتِهِ ، وَكانَ موشِكًا عَلى الخُروجِ ، فَقالَ لَهُ هُولْمز : « لَقَدْ قَرَأْنا ما نَشَرَتْهُ الصُّحُفُ اليَوْمَ بِشَأْنِ قَضِيَّةِ غارْسيا ، وَأرى أنَّكَ قَدْ تَعَجَّلْتَ الأمورَ . إنَّني بَحَثْتُ القَضِيَّةَ بِدِقَّةٍ ، وَيَبْدو أنَّكَ قَدْ أخْطَأتَ !»

قالَ الضّابِطُ : « فيمَ أخْطَأتُ ؟! وَعَلى أيَّةِ حالٍ ؛ لَكَ أسْلوبُكَ وَلي أسْلوبي .»

ثُمَّ أنْهى كَلامَهُ قائِلاً : « دَعْني أحَدِّثْكَ ، يا سَيِّدُ هُولْمز ، عَنْ هذا الطَّبّاخِ ؛ إنَّهُ رَجُلٌ قَوِيٌّ مُتَوَحِّشٌ ، كادَ يَبْتُرُ إصْبَعَ أحَدِ رِجالِ الشُّرْطَةِ ، عِنْدَ إلْقاءِ القَبْضِ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَتَحَدَّثُ الإنْجليزِيَّةَ بِصُعوبَةٍ، وَلَهُ صَوْتٌ كَصَوْتِ الحَيَوانِ !»

وَفي المَساءِ كُنّا جالِسَيْنِ في غُرْفَتِنا بِفُنْدُقِ القَرْيَةِ ، حينَ قالَ هُولْمز : « أعْتَقِدُ ، يا واطْسُن ، أنَّ غارْسيا كانَ يُخَطِّطُ لارْتِكابِ جَريمَةٍ ما ، وَلِذلِكَ دَعا سكُوت إكِلْز إلى بَيْتِهِ لِكَيْ يَتَّخِذَ مِنْهُ

شاهِداً ، وَأعْتَقِدُ أنَّهُ قُتِلَ أثْناءَ مُحاوَلتِهِ تَنْفيذَ جَريمَتِهِ . وَإنَّني أرَجِّحُ أنَّ الشَّخْصَ الَّذي كانَ غارْسيا يُخَطِّطُ لِلقَضاءِ عَلَيْهِ ، هُوَ الَّذي قَتَلَهُ.»

وَسَكَتَ قَليلاً ثُمَّ تابَعَ الكَلامَ : « أمّا سَبَبُ اخْتِفاءِ الخادِمَيْنِ فَمِنَ السَّهْلِ مَعْرِفَتُهُ ، فَقَدْ كانَ الجَميعُ مُشْتَرِكينَ في المُؤامَرَةِ الَّتي لَوْ كُتِبَ لَها النَّجاحُ ؛ لَعادَ الجَميعُ إلى وِيسْتِريا لُودْج ، وَاتَّخَذَ غارْسيا مِنْ وُجودِ سكُوت إكِلْز دَليلاً عَلى وُجودِهِ في البَيْتِ، وَبَراءَتِهِ مِنَ الحادِثِ المُرْتَكَبِ . أمّا إذا فَشِلَتِ الجَريمَةُ فَكانَ عَلى الخادِمَيْنِ أنْ يَخْتَبِئا في مَكانٍ مُنْعَزِلٍ ، لِتَدْبيرِ مُؤامَرَةٍ جَديدَةٍ .»

قُلْتُ مُعْتَرِضاً : « وَلِماذا إذاً عادَ أحَدُ الخادِمَيْنِ إلى وِيسْتِريا لُودْج ؟»

أجابَ هُولْمز : « رُبَّما يَكونُ هذا الخادِمُ قَدْ تَرَكَ في البَيْتِ شَيْئاً يَهُمُّهُ فَعادَ لِيأخُذَهُ . أمّا الرِّسالَةُ الَّتي وَصَلَتْ إلى غارْسيا وَ وُقِّعَتْ بِالحَرْفِ «د» فَإنّي أعْتَقِدُ أنَّ هذا الحَرْفَ هُوَ بِدايَةُ اسْمٍ لِسَيِّدَةٍ كانَتْ مُشْتَرِكَةً في المُؤامَرَةِ ، وَلكِنّي حَتّى الآنَ لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أسْتَدِلَّ عَلى البَيْتِ الَّذي أجِدُها فيهِ . وَاسْتَفْسَرْتُ عَنْ أصْحابِ البُيوتِ الكَبيرَةِ هُناكَ ؛ فَاسْتَرْعى انْتِباهي بَيْتٌ يُعْرَفُ بِاسْمِ «« هاي غِيبِل »» لا يَبْعُدُ كَثيراً عَنْ أوكْسشُوت ، وَقَدْ وُجِدَتْ جُثَّةُ غارْسيا في مَكانٍ

مُنْعَزِلٍ قَرِيبٍ مِنْهُ ، وَيَسكُنُهُ رَجُلٌ أَجْنَبِيٌّ يُدْعى هَنْدِرْسُون ، وَهُوَ واسِعُ الثَّراءِ يُحيطُ نَفْسَهُ بِعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الخَدَمِ ، بَعْضُهُمْ مِنْ جِنْسِهِ . وَ قَدْ تَمَكَّنْتُ مِنْ مُشاهَدَتِهِ فَوَجَدْتُهُ يَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ نَحْوَ الخَمْسينَ عاماً ، قَوِيَّ البِنْيَةِ ، حادَّ البَصَرِ، أَشْيَبَ الشَّعْرِ ، لَهُ شَخْصِيَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ ، يُلازِمُهُ سِكْرِتيرٌ خاصٌّ أَسْمَرُ البَشَرَةِ مُتَجَهِّمُ الوَجْهِ ، يُدْعى لُوكاس .»

وَسَكَتَ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ واصَلَ الكَلامَ : « أَمامَنا الآنَ مَجْموعَتانِ مِنَ الأَجانِبِ ، إِحْداهُما تُقيمُ في وِيسْتِرِيا لُودْج ، وَالأُخْرى تُقيمُ في هاي غِيبِل . وَأَعْتَقِدُ أَنَّنا إِذا تَمَكَّنّا مِنْ مَعْرِفَةِ العَلاقَةِ بَيْنَ المَجْموعَتَيْنِ عَرَفْنا سِرَّ هذِهِ القَضِيَّةِ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ لِلسَّيِّدِ هَنْدِرْسُون بِنْتَيْنِ صَغيرَتَيْنِ ، وَضَعَهُما تَحْتَ رِعايَةِ مُرَبِّيَةٍ إِنْجليزِيَّةٍ تُدْعى بيرِنْت، وَهِيَ سَيِّدَةٌ في الأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِها .»

وَسَأَلْتُ هُولْمز عَنْ كَيْفِيَّةِ تَوَصُّلِهِ لِهذِهِ المَعْلوماتِ ، فَقالَ : « لَقَدْ كانَ الحَظُّ حَليفي ، فَقَدِ الْتَقَيْتُ الرَّجُلَ الَّذي كانَ يُشْرِفُ عَلى حَديقَةِ البَيْتِ ، وَهُوَ إِنْجليزِيٌّ ، وَ قَدْ فَصَلَهُ هَنْدِرْسُون مِنَ العَمَلِ وَلكِنَّهُ لا يَزالُ عَلى عَلاقَةٍ بِخَدَمِ البَيْتِ ، وَهُوَ الَّذي يُطْلِعُني عَلى كَثيرٍ مِنَ الأَسْرارِ . وَقَدْ أَخْبَرَني هذا العامِلُ بِأَنَّ صاحِبَ البَيْتِ فَظٌّ غَليظُ القَلْبِ ، مَكْروهٌ مِنْ خَدَمِهِ الَّذينَ يُكِنّونَ لَهُ الكَراهِيَةَ

وَالاحْتِقارَ . وَأَخْبَرَني عَمّا يَدورُ في داخِلِ البَيْتِ ، وَأَنَّهُ يَحْتَوي عَلى جَناحَيْن ، تُقيمُ الأَسْرَةُ في أَحَدِهِما ، وَخُصِّصَ الآخَرُ لِلْخَدَمِ ، وَيَفْصِلُ الجَناحَيْنِ جِدارٌ بِهِ بابٌ واحِدٌ ، لا يَتعدّاهُ أَحَدٌ مِنَ الخَدَمِ إلّا الخَادِمَ الخاصَّ لِلسَّيِّدِ هَنْدرْسُون ، وَأَنَّ هذا السَّيِّدَ لا يَسْمَحُ لِبِنْتَيْهِ بِالخُروجِ إلّا نادِراً ، كَما أَنَّهُ لا يَخْرُجُ إلّا إذا كانَتْ هُناكَ حاجَةٌ مُلِحَّةٌ ، وَعِنْدَئِذٍ يَصْطَحِبُ مَعَهُ سِكْرِتيرَهُ الخاصَّ الَّذي يُلازِمُهُ مُلازَمَةَ الظِّلِّ لِصاحِبِهِ . وَ حَدَّثَني عامِلُ الحَديقَةِ أَنَّ السَّيِّدَ هَنْدرْسُون مَجْهولُ الهُوِيَّةِ ، وَلا يُعْرَفُ مِنْ أَيْنَ قَدِمَ ، وَقَدْ باعَ نَفْسَهُ لِلشَّيْطانِ مِنْ أَجْلِ المالِ ، وَلِذلِكَ فَهُوَ يُبْغِضُهُ مِنْ أَعْماقِ قَلْبِهِ . وَعَرَفْتُ مِنْهُ قَسْوَةَ الرَّجُلِ مَعَ خَدَمِهِ ، وَأَنَّهُ لا يَتَوَرَّعُ عَنْ ضَرْبِهِمْ بِالسِّياطِ !»

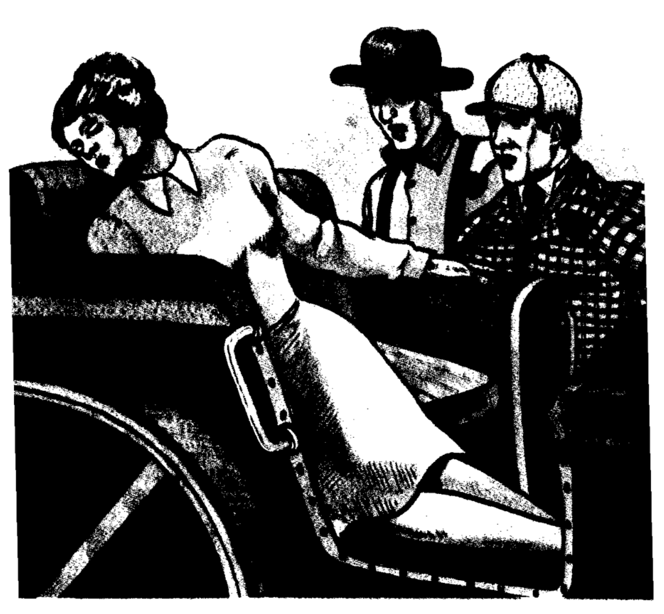
وَسَكَتَ هُولْمز قَليلاً رَيْثَما يُشْعِلُ غَلْيونَهُ ، ثُمَّ قالَ : « إنّي أرى ، يا واطْسُن ، أنَّ هؤلاءِ الخَدَمَ لا يُحِبّونَ سَيِّدَهُمْ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّ الخِطابَ الَّذي وَصَلَ إلى غارْسيا قَدْ بَعَثَ بِهِ أَحَدُ الخَدَمِ ، وَأَنَّهُ يَحْتَوي عَلى دَعْوَةٍ لِغارْسيا لِكَيْ يَبْدَأَ تَنْفيذَ خُطَّةٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْها ، وَرُبَّما كانَتِ المُرَبِّيَةُ بِيرِنْت هِيَ الَّتي كَتَبَتْ هذا الخِطابَ . وَمِنَ الواضِحِ أَنَّ المُؤامَرَةَ قَدْ فَشِلَتْ وَقُتِلَ غارْسيا ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ هذهِ المُرَبِّيَةَ قَد اشْتَرَكَتْ فيها . إذاً لا بُدَّ مِنْ الاتِّصالِ بِها ، وَاسْتِغْلالِ ما قَدْ يَكونُ لَدَيْها الآنَ مِنْ حِقْدٍ عَلى أَعْداءِ غارْسيا .»

وَتَبيَّنَ لَنا أنَّ بيرِنْت قَدِ اخْتَفَتْ في اللَّيْلَةِ الَّتي قُتِلَ فيها غارْسيا ، وَطَلَبَ هُولمْز مِنْ عامِلِ الحَديقَةِ أنْ يُشَدِّدَ مُراقَبَتَهُ لِلْبَيْتِ ، وَ يُبْلِغَنا بِما يَجِدُّ فيهِ مِنْ أمورٍ أوَّلاً بِأوَّلَ .

وَ بَيْنَما كُنّا جالِسَيْنِ بِغُرْفَتِنا في الفُنْدُقِ ، حَضَرَ عامِلُ الحَديقَةِ وَقالَ : « إنَّ هَنْدرسُون قَدْ غادَرَ البَيْتَ ، يا سَيِّدي ، وَمَعَهُ أسْرَتُهُ وَخَدَمُهُ ، أمّا المُرَبِّيَةُ فَقَدْ ساعَدْتُها عَلى الهَرَبِ ، وَهِيَ مَعي الآنَ بِالعَرَبَةِ أمامَ الفُنْدُقِ . »

وَنَزَلْنا لِمُقابَلَتِها ، وَكانَتْ في حالَةٍ بالِغَةٍ مِنَ الإعْياءِ ، وَتَكادُ تَكونُ فاقِدَةً لِلْوَعْيِ ، وَيَبْدو أنَّها خُدِّرَتْ . وَأخْبَرَنا عامِلُ الحَديقَةِ فَقال : « إنَّ خَدَمَ هَنْدرسُون قَدِ اصْطَحَبوها مَعَهُمْ ، وَهِيَ فاقِدَةُ الوَعْيَ ، إلى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الحَديدِيَّةِ ، وَحاوَلوا دَفْعَها إلى عَرَبَةِ القِطارِ ، وَلكِنَّها كانَتْ قَد عادَتْ إلى رُشْدِها فَقاوَمَتِ الخَدَمَ بِكُلِّ ما أوتيَتْ مِنْ قُوَّةٍ ، إلى أنْ غادَرَ القِطارُ المَحَطَّةَ ، فَأخَذْتُها مَعي في العَرَبَةِ وَجِئْتُ بِها إلَيْكَ يا سَيِّدي . »

وَساعَدْنا بيرِنْت عَلى الصُّعودِ إلى حُجْرَتِنا ، وَ وَضَعْناها في السَّريرِ لِتَسْتَريحَ ، وَقَدَّمْنا لَها كوباً مِنَ القَهْوَةِ السّاخِنَةِ لِكَيْ تَسْتَعيدَ نَشاطَها . وَأرْسَلَ هُولمْز إلى الضّابِطِ بينْز فَحَضَرَ بَعْدَ قَليلٍ ، وَقالَ



إنَّه كانَ يَتعَقَّبُ هَنْدرْسُون مُنْذُ البِدايَةِ ، وإنَّهُ كانَ مُخْتَبِئًا فَوْقَ الشَّجَرَةِ حينَما كانَ هُولْمز يُراقِبُ المَنْزِلَ . وَسَأَلَهُ هُولْمز عَنْ سَبَبِ إلْقائِهِ القَبْضَ عَلى الطَّبّاخِ ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ فَعَلَ ذلِكَ حَتّى يَعْتَقِدَ هَنْدرْسُون أَنَّهُ نَجا وَأَصْبَحَ آمِنًا ، وَأَنَّهُ لَجَأَ إلى هذِهِ الحيلَةِ حَتّى يُمْكِنَ مُقابَلَةُ بيرِنْت .

وَسَأَلَ هُولْمز الضّابِطَ عَنْ هَنْدرْسُون ، فَقالَ : « اِسْمُهُ الحَقيقِيُّ

جُوان مُوريلّلو ، وَيُعْرَفُ بِاسْمِ وَحْشِ سان بيدْرو . وَكانَ حاكِماً لِهذِهِ الوِلايَةِ ، وَكانَ فَظّاً قاسِياً ، وَظالِماً مُسْتَغِلّاً ، فَقامَتْ ضِدَّهُ ثَوْرَةٌ وَلكِنَّهُ تَمكَّنَ مِنَ الهَرَبِ بَعْدَ أَنْ نَهَبَ خِزانَةَ الدَّوْلَةِ ، وَاسْتَوْلى عَلى كُنوزِ بِلادِهِ ، ثُمَّ اخْتَفى عَنِ الأَنْظارِ تَماماً .»

وَكانَتْ بيرِنْت تُتابِعُ حَديثَنا ، فَقالَتْ : « إِنَّ خُصومَهُ لَمْ يَهْدَأْ لَهُمْ بالٌ حَتّى تَمَكَّنوا مُنْذُ عامٍ مَضى مِنَ العُثورِ عَلَيْهِ . أَمّا غارْسيا – ذلِكَ الرَّجُلُ العَظيمُ ، فَقَدْ قُتِلَ وَهُوَ يُحاوِلُ الفَتْكَ بِمُوريلّلو .»

ثُمَّ أَضافَتْ في حِنْقٍ : « إِنَّنا سَنُواصِلُ الجِهادَ حَتّى نَتَمَكَّنَ مِنَ القَضاءِ نِهائِيّاً عَلى هذا الوَحْشِ الكاسِرِ !»

وَسَأَلَها هُولْمز عَنْ سَبَبِ تَوَرُّطِها في مِثْلِ هذِهِ المُؤامَراتِ السِّياسِيَّةِ الَّتي تَخُصُّ بَلَداً أَجْنَبِيّاً ، وَهِيَ إِنْجليزِيَّةٌ ، فَقالَتْ : « إِنَّ هَنْدِرْسُون لِصٌّ وَسَفّاحٌ ؛ قَتَلَ وَظَلَمَ وَنَهَبَ ، وَلا بُدَّ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ العَدْلُ مَجْراهُ ، وَيَلْقى ما يَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِقابٍ ؛ جَزاءَ هذِهِ الجَرائِمِ البَشِعَةِ .»

وَسَأَلَها هُولْمز مَرَّةً أُخْرى عَنْ سَبَبِ تَدَخُّلِها في هذِهِ الأُمورِ ، فَقالَتْ : « سَوْفَ أَقُصُّ عَلَيْكَ كُلَّ شَيْءٍ يا سَيِّدي .»

وَبَدَأَتْ تَحْكي قِصَّتَها فَقالَتْ : « أَنا زَوْجَةُ فيكْتور دُورانْدو ، وَهُوَ

المُمَثِّلُ السِّياسِيُّ لِحُكومَةِ لَنْدَن في سان بيدْرو ، وَكانَ رَجُلاً نَبيلاً طَيِّباً ، وَقَدْ تَعارَفْنا هُنا وَ تَزَوَّجْنا ، وَلكِنَّ مُوريلّلو الحاكِمَ الجَبّارَ أرادَ أنْ يَسْتَغِلَّ زَوْجي فَلَمْ يُطِعْهُ ، لأَنَّهُ كانَ نَزيهاً شَريفاً ؛ فَحَقَدَ عَلَيْهِ وَدَبَّرَ حادِثاً لاِغْتِيالِهِ وَالاِسْتيلاءِ عَلى كُلِّ مُمْتَلَكاتِهِ .

«وَقامَتِ الثَّوْرَةُ وَهَرَبَ مُوريلّلو ، فَتَشَكَّلَتْ جَماعَةٌ سِرِّيَّةٌ لاِقْتِفاءِ أَثَرِهِ وَالقَضاءِ عَلَيْهِ ، وَاشْتَرَكْتُ في هذِهِ الجَماعَةِ . وَبَعْدَ بَحْثٍ مُضْنٍ تَمَكَّنّا في النِّهايَةِ مِنَ العُثورِ عَلَيْهِ ، حَيْثُ كانَ يَسْكُنُ في هاي غِيبِل بِأوكْسشُوت ، مُنْتَحِلاً اسْمَ هَنْدرسُون .

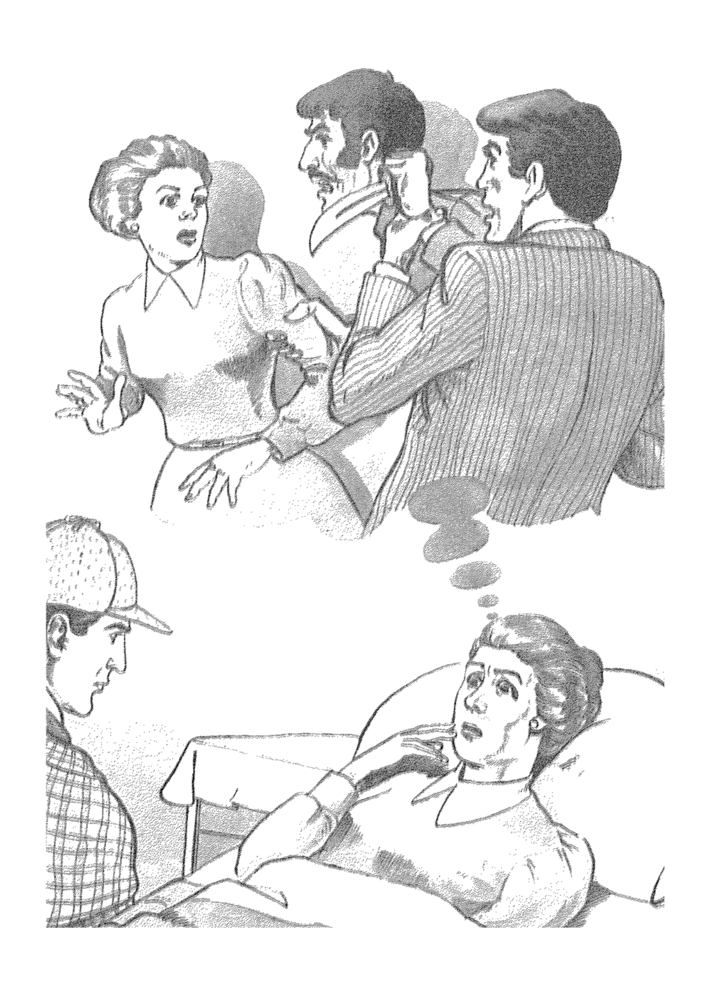
وَكَلَّفَني خُصومُ هذا الطّاغِيَةِ بِالاِنْضِمامِ إلى خَدَمِهِ في البَيْتِ ، وَتَمَكَّنْتُ مِنْ ذلِكَ ، وَدَخَلْتُ هاي غِيبِل مُرَبِّيَةً لاِبْنَتَيْ جُوان مُوريلّلو ، وَكُنْتُ أَبْتَسِمُ وَأُطيعُ الأوامِرَ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ اليَسيرِ التَّخْطيطُ لاِغْتِيالِهِ ، فَجاءَ غارْسيا وَخادِماهُ إلى المِنْطَقَةِ ، وَأَقاموا في وِيستِرْيا لُودْج ، الَّذي لا يَبْعُدُ كَثيراً عَنْ هاي غِيبِل . وَكانَ لُوكاس ، الخادِمُ الأمينُ لِمُوريلّلو يَتَوَلّى حِراسَتَهُ ، وَيُلازِمُهُ كَظِلِّهِ حَتّى في حُجْرَةِ النَّوْمِ .»

« وَفي لَيْلَةٍ ظَنَنْتُ أنَّ لُوكاس قَدْ خَرَجَ مِنَ البَيْتِ ، وَأَصْبَحَ مُوريلّلو بِغَيْرِ حِراسَةٍ ، فَبَعَثْتُ بِرِسالَةٍ عاجِلَةٍ إلى غارْسيا ، وَكُنْتُ قَدِ

اتَّفقْتُ مَعَهُ عَلَى أَنَّهُ إذا رَأى ضَوْءاً أَخْضَرَ ، فَهذا يَعْني أَنَّهُ يَسْتَطيعُ دُخولَ المَنْزِلِ ، لأنَّ الأَبْوابَ تَكونُ مَفْتوحَةً وَالطَّريقَ إلى مَخْدَعِ مُوريلّلو آمِنٌ .»

وَصَمَتَتْ بِيرِنْت هُنَيهَةً ، وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلاماتُ الأَسى وَالغَيْظِ عَلى وَجْهِها ، ثُمَّ عادَتْ لِتُكْمِلَ القِصَّةَ فَقالَتْ : « آهٍ يا سَيِّدي ! كانَ لُوكاس- مَعَ الأَسَفِ الشَّديدِ - مَوْجوداً بِالبَيْتِ لَمْ يُغادِرْهُ ، وَكانَ يُراقِبُ تَحَرُّكاتي فَرَأى الرِّسالَةَ في يَدي ، فانْقَضَّ عَلَيَّ وَانْتَزَعَها مِنّي ، وَدَفَعَني إلى غُرْفَةٍ وَأَغْلَقَ البابَ ، وَأَوْسَعَني لَكْماً وَسَبّاً ، وَكادَ يَقْضي عَلَيَّ بِخَنْجَرٍ في يَدِهِ لَوْلا أَنَّ مُوريلّلو جاءَ وَمَنَعَهُ. وَأَمْلى عَلَيَّ الرِّسالَةَ الَّتي بَعَثوا بِها إلى غارْسيا ، فَصَدَّقَ ما جاءَ بِها، وَحَضَرَ إلى هاي غِيبِل ، وَكانَ الرِّجالُ في انْتِظارِهِ ، فَتَمكَّنوا مِنِ اغْتِيالِهِ وَ أَلْقَوْا بِجُثَّتِهِ في العَراءِ !»

وَكانَتْ بِيرِنْت تَبْكي في أَسًى وَلَوْعَةٍ ، وَهِيَ خائِرَةُ القُوى ، وَلكِنَّها واصَلَتِ الحَديثَ فَقالَتْ : « وَبَقيتُ وَحيدَةً حَبيسَةً في تِلْكَ الحُجْرَةِ المَعْزولَةِ خَمْسَةَ أَيّامٍ قاسِيَةٍ ، ذُقْتُ فيها شَتّى أَلْوانِ العَذابِ ، وَكانَ يُقَدَّمُ لِيَ القَليلُ مِنَ الطَّعامِ . وَفي اليَوْمِ الخامِسِ قَدَّموا لي وَجْبَةً شَهِيَّةً مَخْلوطَةً بِالأَفْيونِ ، فَفَقَدْتُ الوَعْيَ وَرُحْتُ في غَيْبوبَةٍ . وَعِنْدَما أَفَقْتُ وَجَدْتُهُمْ يَدْفَعونَني بِقَسْوَةٍ لِرُكوبِ قِطارٍ كانَ واقِفاً



بِمَحَطَّتِهِ ، فَاسْتَعَدْتُ قُوايَ وَشَعَرْتُ بِأَنَّني أَفَقْتُ مِنْ كابوسٍ مُزْعِج، وَقاوَمْتُهُمْ بِشِدَّةٍ ، وَاسْتَطَعْتُ الفِرارَ مِنْهُمْ . وَها أنا ذا أَقِفُ أمامَكُمُ الآنَ لا حَوْلَ لي وَلا قُوَّةَ .»

تِلْكَ هِيَ القِصَّةُ الَّتي شاءَ القَدَرُ أنْ نَتَتَبَّعَ أحْداثَها . وَمَضَتِ الشُّهورُ وَالأيّامُ حَتّى حَضَرَ إلى بَيْتِ هُولْمز في لَنْدَن الضّابِطُ بِينْز، وَمَعَهُ صَحيفَةٌ ، وَأَطْلَعَنا عَلى خَبَرٍ مَنْشورٍ بِها ، جاءَ فيهِ أنَّ حاكِمَ سان بيدْرو وَمُساعِدَهُ قَدْ لَقِيا حَتْفَهُما في مَدْريد ، عَلى يَدِ مُنَظَّمَةٍ ثَوْرِيَّةٍ تَمَكَّنَتْ مِنْهُما هُناكَ ، وَلَمْ يُسْتَدَلَّ عَلى أحَدٍ مِنَ الجُناةِ .



مغامرات شرلوك هولمز

١ - العصابة المرقطة وقصتان أخريان .

٢ - النظارة الذهبية وقصتان أخريان .

٣ - عصبة ذوي الشعر الأحمر وقصص أخرى .